© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات
رئيس مجلس الادارة: د. ناصر القدوة

رئـيـس التحـريــر: يحيى يخلف
مــديــر التـحـرير: غسان زقطان
مستشار التحريـر: فيصل دراج

يشارك في التحريـر: فيصل حوراني
عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النمنم
كمال عبد اللطيف
محسن بوعزيزي
كريم مروة

ادارة: رفيف الأسمر
وليد زبيدي

تصميم الغلاف: زهير ابو شايب
التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات
ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «١١» شتاء ٢٠١٦

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab000000009090480252510

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

الافتتاحية

٧ في الذكرى الواحدة والخمسين لانطلاقة الثورة الفلسطينية

شهادات البدايات/ ملف

١٣ شهادات تاريخية عن انطلاقة الثورة

توثيق وتحرير وإعداد: يحيى يخلف

١٤ شهادة الأخ عادل عبد الكريم

١٨ شهادة الأخت انتصار الوزير (أم جهاد)

٤١ شهادة الأخ عبد الحميد القدسي

أوراق فلسطينية

٥٩ الإنتفاضة، سماتها وآفاقها المستقبلية

عبد الغني سلامه

٦٩ الاستيطان الاسرائيلي وحقوق اللاجئين الفلسطينيين

عبد الفتاح القلقيلي

أوراق عربية

٨١ العلم الحديث والتقدم من التفاؤل الكبير إلى الكارثة

فيصل دراج

٩١ عبد السلام بوعزة الجزائري من حركة الشّباب العربي في لبنان إلى جمعية تحرير المغرب العربي

الأستاذ الدكتور مصطفى نويصر

١٠٩ التكفير: فشل الدولة لا فشل الثقافة

د.أحمد رفيق عوض

أوراق ثقافية

١٢٣ الروائي إلياس خوري: أنا لا أحب فلسطين أنا أحب الشعب الفلسطيني.. ولن أزورها وهي محتلة!

حاورته بديعة زيدان

١٣٣ التنافُذ تشكيلياً

شاكر لعيبي

١٤٥ السيرة الذاتية والشِّعر.. فيليب لوجون

تقديم وترجمة: عبد اللطيف الوراري

الفهرس

١٦٣ حين تعود الرواية العربية إلى الشكل البدئي!
أحمد المديني

١٦٧ فصل من رواية "الصخرة"
فيصل حوراني

١٨٣ جسد غريب في الحوش
محمد علي طه

١٩٣ فصل من سيرة مروية فلاديمير نابوكوف
ترجمة مايا أبو الحيات

٢٠٩ أندرس سابيلا.. رجل ذو دروب أربعة
ترجمة وتقديم : أحمد يعقوب

مراجعات وتقارير

٢٢٣ الأخوين لاما رائدا السينما العربية .. حكايات يلفها الغموض رافقتهما حتى النهاية !
يوسف الشايب

٢٣٣ لغز بني إسرائيل بين الكتاب المقدس وكتب التاريخ والآثار
نجاة نصر فواز

٢٤٣ "حيث اختفى الطائر".. ميثولوجيا اللاجئ وطواطمه
أشرف الزغل

مؤسسة ياسر عرفات

٢٥١ تقرير فعاليات مؤسسة ياسر عرفات

في الذكرى الواحدة والخمسين لانطلاقة الثورة الفلسطينية

يتوافق صدور هذا العدد من (أوراق فلسطينية) مع احياء الشعب الفلسطيني في الوطن والشتات للذكرى الواحدة والخمسين لانطلاقة الثورة الفلسطينية.

واحد وخمسون عاما والثورة مستمرّة، نصف قرن ونيّف من الزمان وكل جيل يسلّم الراية لجيل جديد، كفاح وتضحيات يعد بالساعات والأيام، في كل ساعة فداء، وفي كل ساعة صرخة حريّة، وفي كل يوم انجاز، والكفاح يزرع والسياسة تحصد، من خيمة اللاجئ الى خيمة الفدائي ومن الشعار الى الممارسة، ومن الحلم الى الميدان، ومن البسيط الى الصعب، ومن مخيم في الشتات الى مخيم في الوطن، ومن قاعدة في الأغوار الى متراس في سفوح جبل الشيخ، ومن احتضان الثورة في مخيمات الشتات الى انتفاضة داخل الوطن المحتل، ومن حضور في الإقليم الى الوصول لعمق الرأي العام العالمي، مسيرة لا تتوقف يواصل الشعب الفلسطيني خلالها دقّ جدران الخزان مقدما التضحيات وهو منتصب القامة، لا يتعب من طول الطريق وبعدها ولا يكل، فمنذ أن تلفّح بكوفية الفدائي، ووشاح المقاوم وارتدى بطولة القيم وهو يعلم أن الكفاح طويل المدى هو الطريق لتحرير فلسطين.

واحد وخمسون عاما كان لنا فيها أيام، ما لا حصر له من الأيام المشهود لها، يوم انطلاقة الثورة الأولى ويوم الانطلاقة الثانية، ويوم الكرامة، ويوم الحزام الأخضر، ويوم الصمود في بيروت، ويوم دلال المغربي، وأيام الانتفاضة المجيدة، وأيام الهبات الشعبية وأيام أخرى عشناها بالدقائق والساعات، ورب يوم أطول من قرن.

عشنا زمن الكبوة والنهوض، عشنا زمن التحولات ومدارات الوضع الدولي، وعبرنا برزخ المتغيرات، ومضائق الحصارات والمؤامرات، ومن رياح وأنواء وهزّات المتغيرات والحروب البعيدة والصغيرة عبرنا تعاريج مكر التاريخ، وظلت قضيتنا تتصدر المشهد في السياسة الدولية، وتشغل الجوهر في الضمير الانساني.

لم تنطفئ الشعلة، ولم تتحول حروب واجتياحات اسرائيل العسكرية الى هزائم سياسية، لم نرفع العلم

الأبيض في معركة بيروت، ولم نرفعه في حصار المقاطعة في زمن شارون، لم ينزل سقف ثوابتنا، ولم نتراجع قيد أنملة عن حقوقنا، وعندما هبّت رياح ما سمي بالربيع العربي لم نفقد البوصلة، نأينا بأنفسناعن الدخول في شؤون الدول ودعمنا مطالب الشعوب بالحرية والكرامة، لكننا لم نكن طرفا في صراع عربي داخلي، كما أننا لم نفقد الأمل في قوّة الحياة في روح أمتنا العربية، واعتمدنا على الذات وحققنا مكاسب دولية، وحصلنا على الاعتراف بدولتنا الفلسطينية في الأمم المتحدة، ورفع علم فلسطين جنبا الى جنب مع أعلام دول العالم، وحققنا اعترافا من الغالبية العظمى من دول الأمم المتحدة، وفي أوروبا ودول أخرى صوتت البرلمانات على الإعتراف بالدولة وقدمت توصياتها الى دولها، وانضممنا الى المنظمات الدولية التابعة للأمم المتحدة وعلى رأسها اتفاقيات جنيف والمحكمة الدولية في لاهاي، ونشطت حركة المقاطعة الدولية لإسرائيل ومستوطناتها، وتحققت مقاطعة اقتصادية لبضائع المستوطنات، وتحققت مقاطعة أكاديمية للجامعات التي تتواطىء مع سياسات الاحتلال، ومقاطعة للشركات الاسرائيلية والأجنبية والبنوك المتورطة في خرق القانون الدولي والمشاركة في جرائم الاستيطان، مقاطعة تتسع وتفرض عقوبات على اسرائيل، وتضيّق الخناق على سياساتها العنصرية ، وتعبّر حركة المقاطعة الدولية لاسرائيل عن يقظة الأخلاقيات الثقافية والانسانية في العالم أجمع.

واحد وخمسون عاما ونحن صامدون وثابتون على حقوقنا، وثابتون في نضالنا من أجل الحرية والاستقلال، لا ننحني أمام الممارسات التعسفية والعنصرية، ولا نتنازل عن حقوقنا، ويمارس شعبنا كل أنواع المقاومة السلمية.

وعلى خطى القائد الرمز ياسر عرفات يواصل شعبنا المسيرة متسلّحا بالأمل، فياسر عرفات زرع الأمل، وربّى شعبه على الانحياز للأمل في مواجهة اليأس، والانحياز للتفاؤل في مواجهة الاحباط، وهو الذي كان يشير الينا في كل منحنى لنرى الضوء في نهاية النفق.

وفي مواجهة اليأس والاحباط، ومع الانحياز الى الأمل يشهد وطننا المحتل في ذكرى الانطلاقة هبّة الأمل، الهبة الشعبية الجماهيرية التي تعلن للمحتل وتعلن للملأ أن جمرة الحرية لا تنطفئ، وأن شعبنا عصي على الترويض والتدجين والاستكانة، وأنّ الوطن عمره طويل ومديد، بينما أعمار الطغاة المحتلين قصار.

بينما ينشغل محيطنا العربي بصراعات داخلية معظمها ثانوية، وينشغل الإقليم بصراعات المصالح، وينشغل العالم بأسره في مواجهة موجة الإرهاب، نواجه نحن كحركة تحرر وطني معركة وصراع البقاء، لا نفقد البوصلة، ولا ننشغل بصراعات جانبية، بل إنّ صراعنا ينصب على التناقض الأساس، التناقض مع عدو سلب أرضنا، وأنكر حقوقنا، ويسعى الى اقتلاعنا ونفينا وإدامة احتلاله على ترابنا

الوطني، لذا فنضالنا السلمي ومقاومتنا الشعبية تجعله احتلالا مكلفا وباهظ الثمن على عدونا.

بل إنّ نضالنا الذي يتسع ويتنامى هو بالأساس نضال ضد ارهاب الدولة الاسرائيلية الذي هو الوجه الآخر لإرهاب القوى المتطرفة والتكفيرية وميليشياتها الاجرامية، ففي الوقت الذي تتسبب فيه داعش ومن على شاكلتها بتهديد الأمن والسلم الدوليين، تواصل فيه اسرائيل سياساتها العنصرية وتذهب بعيدا وبخطى متسارعة في اعتبار نفسها فوق القانون الدولي مما سيجر المنطقة الى حافة الانفجار، ومما يؤذن بقادم الأيام الى تهديد الأمن والاستقرار في منطقة الشرق الأوسط، وصولا الى تهديد الأمن والسلم في العالم أجمع.

وفي هذا السياق، فإنّ علينا أن نتأمّل سمات الوضع الدولي التي تبدو متحركة وليست ثابته، وتقدم سياسات المصالح على سياسات المبادئ والصراعات على الهيمنة وحماية المصالح الحيوية للقوى الكبرى، وانعكاس ما يجري في الإقليم والعالم من تطورات واعادة رسم للخرائط.

علينا أن نقف ونتأمل ونستخلص الدروس والعبر، وذلك بتمتين وتعزيز جبهتنا الداخلية، ووحدتنا الوطنية، وتجديد خطابنا وبنيتا السياسية، وتحديث برامجنا.

واذا ما نظرنا الى البدايات، والإرهاصات والسيرورة التاريخية المتوّجة بالانطلاقة، فإننا سنجد أنّ هذه المسيرة قد بنيت على قاعدة صلبة، قاعدة الوحدة الوطنية، فقد تشكلّت حركة فتح من قيادات تنتمي الى تيارات حزبية وفكرية متنوعة، واجتمعت على برنامج الحد الأدنى من أجل اعادة الاعتبار للهوية الوطنية الفلسطينية، واختيار الكفاح المسلح طريقا لتحرير فلسطين، لكنّ ذلك لم يمنعها من طرح شعارات لاستقطاب القوى الحزبية والفصائلية التي تشكّلت بعد الانطلاقة وانضمت الى فكرة الكفاح المسلح وذلك حين طرحت شعار(الوحدة الوطنية واللقاء على أرض المعركة) وشعار(كل البنادق موجهة نحو العدو). ومنذ أن انتخب المجلس الوطني ياسر عرفات رئيسا للجنة التنفيذية دخلت القوى والفصائل منظمة التحرير، فكانت الوحدة الوطنية هي الجامع لكل الشعب الفلسطيني وقواه الحيّة، وكانت فتح هي العمود الفقري للثورة، وكانت الثورة وعاء الوحدة، وكانت منظمة التحرير الخيمة التي يستظل الجميع بظلها الظليل، بل كانت الوطن المعنوي لشعبنا.

لقد حققت الوحدة الوطنية تحت راية منظمة التحرير مكاسب وانتصارات واعترف بها العالم كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني، وما زالت المنظمة تحقق مكاسب في الساحة الدولية، ومازالت الإطار الجامع لقوانا الوطنية، وما زالت قادرة على استيعاب القوى الاسلامية التي هي مكوّن من مكونات شعبنا، والتي وقعت على اتفاق القاهرة للمصالحة الذي ينص على تجديد

وتحديث واصلاح المنظمة ومؤسساتها، وانتخاب مجلس وطني جديد، وكذلك إجراء الانتخابات الرئاسية والتشريعية. إنّ من شأن تحقق المصالحة وتفعيل واصلاح منظمة التحرير، واجراء الانتخابات، من شأن ذلك أن يعمق ويرسخ وحدتنا الوطنية، ويقوّي جبهتنا الداخلية على أساس برامج متفق عليها، تكون منارة للطريق، وأسلوب عمل للحاضر والمستقبل.

إنّ الجبهة الداخلية الموحدة عنصر هام من عناصر الانتصار، وعلى الرغم من الظروف التي تحيط بنا في الإقليم والعالم، فإن الجبهة الداخلية في وطننا، أي الميدان يبقى هو القوّة الدافعة لحركة الحياة، والقوّة التي تحدد المصير.

وأمام الوضع الراهن الذي ينشغل فيه العالم بقضايا الإرهاب وصراع المصالح، وتنفرد به قوّة الاحتلال العسكرية الاسرائيلية والمستوطنون بارتكاب الجرائم اليومية بدم بارد، وتنغلق فيه كل الآفاق، فإن علينا أن نسد الثغرات في نظامنا السياسي، ونعيد ترتيب البيت الفلسطيني، ونرتّب أوضاعنا الداخلية، ونحافظ على ما انجزناه، ونحاول تقليل الخسائر، واجتراح المكاسب لشعبنا، الذي هو رأسمالنا البشري، وحل مشاكله وتحسين أوضاعه الاقتصادية، وتحسين الخدمات له، والسعي لتوفير فرص للعمل للشباب، والعناية بأسر الشهداء وشؤون الاسرى والجرحى، وتحسين خدمات الوزارات وخصوصا في مجالي الصحة والتعليم.

إن المحافظة على الذات، ومنع انهيار السلطة، وتفعيل واصلاح منظمة التحرير، ونشر وتعميم المقاومة السلمية ممارسة وثقافة، كل ذلك يندرج في اطار صمودنا وحماية قضيتنا.

وفي احتفالنا بالذكرى الواحدة والخمسين لانطلاقة الثورة نتذكر انّ الانطلاقة مستمرة، تتواصل وتتوالد بأشكال نضالية وكفاحية جديدة حسب الظروف والإمكانيات المتاحة. ونعرف أن مسيرة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة، وأن أجيالا مشت في المسيرة وما زالت، مسيرة طويلة، مسيرة الآلاف من الأميال، وما زال أمامنا الكثير مما يتعين أن نفعله لتتويج مسيرة أطول ثورة في التاريخ بتحقيق أهدافها.

ونحن نأخذ من جمرة الانطلاقة قبسا في ذكراها، نتذكر كل أولئك الذين أوقدوا الشعلة وقدموا التضحيات من القادة والكوادر القيادية وبنوا مداميك الحركة الوطنية المعاصرة، أولئك الذين يمثّلون جيل العمالقة، والذين على طريق الفداء صنعوا تاريخا جديدا لقضيتنا وشعبنا، ونتذكر شهداءنا وأسرانا، أسرى الحرية في سجون الاحتلال، ولا ننسى أن نحيي الشباب من الأجيال الجديدة الذين تسلّموا الراية ويواصلون صنع التاريخ.

(أسرة التحرير)

شهادات البدايات/ ملف

شهادات تاريخية عن انطلاقة الثورة الفلسطينية

توثيق وتحرير وإعداد: يحيى يخلف

يتضمن هذا الملف ثلاث شهادات أساسية تضيء على بدايات انطلاقة الثورة الفلسطينية المعاصرة لكل من :

- شهادة الأخ عادل عبدالكريم – أحد القادة التاريخيين الذي ساهموا في تأسيس حركة فتح، وكان في الخلية الأولى، ومارس دورا هاما في حياتها الداخلية من عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٩٦٦

- شهادة الأخت انتصار الوزير(أم جهاد)، من أوائل النساء اللواتي ساهمن في مرحلة البدايات، ورافقت الخطوات الأولى لتأسيس الحركة، وللانطلاقة وكانت شريكة درب ومسيرة أمير الشهداء خليل الوزير(أبو جهاد)، وتبوأت مراكز قيادية، وانتخبت في المؤتمر الخامس لحركة فتح عضوا في اللجنة المركزية.

- شهادة الأخ عبد الحميد القدسي، من الكوادر التاريخية لحركة فتح عن مرافقته للقائد الرمز ياسر عرفات في دورية عسكرية دخلت الأرض المحتلة بعد نكسة حزيران عام١٩٦٧ وكان دخول الزعيم عرفات يهدف إلى بناء القواعد الإرتكازية، وتهيئة التنظيم وإجراء الترتيبات للإنطلاقة الثانية للثورة الفلسطينية من داخل الأرض المحتلة وتصعيد النضال ردا على هزيمة الأنظمة عام ١٩٦٧.

شهادة الأخ عادل عبد الكريم

عام ١٩٥٥ عملت مدرساً في ثانوية صفد بدمشق، وكان معي محمود فلاحة، وفي تلك الفترة تعرفت على د.عبد الكريم الأسعد الذي علمني عام ١٩٤٧ و ١٩٤٨ في حيفا، وكان لي أصدقاء عديدون، منهم عبدالله الدنان، وعمر حسني عمر، ومحمود حنونه، وكنّا ونحن أصدقاء في المرحلة الثانوية نفكر بإصدار مجلة تعنى بشؤون فلسطين.

د.عبد الكريم الأسعد الذي علمني النحو في حيفا، وجاء ليعيش في دمشق أصبح صديقاً حميماً لنا، وكان شخصية وطنية تأثرنا بها.

عام ١٩٥٦ ذهبت للعمل في الكويت في مجال التعليم، وسافر د.عبد الكريم الأسعد للعمل في السعودية.

عام ١٩٥٨ وفي العطلة الصيفية، جئت إلى دمشق، وعاد أيضاً د.عبد الكريم من السعودية إلى دمشق، وصرنا نلتقي ونتحدث في الهمّ الوطني الفلسطيني، وخاصة فكرة إصدار مجلة تعنى بفلسطين وهمومها.

ذات يوم، وكنت أزور د.عبد الكريم، قال لي: عندي موعد مع شخص ناشط سياسي وهو فلسطيني معروف واسمه ياسر عرفات، كان مع وفد فلسطيني ذهب إلى العراق للتهنئة بقيام الثورة هناك، وسيكون معه شخص اسمه علي ناصر ياسين (أبوناصر).

ذهبت معه للالتقاء بعرفات وعلي ناصر ياسين في أحد الفنادق، فوجدناه ولم نجد معه علي ناصر ياسين. ويومها تحدثنا في الثورة العراقية، وتحدثنا عن فلسطين، وكان يتحدث كالزعماء ويبالغ في إبراز أهميته من خلال علاقاته الواسعة. يومها تحدثت معه حول إصدار مجلة فلسطينية، وطلبت منه أن يحصل لنا على إذن بإصدارها من القاهرة لأننا لم نستطع إصدارها من دمشق، فابدى حماساً لها واستعداداً، وقلنا له أننا سنتحمل مصاريفها، وانتهى اللقاء دون أن نأخذ عنوانه أو رقم هاتفه.

عُدت بعد انتهاء الإجازة إلى الكويت حيث وجدت نفسي منقولاً من المدرسة التي أدرس بها في الفحاحيل إلى الكلية الصناعية، أي أنني ترقيت.

في آخر شهر اكتوبر أو أوائل نوفمبر من عام ١٩٥٨ جاءني فجأة وزارني ياسر عرفات (عرفت فيما بعد أنه أخذ عنواني من د.عبد الكريم)، ودار حديث بيننا حول موضوع المجلة، فأجابني بأن المصريين لم يوافقوا، ثم غيّر الحديث، وقال لي: يجب أن نعمل ثورة مثل الثورة الجزائرية.

أعجبتني الفكرة، وتناقشنا طويلاً في الموضوع، وفي النهاية اتفقنا على تشكيل مجموعة لبدء العمل. وخلصنا إلى عقد اجتماع قريب يحضره اثنان من طرفه، واثنان من طرفي، ثم نختار اثنين من دمشق.

وفي اللقاء الأول حضر مع ياسر عرفات خليل الوزير(أبو جهاد) ويوسف عميره. وأنا احضرت معي صديقيْ عمر حسني عمر، ومحمود حنونه.

وبدأنا نقاش فكرة الثورة الفلسطينية، وكيف نؤسسها. وبعد الاجتماع اتفقنا على استمرار الاجتماعات التحضيرية، وكنا نلتقي مرة كل اسبوعين في بيت عمر حسني عمر بالفحاحيل.

واتفقنا على اختيار اثنين من دمشق هما عبدالله الدّنان، وعبد الكريم عبد الرحيم(وهو من بلدة العبّاسية).

وخلال فترة الاجتماعات التحضيرية انسحب محمود حنونه لأنه كان عضواً ملتزماً بحزب البعث، وقال أنه كعضو ملتزم يتعين عليه أن يبلغ حزبه، ولأنه من الناحية الأخلاقية لا يريد أن يخدعنا، فإنه يقدم استقالته، ولا مانع لديه من أن يكون نصيراً.

استقال حنونه، فأتيت بصديق لي اسمه توفيق شديد (وهو ابن عم علي ناصر ياسين). بقي توفيق شديد معنا حتى شهر مايو(آيار) ١٩٥٩ وكان على خلاف دائم مع ياسر عرفات، في مايو قدم توفيق شديد استقالته من المجموعة. لم نكن حتى ذلك التاريخ قد اتخذنا اسماً للتنظيم الذي يريد أن يطلق ثورة مسلحة.

في الأسبوع الأخير من آيار (مايو) اجتمعنا اجتماعاً حاسماً، وقررنا أن نجد اسماً لتنظيمنا الجديد، وأن نكتب بياناً نعلن فيه أفكارنا.

كنّا جميعا مفتونين بالثورة الجزائرية، لذلك استلهمنا اسم تنظيمنا من اسم (جبهة التحرير الوطني الجزائري). قلنا نسمي أنفسنا (جبهة التحرير الوطني الفلسطيني)، لكننا في النقاش قلنا أن كلمة (جبهة) لا تنطبق علينا، لأن الجبهة هي ائتلاف بين مجموعة من المنظمات، وهكذا استبدلنا كلمة جبهة بكلمة (حركة)، وهكذا صار اسم التنظيم (حركة التحرير الوطني الفلسطيني) ثم اكتشفنا اسمنا المختصر حين عكسنا الحروف الأولى من الكلمة، فأصبحت (فتح)، واسبشرنا خيراً بالاسم، حيث ورد في القرآن الكريم آية:"إذا جاء نصر الله والفتح".

* * *

في ذلك الاجتماع تناقشنا في موضوع البيان الذي يحدد هويتنا الكفاحية (وكان العمل في ذلك الوقت سريّاً، بل غاية في السريّة)، فكلفني الأخوة أن اكتب أنا البيان. كان اجتماعنا في الأسبوع الأخير من مايو ١٩٥٩، فوعدتهم أن أنجز كتابة البيان في الأسبوع الأول من يونيو (حزيران) ١٩٥٩، وهذا ما كان، وبعد إنجازه والموافقة عليه، أخذه مني خليل الوزير(أبو جهاد) وعمل على

طباعته وتوزيعه، وساهم في ذلك الوقت محمد الأفرنجي في توزيعه بغزة. واسمينا أنفسنا في ذلك الاجتماع: اللجنة المركزية للحركة.

* * *

بعد البيان كان لا بد من إصدار المجلة التي تحمل فكرنا، وتنشر آراءنا دون أن تفصح عن أنفسنا.

وذات يوم أبلغني أبو جهاد أنه وجد طريقة لإصدارها من بيروت. وهكذا صدرت (فلسطيننا) التي أضاف أبو جهاد عليها كلمة: نداء الحياة. وصار لحركتنا وسيلتان إعلاميتان هما: بيان حركتنا ومجلة فلسطيننا. وكنت أكتب الافتتاحية للمجلة تحت عنوان (رأينا).

* * *

عام ١٩٦٠ قررنا تنشيط الساحة السورية، وتشكيل لجنة تنظيم سوريا، واخترنا محمود الخالدي، وحسام الخطيب، وحسن عباس، وسليم زيد.

واقترح عبدالله الدّنان إدخال منير سويد إلى اللجنة المركزية.

* * *

هيكل البناء الثوري

هيكل البناء الثوري كتبناه عام ١٩٦٢، وهو كتابة جماعية من المجموعة ساهم في كتابته وصياغته عبدالله الدنان، ومنير سويد وغيرهم.

منذ عام ١٩٦٠ دخل الحركة العديد من القيادات التاريخية، مثل أبو أياد(صلاح خلف)، وفاروق القدومي، وخالد الحسن، وأبو مازن، وأبو يوسف النجار، وهاني القدومي، وأبو الأديب كان موجوداً منذ نهاية عام ١٩٥٩. أبو اللطف كان (ناظم) مع أبو عمار، وأبو السعيد جاء عام ٦٣ عن طريق عمر حسني عمر، ثم عن طريقي، وأبو مازن وأبو يوسف من قطر، وهاني القدومي عن طريق خليل الوزير عام ١٩٦٣.

وفي إبريل ١٩٦٦ صار محمود فلاحة عضواً في اللجنة المركزية.

عملية التابلاين

بعد الانطلاقة، نفذ ياسر عرفات ومجموعة معه عملية خط التابلاين في سوريا، الخط الذي يأتي من العراق ويمر عبر الأراضي السورية ثم ينتهي في صيدا.

العملية عملت مشكلة مع النظام السوري (أيام الرئيس أمين الحافظ) اللجنة المركزية لم يكن لها علم

بالعملية، فاتخذت قراراً بتجميد ياسر عرفات لمدة ثلاثة شهور من ١٩٦٥/١٠/١٥ حتى ١٩٦٦/١/١٥.

في شباط فبراير عام ١٩٦٦ شكلنا مجلس الطوارئ من جميع أعضاء اللجنة المركزية زائد فهمي هويد، ويوسف عرابي، ومختار بعباع، وأحمد جبريل، وعلي بشناق، ومحمود الخالدي، وحسام الخطيب، واتفقنا أن يكون مجلس الطوارئ هو المسؤول عن العمليات العسكرية.

* * *

في شهر مايو من عام ١٩٦٤ اجتمعنا في بيت عمر حسني لبحث موعد الانطلاقة، وتباينت بيننا وجهات النظر بين مؤيد للاسراع بالانطلاقة وبين من يريد التريث للتأكيد من وجود استعداد لذلك.

طلبنا حضور محمد الأفرنجي ليخبرنا عن إمكانيات واستعدادات غزة، حضر الأفرنجي، وسألناه عن صحة قائمة كان قد قدمها في الصليبخات، وفي تلك الليلة يبدو أن ياسر عرفات قد ضغط عليه وأقنعه بأن يغير رأيه.

وبالفعل تراجع الأفرنجي وغير رأيه بما يفيد أنه مستعد. وعندما غادر ترك لنا رسالة يقول فيها أن عرفات مارس عليه ضغوطاً كبيرة.

قررنا أن نكمل اجتماعاتنا في دمشق، وكنت شخصياً متشدداً في هذا الموضوع. وأرسلنا من يسأل الشيخ أبو سردانه حول الموضوع نفسه إلى الأردن، وكان جوابه سلبياً.

اعترض ياسر عرفات على كلام الشيخ أبو سردانه، فقررنا أرسال أبو الأديب إلى الأردن والضفة الغربية ليتأكد من الجاهزية.

عُدنا إلى الكويت، وتم الإقرار بالانطلاقة يوم ١٩٦٤/٩/١٦، أو ١٩٦٤/٩/٢٠. لكن الانطلاقة لم تتم، وفشلت لنقص الاستعدادات.

اقترح عبدالله الدنان تشكيل قيادة للانطلاقة، برئاسة أبو يوسف النجار، يكون فيها ياسر عرفات مساعداً أول له، ويكون محمود مسودة (أبو عبيدة) مساعداً ثانياً. لكن ياسر عرفات لم يعترف باللجنة، وعمل منفرداً، وكانت الانطلاقة الناجحة في ١٩٦٥/١/١، بعد قرار من اللجنة المركزية بالتصويت.

شهادة الأخت انتصار الوزير (أم جهاد)

قبل أن أبدأ لا بد أن أثمن الجهد الذي تبذلونه لتأريخ ثورتنا المجيدة، التي أعتقد أن بدايتها الأولى كانت في أوائل خمسينات القرن الماضي.

شهادتي عن أبو جهاد طويلة ومبكرة، خاصة وقد بدأت منذ الطفولة!

أبو جهاد خليل إبراهيم الوزير، مواليد مدينة الرملة، ولد في إضراب سنة ١٩٣٦، ولكن بعض الروايات تقول سنة ١٩٣٥، طفولته الأولى في مدينته الرملة، حيث كان الولد الأكبر للعائلة، وحظي من والديه برعاية واهتمام كبيرين، رغم ذلك ومنذ صغره تحمل المسؤولية.

كان يكلف من والده بمهام الكبار في مساعدته له في عمله، وكان يقوم بهذه المهمات بمقدرة، كان والده يمتلك (بقالة)، وهو الذي يذهب لشراء المواد الضرورية اللازمة للبقالة، ويحمل مئات الجنيهات الفلسطينية، ويذهب لإيداعها في البنك وهو على أبواب العاشرة من عمره.

اعتمد عليه والده منذ صغره وبالتالي تحمل المسؤولية في ذلك العمر المبكر.

التحق بمدارس الرملة، وكانت مرحلة الطفولة في ذلك الوقت، مرحلة مليئة بالمعاناة على الشعب الفلسطيني، فالاحتلال البريطاني يسيطر على البلاد، واليهود يتدفقون بالتواطؤ مع البريطانيين إلى فلسطين، ويسود الشعور لديهم بالمؤامرة، وان أرضهم ستسلب منهم، تدفق الهجرة اليهودية، وبداية بناء المستوطنات للمهاجرين الجدد، يعني، كانت المرحلة صعبة، بالنسبة لي وله. نحن أبناء عم، كان يكبرني بسبع سنوات، وأذكر أني زرتهم في الرملة مع والدتي ومكثت عندهم عدة أشهر.

كانوا أطفالاً، مثل كل الأطفال، يقومون باختراع ألعابهم الشعبية، يصنعونها بأيديهم، أذكر الزحافات التي كانوا يصنعونها، يحضرون قطع الخشب ويجمعون أغطية الزجاجات، ويربطونها بالخيطان على البكرات الفارغة، فتصبح زحافات، لم تكن الرفاهية متوفرة تلك الأيام، ولم تكن تصلهم الاختراعات الحديثة للألعاب، ولكنهم بشكل عام كانوا يعيشون حياة طبيعية، في مدينتهم الرملة، في بيوتهم في مجتمعهم، في أسرتهم، مع العائلة، حتى أجبروا على الهجرة.

حوصرت الرملة من قبل العصابات الصهيونية سنة ١٩٤٨ فالتجأ معظم أهالي الرملة إلى كنيسة في البلد، وأقاموا فيها ثلاثة أيام، عاشوا مع الرهبان الذين اعتنوا بهم وقدموا لهم احتياجاتهم من الإقامة والطعام، وفي الليل كانوا يخرجون لجمع الجثث ودفنها.

بعد ثلاثة أيام، عادوا إلى بيوتهم، فوجدوا المدينة خالية، مدينة أشباح. لا يوجد فيها غير الجنود

الصهاينة، وكانوا ينادون عليهم بمكبرات الصوت بالخروج من المدينة ومغادرتها، وقد أعدوا لهم باصات لتحملهم خارج المدينة.

والدته ووالده وأسرته لم يحملوا معهم أي شيء، غير (صرة) وضعت فيها والدته بضعة أرغفة وبعض قطع الجبنة لإطعام الأولاد. وعندما بدأوا الصعود إلى الباص، جاء جندي إسرائيلي وانتزع (الصرة) من يد والدته، ثم ألقى بها إلى الأرض، عز على أبو جهاد أن يرمي الجندي الأرغفة، فغافله ليحاول إحضارها عن الأرض، وفعلاً حمل (الصرة) وعاد بها إلى الباص، فرآه الجندي، وصوب بندقيته باتجاهه، وأطلق النار عليه، كانت والدته تتابع المشهد، فلما رأت الجندي يصوب باتجاه أبو جهاد، أسرعت واحتضنته، فانطلقت الرصاصة باتجاه ابن الجيران، ولعل هذه الحادثة. أول محاولة لاغتياله وهو لا يزال في العاشرة من عمره.

خرجت الباصات من الرملة باتجاه غزة، وكان القصف الإسرائيلي يطاردهم طوال الطريق، حتى وصلوا رام الله، وفي رام الله، قام الجيش الأردني بنقلهم إلى الخليل، وأذكر كما روى لي، عندما وصلوا الخليل، استقبلهم أهالي الخليل، وساعدوا المهاجرين الذين التجأوا إليهم من أكثر من مكان، قدموا الطعام والمساعدات، وأمضى مع عائلته ثلاث ليالٍ، ينامون تحت الأشجار، ثم واصلوا طريقهم إلى غزة.

قصة الهجرة والرحيل القسري من الرملة إلى غزة، ظلت راسخة في ذهن أبو جهاد، لم يمحها الزمن، وظل الإحساس بالألم، وبأنه لا بد أن يعود إلى الرملة في يوم من الأيام. هاجسه اليومي الذي عاش معه طوال حياته.

بعد اللجوء إلى غزة، درس في الخيم التي أقامتها وكالة الغوث للاجئين، وبدأت معاناته الحقيقية، في معاناة أسرته المادية، لقد تركت الأسرة منزلها ودكاناً كان مصدر رزقها، وأيضاً (حمّام) كان يمتلكه والده في الرملة، فلم يعد لديها ما تملكه.

عند وصولهم غزة. استضافهم والدي في بيتنا، وأقاموا سنة ونصف تقريباً معنا. عشنا هذه المدة في بيت واحد بحكم قرابتنا، فكما أسلفت أننا أبناء عم، ثم استأجروا بيتاً مستقلاً وأقاموا فيه.

واصل الدراسة في مدارس غزة، كان هو وشقيقه الأصغر في نفس الصف.

كان يدرس ويعمل في نفس الوقت، ويحاول مساعدة والده بالحصول على دخل للأسرة، وأول عمل عمله، أحضر صندوقاً فيه نثريات مختلفة، أمشاط، ماكينات حلاقة، مقصات، شفرات، أدوات خياطة، وكان بعد نهاية الدوام المدرسي، يجلس به على الرصيف للبيع طبعاً، ثم انتقل إلى عمل لدى أحد التجار، دون أن يترك الدراسة، واستطاع أن يوفر من هذا الدخل مبلغاً لشراء كاميرا، وبالفعل

اشترى كاميرا، وكان يمضي كل فراغه معها، يذهب بها إلى مخيمات اللاجئين في غزة، وجباليا، ورفح وكل مدن القطاع، كان يتجول ويصور هذه المخيمات، أماكن البؤس والشقاء، وخاصة الأطفال. بأشكالهم الفقيرة، البسيطة، دون ملابس، دون أحذية، وكيف يعيش الشعب الفلسطيني الذي اقتلعه الاحتلال من مدنه وقراه، وكان يرسل هذه الصور إلى المجلات والصحف العربية، وحتى إلى الأمم المتحدة. كان في هذا المجال نشطاً وفاعلاً في كشف معاناة الشعب الفلسطيني في هذه المخيمات.

بدأ وعيه السياسي يتفتح في بداية الخمسينات، لم يكن في قطاع غزة أحزاب كثيرة. كان حزب الأخوان المسلمين هو الأكثر حضوراً وانتشاراً، فانتمى إلى الحزب. وتشبع بثقافته، كان الحزب كما كل الأحزاب في فلسطين، تضع في أولويات شعاراتها، تحرير فلسطين، دون ممارسة عملية للشعارات، ترقى أبو جهاد في الحزب، وأصبح مسؤولاً للمكتب الطلابي، مشرفاً على الشبيبة الطلابية الملتزمة بالحزب، عملياً كانت هذه الفئة تحت قيادته، ووضع همه في تثقيف هؤلاء الشباب، يوعّيهم، ويدربهم على اللياقة البدنية.

أذكر كنت صغيرة، وكنت أراهم وهم يمشون بطريقة عسكرية، مجموعات، مجموعات، مثل الجنود. يكون هو على رأس هذه المجموعات بالشورت، والشباب خلفه يركضون مسافات طويلة في شوارع غزة، وخاصة على شاطيء البحر. في النصيرات، في رفح، يذهبون من غزة إلى تلك المناطق ركضاً، جري سريع، ومشي بطيء، كنت أحس أن لديه جهداً للبناء، بناء الإنسان وبناء الفرد، تطور عمله مع الشباب، وبدأ بالتفكير بأن فلسطين لن تتحرر إلا بالكفاح المسلح، كان مؤمناً بالكفاح المسلح، وأنه ليس غير أبناء فلسطين من سيخوض هذا الكفاح، فهم أصحاب القضية الحقيقيين، وهم الذين يجب أن يبادروا بهذا الكفاح، وبالفعل بدأ يفكر في طريقة للبدء بهذا العمل، فكتب تصوره ضمن خطة واستراتيجية إلى قيادة الأخوان المسلمين، بالطبع قرأوا الخطة، وكان جوابهم، ليس الآن، أي رفضوا الفكرة.

بدأ أبو جهاد بالانسحاب من الحزب تدريجياً، وبانسحابه انسحب الشباب أيضاً من الحزب، ثم فكر في عمل تنظيم خاص، وبالفعل استطاع أن يجند أعداداً كبيرة من الشباب التي أصبحت فيما بعد قيادات هامة في حركة فتح.

أذكر منهم، كمال عدوان، أبو هشام (سعيد المزين)، محمد الافرنجي، منير عزور، أحمد وافي، أبو الأديب، رياض الزعنون، كانوا بديلاً عن تنظيم الإخوان المسلمين، شكلوا تنظيماً، وكان هم التنظيم الأساسي، البدء في عملية الكفاح المسلح، ولم يكن للتنظيم اسم ، كانوا يلتقون ويتناقشون، ويقومون

بتطوير أفكارهم، ومن أبرز الشباب في تلك الفترة حمد العايدي.

كانت غزة تحت الإدارة المصرية، يعني تحت الحكم المصري، وكان لها حاكم عسكري مصري موجود في قطاع غزة وهو الذي يدير أمورها.

في تلك الفترة بدأوا بالفعل بعمل عمليات عسكرية، ومن أهم تلك العمليات، نسف (خزان زوهر) بين سنة ١٩٥٣ وسنة ١٩٥٤، ثم عدة عمليات نسف وتفجير، ووضع ألغام على طريق مرور الجيبات العسكرية، كانوا يقومون بالتسلل إلى المناطق المحتلة، ويشنون غارات على الدوريات الإسرائيلية، أو يزرعون الألغام على طريق مرورها.

وكانت إسرائيل تقوم بردات فعل عنيفة على هذه العمليات. وأبرز ردات الفعل حصلت سنة ١٩٥٥ كما أذكر عندما قصفت إسرائيل قطاع غزة بعنف وهمجية، وأوقعت ضحايا عديدة، جرحى، وشهداء، وتدمير.

كان أبو جهاد في ذلك اليوم في (الساحة) وهي مركز رئيسي في غزة، وكان يوجد بالقرب من الساحة سينما أسمها (سينما سامر)، وكان الفيلم فيها ينتهي في الساعة الخامسة ثم يخرجون من السينما إلى (الساحة)، وبالتحديد في لحظة خروجهم من السينما إلى الساحة قصفوا المكان بـ (المورتر) وأوقعوا أكبر عدد من الإصابات بين الناس، ثم اقترفوا مجزرة أخرى في كتيبة فلسطين، وكانت من الشباب الفلسطيني تابعة للجيش المصري، فقد جند المصريون مجموعات من الشباب باسم هذه الكتيبة، واستشهد أيضاً عدد كبير منهم في القصف الإسرائيلي، كذلك قاموا بقصف حاجز بين رفح وخان يونس وسقط جرحى وشهداء، على إثر هذه المجازر، قامت في غزة مظاهرات عنيفة جداً، كانت المرة الأولى التي يخرج فيها الشعب الفلسطيني عن بكرة أبيه، رجالاً ونساءً شباباً وشيوخاً، يتظاهرون ويطالبون بالتسليح، كان من رموز المظاهرات، فتحي البلعاوي، والشاعر معين بسيسو، وأبو يوسف النجار، وأبو جهاد.

تلك الفترة كان الأخ ياسر عرفات رئيساً لرابطة طلبة فلسطين في القاهرة، فقاموا باعتصام داخل الرابطة احتجاجاً على ما يجري في غزة، وكان في الرابطة أبو الأديب، وأبو إياد، وأبو اللطف ومجموعات من الطلاب أصبحت فيما بعد قيادات حركة فتح.

بالطبع كانوا جميعهم أعضاء في الرابطة، بلغت أخبار اعتصامهم الرئيس عبد الناصر. فأرسل يطلب أن يجتمع بقيادة الرابطة، وقابل ياسر عرفات وتحدث أبو عمار عن وضع الشعب الفلسطيني الأعزل، وتعرضه للمذابح دون أن يملك الدفاع عن نفسه، وطرح على عبد الناصر تسليح الشعب الفلسطيني، كان كل حديثه ضمن هذا الاتجاه، أجابه عبد الناصر بالموافقة، وطلب منهم تشكيل

وفد يذهب إلى غزة لعمل تقرير شامل بالأوضاع.

بالفعل حضر أبو عمار إلى غزة وكان يرافقه أبو الأديب، وأبو إياد كما اعتقد.

في هذه الأثناء كان أبو جهاد هو المسؤول عن مجلة (فلسطيننا) في مدرسة فلسطين الثانوية.

فذهب ليلتقي بياسر عرفات والوفد القادم عن رابطة الطلاب من مصر، ذهب كصحافي، وعمل لقاء مطولاً مع أبو عمار نشره في مجلة (فلسطيننا)، وكان هذا أول لقاء بين أبو عمار وأبو جهاد لقاء صحافي.

لم تتوقف العمليات العسكرية من قطاع غزة، وفي احدى المرات ذهب أبو جهاد مع احدى المجموعات، ولم يتمكنوا من الدخول، ولم يستطيعوا وضع العبوة، ولم يرغب أبو جهاد في إعادتها إلى غزة، قام بحفر حفرة في التراب، ودفن العبوة فيها، ثم وضع الصاعق في منطقة أخرى قرب العبوة.

بالصدفة مرت بالمكان هجانة مصرية، تركب الجمال فاصطدم الجمل بشيء، جعل راكبه يهبط ليرى الأمر، فوجد الهجانة العبوة، وقاموا بتفتيش المكان، فعثروا أيضاً على الصاعق، فحملوا العبوة والصاعق إلى السرايا في غزة.

قام الضابط الموجود بفحص العبوة وتفكيكها، ووجدها صنعاً محلياً، قطعة حديد تحمل ضاغطاً على المتفجرات. فقام بفك الحديدة عن العبوة وأخذها، وطاف بها على الحدادين في غزة وسألهم جميعهم:

- هل تعرف أن تصنع قطعة مثل هذه؟ فكان الحداد يجيب : بنعم.

- هل أتى أحد وطلب عمل مثل هذه القطعة من عندك؟ الإجابة: لا.

المهم استطاع الوصول إلى حداد في حارة الزيتون. فسأله نفس الأسئلة السابقة، وهل عمل لأحد مثلها، فقال الحداد، نعم عملت لشاب لا أعرف أسمه، ووصفه بأنه أسمر، نحيف، كان ابن الرجل جالساً يستمع، فقال: أنا أعرف أسمه، هذا خليل الوزير. وهو طالب في مدرسة فلسطين الثانوية.

في نفس اليوم انتظروه أمام المنزل، وعندما خرج أبو جهاد من الباب، نادوا عليه، وأخذوه معهم إلى السرايا، لم يكن يعرف لماذا قبضوا عليه؟ وكان في جيوبه أوراق تتعلق بنشاط التنظيم، فطلب من الضابط الذهاب إلى الحمام وهناك تخلص منها في الحمام.

جاء والده ووالدته إلى بيتنا. وأخبروا والدي أن المخابرات قبضت على خليل ولا يعرفون لماذا؟ فبدأوا محاولاتهم لمعرفة القصة ولإخراجه من السجن.

أثناء ذلك وهو جالس في غرفة الضابط، قام الضابط بفتح الخزانة التي فيها قطعة العبوة. فرآها أبو جهاد وعرف موضوع التهمة، وكان يستعد في ذلك الوقت لتقديم امتحان الثقافة كما يسمى وهي شهادة تسبق الثانوية العامة بسنة ولكن حادثة اعتقاله أضاعت عليه الامتحانات فلم يتمكن من تقديمه، فقد أفرج عنه بعد ٢٤ يوماً، وكانت الامتحانات قد انتهت.

يتحدث عن ذلك الاعتقال دائماً بمرارة، وأن الإهانة الأكبر التي أحس بها عندما قاموا بحلق شعره.

طبعاً، حققوا معه تحقيقاً شاملاً لمعرفة من وراءه؟ ومن شريكه؟ لقد تصوروا وجود جهات قوية خلف هذا العمل، فاخبرهم أنه قام بهذا العمل بدافع وطني شخصي هو وصديقه حمد العايدي، الذي كان قد أحّس بالملاحقة، قبل إلقاء القبض على أبو جهاد بفترة، وترك غزة إلى الضفة الغربية.

فطبعاً كان أبو جهاد متأكداً من وجود حمد العايدي في الأردن.

بالتالي كل إجاباته، انه وحمد فقط اللذان قاما بالعمل، ثم صدر حكم بإبعاده، تدخلت من أجله وساطات الأهل والأصدقاء. واستطاع إكمال دراسته حتى التوجيهي الذي حصل فيه على واحد من الأوائل الستة في مصر وغزة، فالشهادة كانت تضم مصر وغزة، ثم غادر إلى جامعة الإسكندرية. طالباً في كلية الصحافة.

في غزة. كنت في عمر اللعب في الشارع، عندما بدأ الشباب بالتفكير بمقاومة الاحتلال. بدأوا بإصدار منشورات ضده، ففكرة المقاومة ظلت مستمرة. أما أبو جهاد فكان قد بدأ بالتردد على رابطة الطلبة الفلسطينيين في القاهرة، ولما احتلت غزة، ترك الجامعة في الإسكندرية والتحق بمعسكر التدريب الذي أقامته الرابطة، لتدريب الشباب الفلسطيني وإرسالهم إلى غزة لمقاومة الاحتلال، التحق بالمعسكر استعداداً للعودة إلى غزة. طبعاً انتهت الحرب سنة ١٩٥٦، وانسحب الإسرائيليون من القطاع.

كان أخي الكبير درويش الوزير، يعمل في السعودية، مساعداً لوزير التربية والتعليم، وكان يأتي مع وزير التعليم للتعاقد مع المدرسين.

جاءت البعثة من السعودية للتعاقد مع مدرسين عرب، مصريين، فلسطينيين، وأردنيين، ولبنانيين إلى القاهرة. وحضر أخي مع البعثة، وبالطبع التقى أبو جهاد، وطلب مساعدته في ترشيح مدرسين للبعثة، فأحضر له أبو جهاد معظم رفاقه من شباب التنظيم في غزه، جمعهم من مناطقها المختلفة، للذهاب للعمل في السعودية، وكذلك تعاقد هو الآخر وذهب إلى السعودية، وتم تعيينه في منطقة (القنفذة). وهناك كانت الحياة صعبة، لم يستطع العيش فيها، كانت الظروف صعبة، والمعاناة شديدة.

وفوق كل ذلك مرض، كره العمل، وبسبب المرض وكل هذه الظروف، قرر ترك السعودية بعد أن أقام فيها ستة أشهر.

عاد إلى غزه، وبدأ يراسل أصحابه في الكويت، للذهاب للعمل هناك، وبالفعل، جاءه قبول للعمل في الكويت سنة ١٩٥٧، سنة ١٩٥٨ في الكويت تجذرت علاقته بياسر عرفات، وبدأوا حوارات ومناقشات جادة باتجاه العمل، وقد كتب بخط يده، (كنا في سيارة ياسر عرفات، نجوب شوارع الكويت، وتوقفنا فجأة على شاطئ الخليج، وهناك اتخذنا خطوتنا الأولى، وقرارنا الأول بأن نبدأ بالتنظيم)، وتم الاتفاق على بناء تنظيم وبداية الكفاح المسلح، كانت الخلية الأولى التي بنيت بشكل تنظيمي، ثمّ انضم إليهم عادل عبد الكريم وبدأت الخلية الأولى بهؤلاء الثلاثة، ياسر عرفات، خليل الوزير، عادل عبد الكريم، في الاجتماع الثالث انضم إليهم (يوسف عميره، ومحمد شديد)، وأقسموا اليمين بالاستمرار في العمل وان يعمل كل واحد منهم، ينظم آخرين يثق بهم لينضموا إلى هذه الخلية، لكن بعد فترة انسحب يوسف عميره ومحمد شديد وبقي الثلاثة مصممين على بناء حركة لأجل الكفاح المسلح وتأسيس التنظيم.

علاقتي مع أبو جهاد

ارتباطي الشخصي بدأ عبر القرابة بيننا، فنحن كما أسلفت أبناء عمومة، ومنذ بدأت مرحلة الإدراك، أحسست بالفعل، أنني أحبه، كان يجذبني بشخصيته، وأفكاره، وتعامله، ورقته، وشعوره القوي تجاه وطنه وتحريره يشدني إليه، وكنا دائماً في نقاش دائم ومستمر تجاه هذا الموضوع، نتفق، ونختلف، ولكن كل ذلك في نطاق العائلة. وللمفارقة أنني لم أنتظم في فتح عن طريق أبو جهاد، ولم أكن أعرف أنه أحد كوادر فتح.

كنت مؤمنة بافكاره ولعلها بلا شعور دفعت بي إلى اختياري، وزاد تأثير هذا الاختيار، احتلال غزة سنة ١٩٥٦، عندما اقتحم الإسرائيليون بيتنا، وقاموا بضرب والدي لأنه رفض أن يدلهم على مكان شقيقه غالب الوزير، كان الإسرائيليون يبحثون عنه، وعن كمال عدوان وعن سعيد المزين (أبو هشام) وعن منير عجور، فطلبوا من والدي أن يدلهم على منزل عمي غالب، فرفض فقاموا بضربه، وهذا أثر في نفسي كثيراً.

وفي نفس السنة، بدأت أساعد الشباب، أذكر أني حملت لهم آلة كاتبة، ثم مناشير، ثم توصيل رسائل من س إلى ص، ولم أكن أقدر كثيراً أبعاد هذه الأعمال.

خرج اليهود من غزة، وتركوا أسئلة كبيرة وواعية لدى الشباب (الفلسطينيين)، دخول اليهود

وخروجهم دون أن يكون لدى الشباب والشعب الفلسطيني سلاح لمقاومتهم.

تولدت حالة من الغضب والرفض لهذا الواقع، وبأنه يجب أن يكون في أيدي الفلسطينيين ما يقاومون به.

الحكم المصري، التقط هذا الغضب الذي بدأ يظهر في الشارع، وحاولت الإدارة المصرية امتصاص هذا الغضب فأعلنوا عن إنشاء الجيش الشعبي، والتدريب في كل المدارس في ساعات إضافية، خصصت للتدريب العسكري، والتوعية الوطنية، في المدرسة حضرت حلقات التدريب على تفكيك السلاح، كانت بارودة لا أذكر اسمها الآن وأشياء بسيطة.

لكنها كانت تولد لدينا نقاشات مع الاستاذ المدرب، كانت نقاشاتي تلفت انتباه المدرب، فأصبح يركز عليّ خلال المناقشات، ثم أحضر لي مجلة (فلسطيننا)، كان هذا سنة ١٩٥٩، عند قراءاتي لهذه المجلة كنت أحس ان وراءها تنظيم، وأنها ليست مجرد مجلة للقراءة فقط، هناك ثمة فكر. وهدف واضح داخلها من المقالات التي كانت تحرض على الثورة. سألت الأستاذ المدرب، من أين أحضرت هذه المجلات؟ أريد أن أكون واحدة من هؤلاء الذين يطرحون هذه الأفكار، وبالفعل تنظمت عبر أستاذي، سنة ١٩٥٩ أيضاً وفي الصيف، طلب مني الأستاذ حضور اجتماع، وقال لي: سيحضر هذا الاجتماع مسؤول من خارج غزة، وطالما لديك الرغبة بالتعرف عليه، سنعرفك عليه.

ذهبت قبل موعد الاجتماع لأرى المسؤول، فلما حضر المسؤول كانت المفاجأة انه أبو جهاد، فقلت له: أنت في حركة فتح؟ لماذا لم تخبرني أنك في فتح؟

وبدأت أناقشه بعتب، قال لي: الآن سنحكي في أمور فتح، ثم نتناقش، ونتفاهم.

استمرت الجلسة حوالي ساعتين، ناقشنا كل القضايا المطروحة، وعند انتهاء الاجتماع، قال لي: سأوصلك إلى البيت، وفي الطريق برر لي لماذا لم يقل لي، وقال أنه متأكد أنني إنسانه مناضلة، وأحب العمل في الإطار الوطني، وأنه لم يرغب أن يؤثر علي لدخول الحركة حتى لا تكون مجاملة مني له، وأنني ابنة عمه، وأنه سعيد جداً، انني وصلت لحركة فتح باختياري، وقناعتي، وهذا في رأيه يعني أن لدي إمكانيات العمل والاستمرار، وبالفعل أصبحت الصورة مختلفة، ومنذ تلك اللحظة أصبحت أمينة سره، يضع لدي الوثائق السرية والهامة، وحتى تخبئة الأسلحة.

كان يعمل في الكويت ذلك الوقت، ويأتي إلى غزة في عطلة، الصيف والشتاء، للتواصل مع أبناء الحركة، وفي فترة غيابه، كانت الاتصالات تأتي إلي وأقوم بتوزيعها على الأخوة في الحركة، محمد الافرنجي، موسى عرفات، الخزندار، الخلايا الأولى للحركة في غزة.

استمرت علاقتنا علاقة عمل من سنة ١٩٥٩ إلى سنة ١٩٦١، فشخصية أبو جهاد، كتومة، وهو من النوع الذي يخفي مشاعره، ولم يكن يرغب في الارتباط، وهذا ما قاله لي فيما بعد، كانت فكرة الارتباط والزواج، وبناء أسرة تخيفه، بأنها قد تكون عائقاً للمهمة التي نذر حياته لها، فتحرير فلسطين هو الهدف الأول في حياته، وقال إن الكثير من الشباب والأصدقاء الذين عرفهم وارتبطوا بالزواج، فتر حماسهم واهتمامهم بالعمل التنظيمي عما قبل الزواج بسبب مسؤوليات الزواج، وتراجع جهدهم، وهو لا يريد أن يصل إلى هذه المرحلة.

لكني بشعوري الثوري وإيماني بنفس أفكاره تجاه فلسطين، استطعت ان أقنعه، ان هذا لا ينطبق على الجميع، قلت له: فلسطين ليست لك وحدك، وهي قضيتنا جميعاً. وبالتالي علينا التضحية.

قال: أنه مشروع استشهادي، وأن نتائج استشهاده وتوابعها عليّ تخيفه، قد أصبح أرملة في وقت مبكر، وأبدأ بالمعاناة وحدي، أو يصاب فيصبح مقعداً مثلاً، وأيضاً هذه معاناة لي، أو يسجن...إلخ. فكيف اقبل بالارتباط برجل هذا هو مصيره ومستقبله؟ حذرني من ربط مصيري به.

كان يرى مصير اختياره دائماً أمامه، ومنذ بدأ طريقه في النضال، فكنت أؤكد عليه أن المستقبل لنا جميعاً، والقضية قضيتنا جميعاً، وأنك وحدك لن تحرر فلسطين، فهي تحتاج لجهودنا معاً، وأن نضع أيدينا مع بعضها ومصيرنا واحد.

فتزوجنا سنة ١٩٦٢، المهم عقدنا القران وقال لي يومها: أنا رجل لاجئ، ومشرد ولا يمكن أن أعمل، احتفالاً وعرساً، لا رقص ولا غناء. فوافقت، وقلت له بدوري: أنا ليست لدي مشكلة في هذا الموضوع، وتزوجنا دون عمل فرح، الأصدقاء احتفلوا به على طريقتهم، فكتب أبو هشام (المزين) قصيدة للمناسبة، خاطبه فيها، يا زعيم العازبين، فقد كان متزعماً عدم الزواج.

للحقيقة قضية فلسطين، عاشت معنا في كل مسامات حياتنا، في اليوم الثالث من زواجنا أحضر آلة كاتبة، وبدأت أطبع له البيان، كنا نقوم بطبعه على ورق الحرير، ونسحبه، ونعمل منه عدة طبعات على الكربون، كنت طول النهار، الباب مغلق، وأنا أطبع.

ثم خرجنا من غزة إلى القاهرة، ومن القاهرة إلى بيروت، سافرنا إلى لبنان عن طريق المطار، وقدمنا جوازاتنا. اطلعوا عليها، وثائق فلسطينية صادرة من غزة، قالوا: ممنوع دخولكما لبنان، كان الوقت ظهراً، فبقينا حتى التاسعة ليلاً ونحن في غرفة الانتظار، جالسين على المقاعد، جاء ضابط وسألنا، لماذا نحن جالسين؟ فقال أبو جهاد: أننا جئنا لنقضِي شهر العسل في لبنان، ولم نعطَ تصاريح الدخول، طلب أن يرى الجوازات، وقال: اذهبوا واحجزوا على أي بلد آخر، حجزنا إلى الأردن، وأبقى الضابط الجوازات والتذاكر معه، وأعطانا ورقة نخرج بها من المطار ونمضي ليلتنا في بيروت، وأن نعود في

صباح اليوم التالي لأخذ تذاكرنا ومغادرة لبنان.

كان المهم أن ندخل إلى بيروت، وفي بيروت غبنا، أقمنا بحدود شهر تقريباً، وقام أصدقاء أبو جهاد وهما لبنانيان، (توفيق حواري) و(هاني فاخوري)، بإحضار الجوازات، وتأشيرة دخول، وعملاً لنا إقامة في بيروت.

في تلك الأيام، كانت فتح تقيم معسكر تدريب في الجبل (بحمدون) وكان المعسكر سرياً، كانت الأرض التي أقيم عليها المعسكر لأحد الاخوة، وجاء إليه شباب من الأردن وبالطبع من لبنان، فذهبت معه إلى المعسكر، وتعرفت على الشباب، الذين يتدربون وفيما بعد جاءوا لزيارتنا في الأردن، والتقيت وإياه بالدكتور زهير العلمي، ورافقته إلى كل الأماكن التي كان يذهب إليها.

كان يمضي معظم وقته في متابعة (مجلة فلسطيننا)، وأستطيع أن أقول أنه كان يصدرها بأكملها، فهو مسؤولها الأول، وهو الذي يستكتب الاخوة لها، أبرز كتابها الأخوان، أبو عمار، وأبو اللطف، لكنه المسؤول عن إخراجها وإصدارها وما يكتب فيها من مقالات، وفي بيروت جاءه شاب من عين الحلوة، فطلب منه أبو جهاد، أن يرى شباب الحركة في المخيم وأن يجتمع بهم، كان مخيم عين الحلوة مسيطراً عليه سيطرة كاملة من المكتب الثاني، ولا إمكانية لأحد بالدخول إليه، وخاصة إذا كان شخصا غريبا، يمنع أو يلاحق فوراً، فرتب الشاب طريقة لدخولنا إلى المخيم، ذهبنا لنجد ان والدته، قد هيأت البيت لعمل عرس، ودعت الجارات والصديقات، على اعتبار ان العروس ابنة أخيها، وأنها قادمة من فلسطين لزيارتها، وستحتفل بها، وبالفعل قمت بدور ابنة أخيها، وجلست مثل العروس، وبدأ الغناء والطبل والرقص، وأبو جهاد يعقد في مكان آخر اجتماعاته مع الشباب، وكان منهم أحمد الأطرش، شقيق الشهيد زياد الأطرش، المهم بقينا حتى أنهى اجتماعاته، وعاد بالعروس إلى بيروت.

وانتهت الزيارة وعدنا إلى الأردن، وكان أبو جهاد قد تغلب على صعوبة دخوله إلى الأردن. فقد أرسل من قبل وهو في الكويت رسالة إلى وزير الداخلية الأردنية، قال فيها، أنه مدرس فلسطيني يعمل في الكويت، وأنه يرغب مع عروسه، بقضاء شهر العسل في ربوع الأردن الحبيب، وكان رد الوزير ايجابياً، أننا نرحب بكما، وستكون الفيزا جاهزة في مطار قلنديا، نزلت الطائرة في مطار قلنديا وبالفعل كان كل شيء جاهزاً، وذهبنا مباشرة إلى القدس، تجولنا في الضفة الغربية، وفي عمان، والسلط، والزرقاء، والتقينا بكوادر فتح، ووجدنا أن استعدادهم تام وهم متحمسون في انتظار الانطلاقة، وطالبوا ببعض التجهيزات، وطبعاً شرح لهم الوضع في الخارج، والظروف، والمعوقات أمام الانطلاقة، وأن البداية ستكون قريبة.

في الخليل نزلنا في ضيافة (بدوي جنيد)، وكان هذا الرجل من أهم رموز فتح في الخليل، كما التقينا بشخصيات كثيرة في الخليل، وفي عمان التقينا الأخ أبو ماهر غنيم، وفي أريحا الأخ حمد العايدي، ثم ذهبنا إلى رام الله، وقلقيلية، وطولكرم، وكان وجودي معه يعطيه غطاءً في هذه الجولات وكنت أسهل له الحركة.

من الأردن خرجنا إلى الكويت مباشرة، ونحن نهبط، كان ياسر عرفات ينتظرنا عند درج الطائرة، رحب بالعروس، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها أبو عمار.

أخذنا في سيارته إلى بيت ابن عم لي اسمه محمود الوزير، وأصبحنا منذ ذلك اليوم معاً، لا نفترق، أبو عمار، وأبو جهاد، وأم جهاد، دائماً وفي أي مكان، بحثنا معاً عن بيت للسكن، اشترينا أثاثاً للبيت معاً، ولما أصبح لدينا بيت، أصبح هذا البيت هو مركز القيادة، جميع أعضاء اللجنة المركزية، تأتي للاجتماع فيه، أبو اللطف، وأبو السعيد، عادل عبد الكريم، عبد الله الدنان، محمود فلاحة، هاني القدومي.

كان العمل لا يزال سرياً حتى ذلك الوقت، وكان حضور ضيف غريب إلى البيت، والشباب موجودين، يربكنا، فنلجأ للاعتذار بأية طريقة.

علاقة أبو جهاد مع الاخوة في الجزائر

طبعاً سأرويها كما أعرفها، بدأت العلاقة مع الجزائريين من خلال الأخ (أبو رؤوف)، الأخ الأكبر لأبو عمار، والذي ربطته بإخوة جزائريين علاقات وطيدة فترة وجودهم في مصر، كان (أبو رؤوف) صديقاً، لآيت أحمد، ومحمد خضير، وعندما اعتقل القادة الخمسة مع بن بيلا، ظل (أبو رؤوف) على علاقة متواصلة مع عائلاتهم، يتصل دائماً، يحاول مساعدتهم في ما يحتاجونه، فلم يقطع الصلة بينه وبينهم أبداً.

وعندما تحررت الجزائر، جاءت دعوة للأخ (أبو رؤوف) لحضور احتفال الاستقلال، امتناناً لدوره معهم، ولتأييده وتضامنه الدائم لهم، فذهب للجزائر، وبعد حضور الاحتفالات، عرض الجزائريون على الأخ (أبو رؤوف) بفتح مكتب للفلسطينيين في الجزائر، ليتعرف الشعب الجزائري على الوضع الفلسطيني، قالوا: نحن لا نعرف شيئاً عن الفلسطينيين، وطلبوا من (أبو رؤوف) ان يستلم المكتب، وبالتالي تتعزز العلاقة بين الجزائر وفلسطين.

مكث (أبو رؤوف) في المكتب فترة أيام، ثم أرسل للإخوة في فتح، انه لا يرغب في البقاء في الجزائر، وعليهم اختيار احد الإخوان منهم ليقوم مقامه، ويستلم المكتب قبل هذه الفترة، كان محمد خضير

قد حضر إلى الكويت، فذهب أبو عمار وأبو جهاد لمقابلته، وطلبوا منه فتح مكتب لفلسطين في الجزائر، فقال لهم: ان المكتب موجود، وأننا سلمناه للأخ (أبو رؤوف)، وإذا أردتم الحضور فليس لدينا أي اعتراض.

حصل هذا في شهر ١٩٦٣/٣، كانت اللجنة المركزية تلك الليلة مجتمعة في بيت عادل عبد الكريم، وجاء أبو جهاد حوالي الفجر من الاجتماع، وقال لي: علينا الاستيقاظ باكراً، كان الغد يوم جمعة وهو يوم عطلة . قلت له: غداً الجمعة، لماذا؟

قال: سنسافر، أنا سأذهب إلى الجزائر وأنت إلى غزة، ولا أريد ان يعرف بسفري الى الجزائر أي إنسان، حتى والدتي ووالدي.

صباح الجمعة ذهبنا إلى المطار، فاصطدمنا بأنه كمدرس يجب أن يكون معه إذن خروج فمُنِع من المغادرة، وعدنا لأبو عمار الذي بعلاقاته استطاع، أن يمون على أصدقائه الكويتيين بفتح دائرة التربية والتعليم، أي وزارة التربية والتعليم، في يوم جمعة، وأن يستخرجوا تصريح موافقة لأبو جهاد كي يغادر الكويت، وهذه دلاله من الدلالات على قوة العلاقة التي كانت بين الأخوة في الكويت والفلسطينيين، كم كانت وثيقة ومؤثرة؟.

في اليوم التالي غادرنا إلى بيروت، أنا ذهبت من هناك إلى غزة، وهو إلى الجزائر، وأخفيت الأمر ولم يعرف أحد إلى أين ذهب؟.

في غزة أنجبت جهاد الذي كنت حاملاً به، وبقيت هناك ستة أشهر، خلال هذه الفترة، كان قد وصل الجزائر، واستلم المكتب من (أبو رؤوف) ، وفيما بعد قال لي أبو رؤوف: أنه أقسم يمين التحاقه بالحركة أمام أبو جهاد.

كان بن بيلا هو الرئيس ذلك الوقت، وكان يخضع لضغوط مصرية قوية، وكان رأي المصريين، أن لا تمنح الجزائر حركة فتح، مكتباً، فمن هم هؤلاء؟ وهكذا عطل بن بيلا تسليم المكتب لأبو جهاد، وبدأ أبو جهاد يذهب يومياً إلى مكتب بن بيلا، ليأخذ إذن تصريح بفتح المكتب، وكان يبقى هناك طوال النهار وحتى نهاية الدوام، لدرجة أن بعض الموظفين اعتقدوا أنه موظف معهم في مبنى الرئاسة.ستة أشهر أمضى على هذا الحال، والعائلة تسأل، أين خليل؟ فأجيب، أنه يقدم امتحانات في الجامعة في بيروت، وكانت المخابرات المصرية تأتي كل يوم للسؤال عنه؟

في الجزائر، اتخذ اسماً غير اسمه، فكان يعرف (علال بن عمار) اسم جزائري، وبدأ الشباب بالتعرف عليه كجزائري، وبالصدفة بعد الشهور الستة، التقى بأحد أصدقائه الجزائريين، (عثمان السعدي) الذي كان ممثلاً لجبهة التحرير الجزائرية في الكويت، وكان أبو عمار وأبو جهاد من أنصار الجزائر،

وكانت بينهم وبينه علاقات خاصة في إقامة المهرجانات لحملات التبرع للتضامن مع الجزائر.

فجلسا على مقهى، وقال له أبو جهاد: أنني منذ ستة أشهر وأنا أحاول فتح مكتب لنا، ولكن الأخ بن بيلا يرفض، وكان لنا أمل كبير في فتحه.

إخواننا الجزائريون سند لنا، والأخ بن بيلا هو الذي قال: أن تحرير الجزائر سيبقى منقوصاً حتى يتم تحرير فلسطين.

وواضح أنها شعارات فقط، ولا يوجد دعم حقيقي، وأخرج مفاتيح المكتب وقال للسعدي: هذه هي مفاتيح المكتب، سلمها لابن بيلا.

تأثر السعدي كثيراً وأخذ المفاتيح، وأبو جهاد غادر إلى المطار. قابل السعدي بن بيلا، وسأله لماذا يتصرف مع هؤلاء المناضلين الفلسطينيين هكذا؟

وقال لابن بيلا: هؤلاء مناضلون، أنا أعرفهم وأثق بهم.

فقال له: اذاً على مسؤوليتك، ليفتحوا المكتب.

فأجابه: لكن الرجل غادر إلى المطار.

قال: سنعيده.

وفعلاً اتصلت الرئاسة بالأمن والشرطة الجزائرية، وأعادوا أبو جهاد، وتم فتح المكتب.

بعد اطمئنانه على المكتب واستقرار الأمور، وإقامته في الجزائر، أرسل لي بأن الحق به.

فتح المكتب أبوابه لمساعدة الفلسطينيين القادمين للدراسة أو العمل، وخاصة في التحاق طلاب فلسطين في الجامعات الجزائرية، وإيجاد فرص عمل في سلك التعليم للحاصلين على شهادات، للعمل في خطة التعريب التي بدأت بها الحكومة الجزائرية بعد الاستقلال.

بالصدفة وصل أحد أقاربنا من غزة، وذهب إلى المكتب، ورأى أبو جهاد، اندهش من الاسم، فهذا خليل الوزير، وسأله: أنت خليل الوزير؟

فرد أبو جهاد: لا، أنا اسمي علال بن عمار.

كتب الشاب رسالة إلى والدته، بأنه التقى بخليل الوزير في الجزائر، ومع الأسف، أنكر شخصيته، وكان شبه اتهام بأن أبو جهاد تخلى عن (أصله).

كنت لا أزال في غزة، فحضرت قريبتنا، حاملة رسالة ولدها، وقرأت الرسالة أمام العائلة.

وبدأت الأسئلة، أين أبو جهاد؟ قلت: غير صحيح، خليل في بيروت.

بعدها سافرت إلى الجزائر ومعي جهاد الذي بلغ عمره ستة أشهر، وجدت أن الأخوة في الكويت قد باعوا لنا عفش البيت، وأرسلوا رواتب أبو جهاد المستحقة له، لكن الوضع المالي صفر، فأبو جهاد تصرف بكل المبلغ الذي وصله من الكويت، صرفها على الوافدين وآخرين، ففعلاً الحالة صفر، وأصبح وضعنا بوجود الطفل مختلفاً، فهو يحتاج إلى مصروف، وملابس، وحليب، رأيت الشهيد منير يأخذ طلبات للعمل، فأعطيته شهادتي داخل مظروف، وقدمت طلباً للعمل. أخذ منير الشهادة والمغلف، وكنت أول امرأة فلسطينية تطلب عملاً، وبالتالي قبل طلبي فوراً، بسبب أني الفلسطينية الوحيدة التي قدمت طلباً.

جاء منير فرحاً بالموافقة، وبأنه وظفني، وكان أبو جهاد موجود، فرفض وغضب، وقال لي: لا يمكن أن تعملي، أمامك ستين طلباً لشباب ينتظرون العمل، قبل أن يتوظفوا جميعهم فلا يمكن أن تعملي، وأخذ الاوراق ووضعها في الدرج، وأغلق عليها بالمفتاح.

وفعلاً عندما توظف كل من كان قبلي، وتوزعوا على الولايات(المحافظات) الجزائرية، جاءت الفرصة.

في صباح أحد الأيام قال لي: تعالي معي، سألته: إلى أين؟

قال: سآخذك مشوار.

خرجنا، ومشينا، وركبنا حوالي ثلاث محطات للباصات، لنصل إلى منطقة (بلكور).

وهناك قال لي: هذه مدرستك، وستعملين فيها منذ الغد.

قلت: يعني انتهى الحصار، وفعلاً بدأت العمل، وكان في الحقيقة ممتعاً، رغم المسافات والمواصلات. عشنا في الجزائر حتى منتصف سنة ١٩٦٥. ثم ذهبنا إلى بيروت، ولكن مرحلة الجزائر كانت من أهم المراحل في حياة الثورة الفلسطينية، هذا ما يجب التأكيد عليه، وقد وضع أبو جهاد كل جهده وهدفه، بأن تكون أرض الجزائر، أرضاً صلبة للحركة تقف عليها لدعم الكفاح المسلح، لقد استغل وجوده هناك بإقامة معسكرات التدريب، التي كان يأتي إليها شباب التنظيم من كل الأماكن، وطبعاً بمساعدة الأخوة الجزائريين، الذين فتحوا لنا هذه المعسكرات، في (شرشال) و (الأكاديمية العسكرية).

وأول ضباط تخرجوا، كانوا من معسكرات الجزائر.

واستطاع في الجزائر، ربط علاقات وثيقة ليس مع القيادات فقط، بل مع جبهة التحرير، والحكومة، والرئيس بن بيلا، والرئيس الحالي عبد العزيز بوتفليقة، الذي كان صديقاً عزيزاً لنا، ثم مع حركات التحرر في العالم، فلقد فتحت الجزائر أبوابها لهذه الحركات، فأفريقيا لم تكن قد تحررت، فكانت كل حركات التحرر الأفريقية موجودة، وكذلك الآسيوية، وأميركا اللاتينية، جميعها كان لها مكاتب

في الجزائر، وجميعها أقمنا معها علاقات جيدة، حتى الصين، وفيتنام، وكوريا.

ثم ذهب أبو جهاد إلى الصين سنة ١٩٦٤ بدعوة من الرفاق الصينيين، واصطحب معه أبو عمار، وكان أبو جهاد رئيساً للوفد، واستقبلوا استقبالاً رسمياً وأقيمت على شرفهم مهرجانات تضامن لصالح قضية الشعب الفلسطيني، وكانا أول فلسطينيين من الحركة يزوران الصين رسمياً.

يومها أعلن (شو إن لاي) أنه لا يعترف بإسرائيل، لا اليوم، ولا غداً، ولا بعد مئة عام.

وعاد أبو عمار إلى الكويت، وبقي أبو جهاد في الصين والذي أكمل جولته في فيتنام، وكوريا، ودرس تجاربهما بشكل عميق، واستغرقت رحلته في تلك الجولة ثلاثة أشهر.

كنت لا أزال في الجزائر، وكان معي الأخ محمد أبو ميزر، واحمد وافي، وكان التحريض علينا في ذلك الوقت من قبل السفارة المصرية مستمراً.

العودة من الجزائر للانطلاقة

تشكلت منظمة التحرير سنة ١٩٦٤ بدعم مصري، وقام الأخ احمد الشقيري بجولة على الدول العربية، من أجل لقاء الجاليات، والتجمعات الفلسطينية، وليختار من سيشارك في المجلس الوطني من شخصيات فلسطينية. ليكونوا ممثلين لهذه التجمعات والجاليات.

وطبعاً وصل في جولته إلى الجزائر، وقابله فيها أبو عمار وأبو جهاد وزهير العلمي، وحاولوا إقناعة بالتعاون مع حركة فتح، وعدهم بذلك، ولكنه لم يلتزم.

ذهب أبو جهاد لحضور المجلس الوطني الذي انعقد في القدس، وتحدث عن علاقة الفلسطينيين مع الصين، وكوريا، وفيتنام، وحركات التحرر في العالم ومساندتهم لنا، بل ساهم أيضاً في ربط لقاءات وعلاقات بين بعض الدول العربية وهذه القوى، وقام بعمل سلسلة من اللقاءات في هذا الاتجاه، عبر المجلات، والمقابلات الصحافية، والإذاعات العربية. مسلطاً الضوء على أهمية العلاقة مع الصين.

كان أبو عمار يزورنا في الجزائر باستمرار، وفي إحدى الزيارات، كنا في لجنة الإقليم، وكنت عضواً في هذه اللجنة، كان فيها احمد وافي، أبو ميزر، أبو صبري، أبو علي إياد، عبد الكريم العكلوك وبالطبع أبو جهاد.

اجتمع معنا أبو عمار، وناقشنا معه كثيراً من القضايا، ثم بعد ذلك بدأ يتحدث، عن الخلاف الدائر في الكويت حول الانطلاقة، كان أبو جهاد مع الانطلاقة دون تأخير، وكان موقفه حاسماً في هذا الموضوع، وكنت أنا أيضاً مع أن نبدأ، فلقد كان من المقرر أن تكون انطلاقة الحركة سنة ١٩٦٤ وها هي تمتد إلى ١٩٦٥.

غادر أبو جهاد الجزائر إلى الكويت، وحضر الاجتماعات الحاسمة التي تمت فيها الانقسامات، وأصبح في الحركة تياران، تيار البدء بالانطلاقة – وتيار التأجيل الذي كان يقوده، عادل عبد الكريم وعبد الله الدنان، وكانت وجهة نظرهم، أننا نحتاج إلى استعداد أكثر وسلاح وبعدها ننطلق.

أما أبو عمار وأبو جهاد فكان موقفهما واضحاً، المال، والسلاح، غير متوفرين، وعلينا أن ننطلق بالإمكانيات الموجودة لدينا الآن، وإذا نجحنا، فسيأتي السلاح وسنحضر المال.

بقينا في الجزائر ننتظر البريد بقلق، لم تكن الفضائيات موجودة، ولا التلفزيونات، كل شيء كان يأتينا عبر البريد، كنا نذهب مشياً إلى مقر البريد، نحضره ونجلس على مقهى، ونقوم بقراءته، يومها وصلنا البيان الأول، عرفنا من البيان عن العملية الأولى.

وفي نفس الفترة، أرسل أحمد الشقيري محمد عودة لاستلام مكتب منظمة التحرير وليكون سفيراً لفلسطين في الجزائر، بدلاً من تثبيت أبو جهاد مسؤولاً للمكتب.

تعامل أبو جهاد مع الموضوع بعقلانية، وقال : ليس من المنطق أن يكون لفلسطين مكتبان، ممثلان في الجزائر، فقام بتسليم المكتب لمحمد عودة، وسافرنا إلى بيروت.

أقمت في بيروت، وكان أبو عمار وأبو جهاد في دمشق، لكنهما يأتيان بشكل دائم إلى بيروت.

يحضران معهم مسودة البيانات، فأقوم بطبعها على ورق الحرير، ثم نسخه على (ستانسل)، ونطويه ونضعه في مغلفات، ونكتب عليها العناوين، ونضع الطوابع، ثم نحمل المغلفات ونذهب لإيداعها في صندوق البريد، كان البريد في ساحة البرج وسط بيروت.

في احدى المرات، حوالي الساعة الواحدة ليلاً، حملنا المغلفات وذهبنا لوضعها في البريد، ركبنا سيارة أبو عمار (الفوكس فاغن) الصغيرة، وكانت المظاريف في يدي، ونزلنا الثلاثة من السيارة باتجاه صندوق البريد، وقبل أن نصل فوجئنا بشرطي قادم، وكان وضعنا في هذا الوقت غير طبيعي، ثلاثة، ونحمل مظاريف.

أحسست بالخوف، وبدأت أرتجف، فتصرف أبو عمار فوراً، أخذ المظاريف من يدي وأسقطها بسرعة في صندوق البريد، وعندما وصلنا الشرطي، انطلقت بديهة أبو عمار.

قال للشرطي: هذا أخي وخطيبته، ونحن نوزع بطاقات الفرح، تفضل وشرفنا (بعاليه)، الساعة الثامنة، يوم كذا...

وفتح حديثاً مع الشرطي، ووعده الشرطي بأن يأتي ويحضر العرس.

وعدنا إلى السيارة نضحك.

الخلاف في دمشق

بقيت فترة مقيمة في بيروت، وأبو جهاد وأبو عمار في دمشق معظم الوقت، كان يأتي إلينا في بيروت أبو يوسف النجار، أحمد الأطرش، زهير العلمي، خالد اليشرطي، زكريا عبد الرحيم، هؤلاء أكثر الأخوة الذين كانوا يترددون بشكل دائم، وكنت في البيت، النقطة المركزية للتواصل بينهم وبين القيادة، كنت أعطيهم التعليمات التي يضعها لدي أبو عمار وأبو جهاد، وأنقل للقيادة تقاريرهم، وأذكر آخر أخ جاء إلى البيت وأخذ مني الأوراق أحمد الأطرش.

كان أبو جهاد في أوروبا، ذهب في مهمة للقاء المحامي (جاك بيرجس) لمحاولة تكليفه بتولي الدفاع عن محمود بكر حجازي، فذهب إلى المغرب، تونس، والجزائر للتجنيد لهذه الحملة، وأثناء سفره في تلك المهمة، جاءني أبو عمار فجأة مبكراً، حوالي العاشرة صباحاً، وطلب مني بسرعة أن أحضر الأولاد وأذهب معه، ودخل وأنزل حقيبة من فوق الخزانة، وبدأ يضع فيها ملابس الأولاد، وطلب مني ان احضر جواز سفري، وحملنا الأولاد والحقيبة، وركبنا السيارة، كان معي جهاد والمرحوم نضال، وكلما سألته: إلى أين ذاهبون؟ يرد: انتظري.

كان طوال الطريق يقرأ آيات من القرآن الكريم، وأدركت من الطريق، أننا ذاهبون باتجاه دمشق، لم يتكلم، وبدأت أفكر بقلق، هل حدث شيء لأبو جهاد؟

وعندما قطعنا الأراضي اللبنانية، ودخلنا الحدود السورية، قال: أشهد أن لا إله إلا الله.

قلت له: أفهمني الموضوع؟

قال لي: لقد اعتقلوا أحمد الأطرش، وكان الاعتقال من قبل المكتب الثاني، المشهور بالضرب، والتعذيب...إلخ.

وأكمل : خفنا أن يعترف عليك، فقررنا إحضارك إلى الشام.

عاد أبو جهاد إلى بيروت فلم يجدني، فلحق بنا إلى الشام، ولكنه واصل ذهابه إلى بيروت.

أقمت في الشام، وكنا لا نزال قلقين من اعتراف أحمد، كانت هذه الأحداث سنة ١٩٦٦.

ثم ظهر خلاف داخل اللجنة المركزية في الكويت، وقبل ذلك كانوا قد اجتمعوا في دمشق بحضور عادل عبد الكريم، وعبد الله الدنان، ومحمود فلاحة، في ذلك الاجتماع، كان الإحساس بوجود أزمة ملموسة داخل اللجنة المركزية، والسبب الأساسي للأزمة، أن عادل عبد الكريم، يريد تعيين يوسف عرابي، قائداً لقوات العاصفة، بدل أبو عمار، وهذا غير جائز في نظام الحركة.

فيوسف عرابي، بعثي معروف، ينتمي إلى الحزب ولم يتخلى عن حزبيته، وكان نصيراً لفتح، يساعد

أبو عمار، وأبو جهاد، وهو شخص مناضل.

انتهت إجازتهم السنوية وعادوا إلى الكويت، لكن الأحداث بدأت تتسارع، في اجتماع دمشق، رفض اقتراح عادل عبد الكريم بأن يكون يوسف عرابي مكان أبو عمار.

بعد أيام فوجئت القيادة في دمشق، أن اللجنة المركزية أرسلت رسالة من الكويت مع (مختار بعبع) و(الحاج صبري) إلى يوسف عرابي، دون أن تمر على أبو عمار وأبو جهاد بقرار تعيين يوسف عرابي، طبعاً يوسف عرابي، قبل المنصب بأن يكون قائدا لقوات العاصفة، وبدأ باتخاذ إجراءات فيها تحدٍ، قام بعملية السيطرة على الهامة، ومكتب الحركة في دمشق، وقام بخطف (وليد أبو شعبان) وألقاه في منطقة خارج الهامة (ميسلون) بعد أن أطلق الرصاص تحت قدميه للتخويف.

قبل المغرب، بدأ شباب الحركة بالمرور على بيتنا، للسؤال عن أبو عمار وأبو جهاد، اللذين كانا خارج البيت، ولم يكن لدينا تلفون في البيت للاتصال بهما، أذكر الساعة السابعة مساءً، جاء إلى البيت (محمد حشمة) وهو رائد في فتح، وكان بعثياً عراقياً، لكنه جمد حزبيته عندما انتمى لحركة فتح، سألني: هل أنت وحدك؟

قلت: نعم، قال: إذن سأبقى عندك لأني أخشى أن يأتي يوسف عرابي إلى هنا.

كانت قد وصلت إلى الحركة طائرة تحمل أول حمولة من السلاح، وقام الشباب بتخزين الحمولة عندنا في البيت، من الأرض إلى السقف، صناديق ذخيرة وأسلحة، خاف (محمد حشمة) أن يأتي يوسف عرابي لأخذ السلاح والسيطرة عليه.

وكان (محمد حشمة) على علاقة متوترة مع يوسف عرابي من قبل، زادتها الأزمة توتراً، فبدأ يهدد ويتوعد، إذا حضر يوسف عرابي إلى هنا، شعرت أن معركة ستدور في البيت إذا جاء عرابي، ولو حصلت هذه المعركة وأنا موجودة، وأبو جهاد غير موجود، فلن تُفهم الأمور بأنها اختلاف سياسي وتنظيمي، فثمة امرأة وحدها في البيت، وهناك مشاجرة بين رجلين، أحسست بانزعاج حقيقي من وجود (محمد حشمة) واحتمال حضور (يوسف عرابي).

أصبحت الساعة التاسعة مساءً. ولم يحضر أحد، لا يوسف ولا أبو جهاد ولا أبو عمار، أحس هو بطول الوقت، فسألني: أم جهاد أتخافين إذا تركتك وحدك؟

قلت له بشجاعة: لا ، الله يسهل عليك.

قال : أنه يريد أن يذهب ليرى أين وصلت الأمور، ويطمئن على مكان أبو عمار وأبو جهاد ثم يعود، المهم، ذهب (محمد حشمة)، ولم يعد.

الساعة الحادية عشرة ليلاً، حضر أبو علي إياد، قال لي بطريقته الهادئة، كنت عند الشباب في بيت أبو عمار، وجدتهم يتعشون، وسألتهم: تاركين أم جهاد وحدها؟

أكملوا عشاءكم، وأنا سأذهب عند الأخت أم جهاد.

جلسنا على البلكونة، ننتظر أبو جهاد وأبو عمار، حتى الساعة الرابعة صباحاً، في هذا الوقت، وقف تكسي أمام البيت ونزل منه أبو عمار وأبو جهاد، دخل أبو عمار والدموع في عينيه وقال : البقية في حياتكم.

سألنا: بمن ؟

قال: يوسف عرابي، ومحمد حشمة.

طبعاً وتحدث بما جرى، كانت مجموعة من الشباب تقيم في البيت مع أبو عمار، وكان منهم عبد الكريم العكلوك، وزكريا عبد الرحيم، ووليد أبو شعبان، وهم الذين تركهم أبو علي إياد يتعشون على طاولة منخفضة، يجلسون على الأرض، دخل يوسف عرابي ومعه أربعة أشخاص، وبدأ التهجم على الجالسين، كان محمد حشمة يجلس على الأرض، ويوسف عرابي ظل واقفاً .

بدأ تلاسن حاد بين الاثنين، فأخرج يوسف عرابي مسدسه وأطلق الرصاص على محمد حشمة. رد محمد حشمة عليه، لكن الرصاصات التي أطلقها يوسف كانت قاتلة فقتل محمد حشمة.

كان زكريا عبد الرحيم في المطبخ يقوم بعمل الشاي، وجاء يحمل إبريق الشاي، قبل وصوله عند الشباب كان يوسف عرابي قد دخل (وعبد الزغموت) في غرفة أخرى في البيت (توفي مؤخراً في السجون السورية) جاء على صوت إطلاق النار، فلما رأى محمد حشمة ويوسف عرابي ومن معه، قام بإطلاق النار على يوسف عرابي، فقتله على الفور.

لم يكن أبو عمار وأبو جهاد في البيت، كانا عند أحد رجال المخابرات السورية، لا أذكر أسمه، وكانا في محاولة لإقناع المخابرات السورية بحل الموضوع حتى لا تتسع الخلافات، وطلبا إبعاد يوسف عرابي عن حركة فتح.

عندما بدأ إطلاق النار سمعا الصوت هما ومسؤول المخابرات السورية، فقد كان البيت قريباً من مقر قائد المخابرات في (المزرعة)، أبو عمار قال فوراً: يا لطيف.

وطبعاً ذهبا إلى البيت فوجدا، يوسف عرابي ، ومحمد حشمة، قد استشهدا، كان الوقع مؤثراً وصعباً علينا، وأخذت المخابرات السورية أبو عمار إلى الحجز الاحترازي.

الشباب انشغلوا في إجراءات الجنازة ومراسيم العزاء، لكن التحريض بدأ ، وخاصة من أحمد جبريل الذي كان قد انضم الى حركة فتح، وكان عضواً في المجلس العسكري للقيادة العامة، بدأ يحرض ضد

ياسر عرفات ويتهمه بأنه وراء قتل يوسف عرابي وهو الذي تآمر، وأعطى أمراً بالقتل.

حجز السوريون أبو عمار من اليوم الأول للحادثة، وبعد أربعة أيام، أخذوا أبو جهاد من البيت. كنت أعمل قهوة، عندما قرع جرس الباب، كان عند أبو جهاد (كمال كعوش)، شقيق (جلال كعوش)، فذهبت لأفتح الباب، وجدت رجلاً لا أعرفه، سألني إن كان أبو جهاد في البيت؟

دون أن أسأله من هو قلت: نعم، ودخلت وقلت لأبو جهاد: أن رجلاً في الباب يريدك، أحضرت القهوة، فوجدت كمال جالساً وحده، سألته: أين أبو جهاد؟

قال: أنت ناديت عليه، ذهبت أفتش في البيت، لم أجده، قلت لكمال: أبو جهاد غير موجود في البيت، نزلت إلى الشارع، سألت أولاد الجيران، قالوا لي: ركب سيارة مرسيدس وذهب.

الذي حصل أن الرجل كان من المخابرات السورية، ولم يعد إلينا أبو جهاد ليقول أنه ذاهب معه وأنه مخابرات.

ذهبنا للمخابرات نسأل، كنا متأكدين أنهم مخابرات، فأنكروا. قالوا: غير موجود لدينا.

سألنا كل أجهزة الأمن في سوريا، فكانت الإجابة، أنه غير موجود لدينا.

زاد القلق، ووضعنا احتمالات، خطف، قتل واستمرينا في البحث والسؤال أسبوعاً كاملاً، لم نعرف أين يمكن أن يوجد، وما الذي حصل؟

كان يسكن جوارنا مسؤول في الجيش السوري، فذهبت إليه، كان قائداً كبيراً في الجيش.

قال لي: أمكثي هنا عند زوجتي، وسأذهب أسأل، وسأخبرك.

بعد نصف ساعة اتصل بنا في بيته، وقال لي: إن أبو جهاد موجود لدى الشرطة العسكرية.وأنه عمل لي تصريح زيارة، وبإمكاني الذهاب فوراً للشرطة ورؤية أبو جهاد لأطمئن عليه.

ذهبت فوراً إلى الشرطة، وقابلت المسؤول فنادى جندياً وقال له: أدخل المدام عند المحجوزين.

فتح لي الباب ودخلت، فإذا الجميع هناك في الغرفة، أبو عمار، أبو جهاد، أبو صبري، أبو العبد العكلوك، زكريا عبد الرحيم، وليد أبو شعبان، كل الشباب، كانوا حوالي ثلاثين أخاً، عندما رأوني تجمعوا حولي، وأنا تحت وطأة ذهول من المفاجأة وهم يمطرونني أسئلة: ماذا فعلتم لنا؟ بمن اتصلتم؟ ...إلخ.

أبو عمار وأبو جهاد قالا لي: الآن ليس خارج السجن غيرك، أنت القائد العام لقوات العاصفة، والمطلوب القيام بعمليات عسكرية، ثم نريد نشاطاً سياسياً وتحركاً جماهيرياً.

قال لي أبو عمار: اختاري لك اثنين يا أختي يساعدونك، تثقين بهم، وترتاحين إليهم. عدت واخترت

أبو علي إياد، وأحمد الأطرش، وبالفعل شكلنا الثلاثة لجنة قيادية، وبدأنا نعمل، استلما هما القضايا العسكرية، ثم كنا مع بعضنا نكتب بيانات ونطبعها، ونقوم بتوزيعها على وسائل الإعلام، وبين جماهيرنا، نشطت حركة في التنظيم، لفتت أنظار السوريين، وأربكتهم، القيادة بأكملها في السجن، وعلى الساحة في الخارج، حركة، وإعلام، وعمليات، إذن هؤلاء الناس لهم قوة على الأرض.

سُمح لي الزيارة كل أسبوع، كنت أذهب وأحمل معي الطعام والسجائر والملابس، ثم منعت في احدى الزيارات من مقابلتهم.

عدنا نسأل أصدقاءنا من القيادات السورية، وأخذت موعداً مع أحدهم لأقابله، في بيت أحد الاخوة، فأخبرني بوضعهم الحالي، وكانت المعلومات، مقلقة، ومزعجة، للغاية.

قال لي: إن المخابرات السورية قامت بنقلهم إلى سجن(ضمير)، منذ حوالي ١٨ يوماً.

وحالياً هم مضربون عن الطعام، وسيقدمونهم إلى محكمة مدنية جنائية، وهذه المحكمة إن حكمتهم بتهمة التحريض على القتل، فهذه تهمة كبيرة، يمكن أن يذهبوا فيها جميعهم.

أصبح الوضع مربكاً للغاية، وخطراً، كنت قد تركت في البيت، أبو علي أياد، واحمد الاطراش، فقبل خروجي لمقابلة هذا الأخ، جاءا إلى البيت، وسألاني: أين سأذهب، أخبرتهم، عند فلان، قالوا: ولماذا ستأخذين الأولاد معك؟ قلت: أخشى أن أتأخر، طلبوا مني أن اترك الأولاد عندهما، وسينتظرون عودتي في بيتنا.

أثناء نقاشنا، نضال ابني (الصغير نام، حملته وأنمته على السرير، ونزلت من البيت، ثلاثة، أو أربع درجات فقط، ورجعت إلى البيت، قرعت الجرس، سألوني: لماذا عدتِ؟

قلت: أريد أن أغلق الاباجور، حتى إذا استيقظ نضال، لا يخرج إلى البلكونة. كان أبو جهاد دائماً يقول لي: ابنك نضال كثير الحركة، ونشيط، خذي بالك منه، أخشى أن يقع من البلكونة، وتحمليه إلى الطبيب، ويموت.

كنت أستفز من تصوراته هذه، وأرد عليه: الله لا يقدر، لا تحكي هذا الكلام، يرد: أنا أنبهك، لكن هذا الولد زائد الحركة والنشاط.

لما رجعت، كان احمد الاطراش وأبو علي إياد على البلكونة، فتركا المقاعد وأسرعا لرؤيتي، دخلا الغرفة، ودخلت أنا من الباب الثاني، فأصبحنا في منتصف الغرفة أنا وهما، كانا قلقين جداً وفي انتظار معرفة الأخبار، وطبعاً الأخبار سيئة، فبدأنا في نقاش الوضع، ونحن نتناقش كان نضال يشد في، ماما بدي اشرب. ماما اشرب أحضرت له كوب ماء، شرب ثم كسر الكوب، انتشر الزجاج في كل مكان، وانكب الماء، وبدأ يلعب في الزجاج المكسور أخذته، ونظفت ملابسه، ويديه من الزجاج، وأجلسته

على طرف السرير، ثم بدأت ألم الزجاج المتناثر عن الأرض، وأنا أضعه في المجرود، دق جرس الباب، ركضت افتح، فقالوا لي: أبنك وقع من البلكونة.

نزلنا نركض، وقفز الشباب وأخرجوه من القبو، حيث وقع، وطلعناه، وذهبنا إلى الطبيب الذي طلب لنا الإسعاف فوراً، وحين وصلنا المستشفى كان نضال قد مات.

ماذا يجب أن نعمل؟.. ذهبت إلى صديقة لنا، موظفة في وزارة الخارجية أسمها سعاد عبدالله، وجدت عندها في المكتب أناساً، جلست دقائق ثم طلبت أن أتحث معها على انفراد، خرجنا من الغرفة وقلت لها كل ما حصل، وأنني أريد أبو جهاد ليقوم بدفن الولد.

اكتشفت أن لديهم قانوناً في حالة الموت، إذا كان قريب الميت من الدرجة الأولى وكان في السجن، يخرجونه لمدة ثلاثة أيام، عدت إلى بيت محمود الخالدي وزوجته، اللذين كانا قد جاءا وأخذوني إلى بيتهم بعد الحادثة، وكان الخالدي ممثل منظمة التحرير في دمشق، جلست في بيتهم انتظر أبو جهاد، وفعلاً جاء، دخل، كان وضعي غير طبيعي، فسألني: ما بك؟ في البداية قلت: لا شيء.

سأل: هل حصل لجهاد شيء قلت لا.

قال: نضال؟

قلت: نعم، حدث ما كنت تتوقعه دائماً، الذي تصورته هو الذي حدث.

سألني: كيف هو؟

قلت: الله يرحمه.

كانت ردة فعله كتومة، احتضنني، وقال لي: معلش حبيبتي، إن شاء الله نجيب غيره.

دخلنا البيت، واستيقظ أصحاب البيت، وبدأ الحديث عن الوضع، السجن، وإضراب الاخوان، والتهم، والإضراب عن الطعام.

طلب صحن من الشوربا، فذهبت أنا وزوجة الخالدي إلى المطبخ.

قالت لي: لا تخبريه الآن، اتركي الموضوع حتى الصباح.

أخبرتها، أنه عرف من لحظة حضوره، ولكنه لا يزال يعيش تحت تأثير السجن والوضع الذي يمر به.

طبعاً استمر الحديث عن كيفية العمل لاخراج الشباب من السجن، وانصب كل الاهتمام على حل مشكلة القيادة، وماذا يجب أن يفعل للإفراج عنهم.

في اليوم الثاني، عدنا إلى بيتنا، وذهب ودفن نضال، وعندما عاد بكى بتأثر كبير.

لكن الأحداث لم تعطِ وقتاً للعواطف الشخصية، ووضع الثورة ككل على حافة الضياع.

وكان الحديث عن هذا الوضع بينه وبين المعزين، وليس عن موت الولد.

وضع الاخوان فقط، المشكلة التي حدثت، مبرراتها، ونتائجها، والتعذيب في السجن، وبراءتهم من التهمه الموجهة لفتح كلها، والخلل الذي أحدثه الاخوان الذين كانوا أعضاء لجنة المركزية، ووقعوا على قرار تعيين يوسف عرابي وحدهم، وفصلهم أبو عمار من موقعه.

في اليوم الثاني، طلب مني أن أذهب معه، أين؟ فإذا بنا عند وزير الدفاع، كان وقتها، حافظ الأسد، فشرح أبو جهاد للأسد كل ما حصل من ملابسات، بالتفصيل، وأمانة وللحقيقة في تلك اللحظة، اقتنع الأسد بما قاله أبو جهاد، وأخبره بالطبع أن سبب خروجه من السجن ثلاثة أيام، لدفن نضال، وأثرت في الأسد قصة موت نضال.

وكان جوابه، سأمدد لك ثلاثة أيام أخرى، وفي هذه الأيام الثلاثة أذهب إلى احمد سويداني، وإلى وزير الخارجية، وإلى وزير الداخلية، وإلى الوزراء جميعهم، لإقناع القيادة السورية أن ما حدث، لا علاقة لكم فيه، وأنكم أبرياء.

وبالفعل، كان كل وزير يقوم بتمديد ثلاثة أيام لبقائه خارج السجن، يتصلون بالشرطة، أن دعوا خليل الوزير خارج السجن، نحن نريده خارج السجن.

وبالفعل مع الاتصالات التي شملت كل الشخصيات والأجهزة، ودولاً عربية مثل السعودية والجزائر، وكل من له علاقة جيدة مع سوريا، استمرت شهرين، خرج أولا الأخ أبو عمار، ثم باقي الاخوة، ما عدا اثنين، أبو العبد العكلوك، وزكريا عبد الرحيم، اللذان امضياً مدة سنتين في السجن ثم خرجا بعد أن برأتهما المحكمة، وطبعاً بقي الزغموت الذي حكم بالمؤبد.

شهادة الأخ عبد الحميد القدسي

أبوعمّار يدخل في دورية عسكرية الى الأرض المحتلة بعد نكسة حزيران

بعد أن تم تحضير القواعد في الأرض المحتلة، واستيعاب أكبر عدد ممكن من المجموعات الفدائية في الداخل، كذلك وجود عدد لا بأس به من الشباب الفلسطيني المتدرب، وأيضاً في نفس الوقت أصبح لدينا مخزون، نسبي جيد من السلاح والعتاد والمتفجرات، كذلك ان لا نبقى رهائن، ملتزمين بقرارات البعض من الأنظمة العربية، بعدم البدء في الكفاح المسلح من جديد، وخاصة النظام القائم آنذاك الذي كان يضغط باتجاه التريث والتأجيل، وأن علينا ان ننتظر لنستعد نحن والفصائل الأخرى معاً للانطلاقة، كذلك كان لنا سبب آخر لأن نبدأ انطلاقتنا الثانية، رسمياً، ان الاحتلال لم يكن قد ضبط آلية التعامل مع الأرض التي احتلها، ولا مع الناس، وكان شعبنا فوق كل ذلك يحتاج إلى أية بارقة أمل ليخرج من الإحباط وآثار الهزيمة، فكان الرأي بيننا أن يذهب أحد الاخوة من القادة للعمل داخل الأرض المحتلة، وكان ثمة وجهتا نظر في اختيار الشخص الذي سيذهب، وجهة نظر ان ينزل الأخ أبو جهاد (رحمه الله) والثانية، الأخ أبو عمار (رحمه الله)، ولكن لظروف موضوعية، كان الأخ أبو جهاد يعيشها في تلك الفترة، وهي فقدان طفله نضال في حادثة، فآثرت اللجنة المركزية أن يبقى الأخ أبو جهاد في دمشق، وأن يذهب الأخ أبو عمار، وقالوا: غير المتزوج ،وليس لديه التزامات، بينما ظروف الأخ أبو جهاد صعبة، ولمحبتنا لهذا الرجل، ولظروفه في تلك الفترة أقنعنا أبو جهاد بالبقاء، ومعنوياً في نفس الوقت، سترسل فتح أعلى مرتبة لديها، أو المستوى الأعلى فيها، الأخ أبو عمار، فعلما أنّ الكل سواسية.

كانت الدورية الأولى بعد النكسة في ١٩٦٧/٧/٢٦، تحركنا من دمشق مع الأخ أبوعمّار في سيارة الأخ الحاج سيد، وهو أخ فاضل وكريم، كان هذا الأخ مسؤولاً عن النقل والتسليح وكذلك كان سائق السيارة الوحيدة (لاندروفر) التي تمتلكها الحركة وقد سمي تحببا بالحاج كرنك، نسبة إلى ذهابه لفريضة الحج بمهمة عمل، وهناك استغلها وقام بأداء مناسك الحج، كان رجلاً بسيطاً، وديناميكياً، وجريئاً جداً، ولا أحد يعرف، كيف يسير (الحاج كرنك) في مثل هذه الطريق، كان يعرفها كلها وبشكل مميز.

قام (الحاج كرنك) بنقلنا من دمشق إلى منطقة الحمراء، داخل الحدود الأردنية، حيث كانت تتواجد قيادة القوات العراقية في نفس المنطقة.

كان عددنا في الدورية ١٤ شخصاً، في مقدمتهم الأخ أبو عمار (رحمه الله) والأخ عمر أبو ليلى (مجاهد)

(رحمه الله)، الذي كان خريج كلية عسكرية في العراق وبرتبة ضابط، ويعود ذلك للحاج أمين الحسيني (رحمه الله) فقد طلب من عبد الكريم قاسم، أن يكون للفلسطينيين في كل دورة عسكرية عراقية عدد من الشباب الفلسطيني، لإعدادهم ومشاركتهم في معركة التحرير مستقبلاً. وهكذا، كان الأخ مجاهد أحد هؤلاء الشباب الذين درسوا في الأكاديمية العراقية العلوم العسكرية، ضمن تلك الاتفاقية، وتخرج برتبة ضابط، وخدم في القوات العراقية، وتميز كضابط يتقن فن القتال، بشكل عالي المستوى كما استطاع بناء علاقات متميزة مع الكثير من ضباط الجيش العراقي.

وكان معنا في الدورية أيضاً الأخ أبو علي المدني (رحمه الله)، وهو الآخر قادم من كتيبة الفدائيين، التابعة لسوريا والتي أنشأها الجيش السوري. وكان معنا الأخ (الضبع) وهو أيضاً من كتيبة ٨١ أي نفس الكتيبة الفدائية، وكان معنا الأخ عبد العزيز شاهين(أبو علي شاهين)، وأخ اسمه عبد الإله، من عتيل أو علار، استشهد فيما بعد، المهم كنا ١٤ شخصاً.

كنت قد تعرفت على الاخوة العراقيين من قبل، فنزلت ونزل مجاهد معي لمعرفته هو الآخر ببعض الضباط العراقيين المتواجدين في الموقع، وطبعاً قمنا بتعريف قائد المنطقة على الأخ أبو عمار، الذي لم يكن معروفاً لهم بعد.

وقمنا أيضاً بوضع الأخ قائد الاستخبارات العسكرية العراقية في صورة وأهمية هذه الدورية، ولمس التفافنا حول الأخ أبو عمار، فقام بتجهيز كتاب مهمة إلى الأغوار، وأن نذهب تحت حراستهم، ومع سيارات مرافقة لنا من استخبارات القوات العراقية، وفعلاً أوصلونا إلى شمال الكريمة، وكان الوقت قبل الغروب مباشرة، فدخلنا، وعبرنا النهر.

كانت لدينا مجموعات في الأغوار، وفي مزرعة هناك كان لنا موقع استطلاع دائم، فبعد الاتصال بهم، أخبرونا أننا نستطيع العبور، وكنا ندخل إلى الأرض المحتلة عادة قبل المغرب بنصف ساعة، حتى لا نقع في أماكن الألغام التي يزرعها شبابنا، للدوريات الإسرائيلية، فدخلنا عبر مخاضه نهر الأردن، من منطقة (مرج نعجة) وأصبحنا داخل الأرض المحتلة.

كانت وجهتنا، الذهاب إلى قباطية، فقد كنا أنشأنا فيها شبه معسكر، وكانت قوتنا الحقيقية في الريف، وفي قباطية، في جبالها، قاعدة مركزية، فإذا نظرت إلى الجبال والمُغر في تلك المنطقة، فستجد أكثر من ٢٠٠ مسلح مع العتاد والمتفجرات.

لقد كانت أهم قوة مركزية لحركة فتح في فلسطين هي قاعدة جبال قباطية.

كان أفراد الدورية مسلحين، وكنت المدني الوحيد بينهم، ففي ذلك الوقت، كنت لا أزال، ضابطاً للارتباط، أو حلقة للوصل، وأقوم أيضاً بعملية تفويض سياسي.

كلفني الأخ أبو عماربقيادة الدورية، وأذكر بأمانة وبصدق للأخ أبو عمار، أنه كان أكثر كادر في المجموعة انضباطاً باختياره، وفي تلك الفترة لم تكن هناك أوامر، كانت تصدر تعليمات، علينا تنفيذها كل حسب مهمته. وكان لهذه المهمات قدسية عالية لدى كل كادر.

ونحن في الطريق كان الأخ مجاهد يتحزم بالعلم الفلسطيني، الذي جمعنا به أشلاء شهداء معسكر الهامة. كانت الطريق وعرة جداً، فاقترب مني وأخبرني أن العلم قد ضاع في الطريق، سقط عن خصره. فكما قلت كان يتحزم به، أنا شخصياً تشاءمت، ولكني لم أرغب في توسيع دائرة التشاؤم، فاتفقت مع مجاهد أن لا نخبر أحداً من أفراد الدورية بالموضوع، وسنحاول إيجاد علم آخر، رغم رمزية العلم المفقود، وارتباطه بالاخوة الذين استشهدوا، لكن مجاهد لم يستطع الصمت.

فذهب وأبلغ الأخ أبو عمار، فكان رد الأخ أبو عمار، عليك أن تعود إلى الطريق، الآن أنت وعبد الحميد، وترجعان بالعلم .امتثلنا للأمر، وعدنا نبحث، والله سهل لنا المهمة، فبعد ساعة من البحث استطعنا العثور عليه، وعدنا به.

وصلنا منطقة طوباس، ومكثنا هناك. وتصادف أن إحدى أخواتنا الفلسطينيات كانت تعمل في البيدر، في دراسة القمح، وكانت تتشاجر مع زوجها، وواضح من الصوت أن المشكلة بينهما كبيرة، فقام الأخ أبو عمار (بارك الله فيه) بالذهاب إليهما، وتدخل بعملية انتهت بالصلح بينهما، وبعد ذلك، دخل اثنان من أبنائها حركة فتح، كانت تلك المرأة متقدمة هي وزوجها في العمر، واستطاع أبو عمار بدماثته، وهدوئه، إعادة المياه إلى مجاريها.

كان نتيجة إصراره على التدخل في عملية الصلح هذه، أننا تأخرنا ٢٤ ساعة، وطلع علينا النهار، فمكثنا في منطقة غير آمنة، وكنا أربعة عشر فدائيامكشوفين ، وأنا المدني الوحيد بينهم، الذي يرتدي ملابس مدنية، والباقي كانوا مسلحين، ويرتدون الملابس العسكرية، وبقينا في تلك المنطقة الخطرة حتى المساء، تم تحركنا باتجاه الشمال، إلى منطقة الزبابدة، للوصول إلى قباطية، وبعد أن قطعنا الزبابدة، طلع علينا النهار، ونحن على مشارف الجبال الشرقية لقباطية، حيث يمتد (لسان) أو منطقة سهلية، لا يوجد بها أيضاً أي شيء يمكننا أن نتظلل به، أو نختفي تحته. جاءني مجاهد، وقال لي: ماذا سنفعل الآن؟

تطلعت في السهل، كان عدد من الأهالي، ذاهبين للعمل في مزارعهم، وكان علينا أن نقطع السهل باتجاه الجبال، وإذا تم ذلك سنصل إلى جبال قباطية الغربية، الموجودة فيها قواعدنا، فقلت له: علينا أن نسير، ونقطع السهل، ونكمل الطريق، فقال لي: وهؤلاء الناس؟

قلت: سنمشي بطريقة استعراضية.

قال: يا أخي هذا عسكرياً لا يجوز.

قلت له: ان مصيبتي، ومصيبتك، أنك تتعامل مع كل أمر بطريقتك ومفهومك، ومعرفتك العسكرية، وأنا لا أتعامل مع الموضوع بمفهوم عسكري، أنا لدي رؤية أخرى في هذا الأمر.

خشي مجاهد، أن أعطي المجموعة أمراً، كما طرحته عليه، فسارع إلى الأخ أبو عمار، قبل أن أعطي الأمر، وقال له: إنّ الأخ عبد الحميد، يريد منا، أن نسير أمام الناس بخطوات عسكرية استعراضية.

أبو عمار بذكائه، التقط الفكرة التي كانت في ذهني، وكنت قد وصلت إلى جانبه، فقال لي فوراً: أين تريدني أن أقف؟

وبالفعل، مررنا بطريقة عسكرية منظّمة أذهلت هؤلاء الناس، كان الوقت بداية طلوع النهار، الخامسة، أو الخامسة والنصف صباحاً، لكن الناس كانت تستطيع أن ترانا، وأن تندهش، وتسأل من نحن؟

ارتفعت المعنويات في نفس الوقت، واعتقد الأهالي، أننا لا يمكن أن نكون فقط بهذا العدد، وإنما ثمة أعداد أخرى غيرنا مرت، أو ستمر، وكنت قد طلبت من الأخوة من خلال معرفتي لطبيعة أهلنا، وعاداتهم، وبالذات، تجربتهم مع ثورة سنة ١٩٣٦، بأن نكون حريصين أن لا نستغل شعبنا، كما حصل مع البعض في ثورة سنة ١٩٣٦ باسم الثورة، وعانينا كثيراً من آثار تلك الأعمال للبعض فكان ذلك درسا لنا بأن لا نذهب إلى بيت أي أخ من شعبنا، لنطلب طعاماً أو أي شيء نحتاجه، حتى لو كنا في أشد الحاجة إليه، إنّ علينا أن نتعامل بأقل إمكانيات لدينا وبما يسد الرمق فقط، وعدم التفكير بالكسب من شعبنا.

لكن في نفس الوقت إذا عرضوا علينا الماءمثلا فيجب الاّ نرفض . وبالفعل أخذنا ماءً من الجميع، وقلنا لهم أننا أخوان لكم، وان شاء الله هذا الاحتلال سيزول، فالكثير من الأمور ستتغير، ولنا رجاء أن يعود كل واحد منكم إلى عمله، دون الانتباه إلينا، أو الجهة التي سنذهب إليها، وهذا من باب الحرص عليكم، وحتى لا تتعرضوا لأية مساءلة، وللسرية لنا أيضاً، وكانوا للحقيقة مثالاً لشعبنا الواعي، الحريص، المؤمن، عادوا إلى أعمالهم، واختفينا في الجبل، لنصل أخيرا إلى قواعدنا في قباطية.

في اليوم نفسه، بعد الساعة الثانية ظهرا، جاء إلينا الأخ خطاب (عزت أبو الرب) وكان من كوادرنا في قباطية، فذهبنا للغداء معه في بيته،وفي بيت الأخ خطاب، فوجئنا بمعظم وجهاء عائلات قباطية، ومخاتيرهم، في انتظارنا، رحبوا بالأخ أبو عمار، الذي أطلق على نفسه اسم (أبو محمد)، وقبل الغداء، قاموا جميعهم بمبايعة أبو عمار والحركة، وكل ما له علاقة بنا، وأن يكون في حمايتهم مثلما يحموا أبناءهم. واستطيع أن أقول أن بلدة قباطية أول بلدة دخلت بشكل جماعي في حركة فتح، فقد كنت ترى كل العائلة، نساءً، وأطفالاً، وشباباً، يحجون إلى قواعدنا في الجبال، حاملين معهم ما يملكون من طعام، فكان المعسكر، ممتلئاً بالمجموعات التي تقوم بالتدريب بما يشبه خلية نحل، وقد قسمت إلى

مجموعات، وتم استيعاب، أكاد أقول، كل شباب قباطية في مجموعات التدريب في هذه الجبال.

بعد الغداء، كان علينا الذهاب إلى نابلس، وكنا قد طلبنا من الاخوة، أننا سنذهب وحدنا وبشكل عادي، فذهبت مع الأخ أبو عمار إلى جنين في سرفيس (سيارة تكسي)، مر السائق بنا، ثم عاد إلينا، وكان يعمل على طريق جنين قباطية، فأشرت له، إن كان ذاهباً في اتجاه جنين، فقال :نعم، وعاد بدون أي راكب، فارغاً.

لم أفهم تلك اللحظة، هل اعتبر إشارتي له، أننا نريد تكسي، أو سرفيس، ففي ذلك الوقت كانت الفلوس (على قد الحال)، وغير مسموح لنا، بأي بذخ في الصرف، المهم ركبنا السيارة، أبو عمار جوار السائق، وأنا جلست في الخلف، فأخرجت نصف دينار على اعتبار، إذا كان يريد أجرة تكسي، فاستدار السائق في اتجاهي وقال لي: (له يا خال)، ألستم من الجماعة؟

قلت له: أية جماعة؟

قال: الذين في الجبل.

لم يأخذ الأجرة، كانت البلدة كلها تعرف حركة فتح، وأوصلنا إلى جنين . ذهبنا إلى بيت (الحاجة تودد عبد الهادي)

الحاجة رحمها الله، قالت: يا أخ أبو عمار، أريد أن يكون ارتباطي معكم عن طريق الأخ عبد الحميد، لأنني لن أكون في هذه المنطقة بعد فترة، وبالفعل لعبت هذه الحاجة دوراً كبيراً تلك الفترة في دعم الحركة، وكانت شخصية مرموقة، ولها احترامها ومكانتها بين الناس، خاصة في جنين، ومع محيط الخط الوطني في المنطقة، وكانت تعمل مديرة مدرسة جنين.

وفي جنين التقينا أيضا الأخ محمود الهمشري، الذي أصبح فيما بعد ممثلا لمنظمة لتحرير في فرنسا.

ثمّ انتقلنا الى نابلس . في نابلس كان الأخ تيسير أبو هواش قد عيّن مسؤولاً لمنطقتها، ورئيساً للجنة حركة فتح، على أن يكون معه سبعة أعضاء ليكونوا قيادة منطقة نابلس، واستلم الأخ محمود الهمشري في تلك المرحلة (طولكرم). وفي جنين كان الأخ نصري سعد الله، ثم فيما بعد الأخ أحمد رشيد. اجتمعنا بهم، وجلسنا لعمل آلية لقادة المناطق ولمسؤولي اللجان الحركية في كافة مناطق الوطن، ثم نزلنا إلى البلدة القديمة في نابلس، في بيت سعيد العطعوط، وكان معنا الأخ محمد سمارة (رحمه الله) أو مصطفى سمارة، وكان الوحيد الذي تركته سلطات الاحتلال حراً، بعد أن اعتقلت كل المجموعة التي كان فيها، وكان منهم، نزيه حسين، عبد الله الإفرنجي، زهير مناصرة، وأبو عياش، وكانت هذه المجموعة من كوادرنا قادمة من ألمانيا، وبعد أن تم تدريب بعضهم في الجزائر، عادوا في دورية إلى

الأرض المحتلة، وتم اعتقالهم، وترك منهم مصطفى سمارة خصيصاً، لمراقبة من سيتردد عليه، وكان انتماؤه معروفاً لدى سلطات الاحتلال .

اتصلنا بالأخت عصام عبد الهادي، التي كانت رئيسة لاتحاد المرأة في نابلس، وأيضاً لها وضعها، وتحظى باحترام الكثير من الأهالي، أذكر ذهبنا إلى بيتها في المرة الأولى، أنا والأخ مجاهد، وكانت تحركاتنا هذه، تجري كلها بمعرفة، وإرشاد الأخ أبو عمار، وضمن مفهوم العمل الجماهيري، وفي ذلك الوقت، فرض على مدينة القدس حصارٌ قاسٍ، فطلبنا من الأخت عصام أن يقوم اتحاد المرأة في نابلس بمساعدة أهلنا في القدس، أذكر أن الأخت عصام قالت لنا: أنتم الذين تتحدثون معي، ما الذي يثبت لي من أنتم؟

فقلت لها: معنا هذا الشعار(شعار العاصفة) ، وليس معنا شيء غيره.

كان واضحاً أنها تريد أن تفكر، أو تتأكد، فطلبت منا العودة في اليوم الثاني، وبالفعل عدنا اليوم الثاني، أعطتنا مبلغاً من المال لنقوم بتوصيله إلى القدس بأنفسنا، فرفضنا، وقلنا لها: أننا نستطيع أن نقدم لهم مبلغاً بطريقتنا، ولكننا نريد أن نشعر أهلنا في القدس، بأن أهلنا في نابلس معهم، نريد منك أنت الاتصال بالأطر المنتمية لك، فأنت بالنسبة لنا تمثلين مجتمع مدينة نابلس.

أحسسنا بأنها اطمأنت إلينا، وكانت بداية التعامل معها.

في هذه الفترة كان يوجد في نابلس أحد الذين جندتهم إسرائيل للعمل لديها ويدعى، (أبو علي حبرون)، كان عميلاً وأذنا لسلطات الاحتلال، نحن والحركة الوطنية في نابلس، اتخذنا قراراً بتصفيته، كان يجهر بوقاحة بعمالته، وعلاقته مع الاحتلال، ولم يكن بين أهل المدينة أي خلاف على عمالته، يحمل مسدساً ويدور به علناً في شوارع المدينة، والأخوة في لجنة نابلس تأخروا في اتخاذ قرار لإنهائه.

الأخ أبو عمار، غضب من موقفهم، وقال لهم، لن أدخل نابلس إلا بعد تصفيته، وكلف بنفسه الأخ أبو علي المدني لهذه المهمة. كان أبو علي المدني (رحمه الله) من أنقى شباب الحركة، ودائم الابتسام، ولكنه يمتاز بجرأة، ومقاتل حقيقي. فقال، أنه يريد أن يعرف الرجل، فأخبروه بمكان المقهى الذي يتردد عليه بشكل دائم، فذهب إلى (الوجاق) المكان الذي تعمل فيه القهوة والشاي، وكان عامل (الوجاق) واحداً من شبابنا، وجلس في انتظار حضور (أبو علي حبرون)، ولما جاء أخبره العامل، وأشار عليه، فنهض أبو علي المدني، ووقف قبالته بجرأة، كان عسكرياً محترفاً، وعلى مستوى عال من التدريب، وكان في الكتيبة الفلسطينية التي تشكلت في سوريا، كتيبة ٨١، كان يتقن استخدام السلاح بشكل جيد، وسأله: هل أنت أبو علي حبرون؟

فرد عليه: نعم.

فقال له: أنا أبو علي المدني، وباسم حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح نتهمك بالخيانة العظمى.

وأخرج مسدساً، وقام بإطلاق النار عليه، جاءت رصاصة في رأسه، لكن رغم الإصابة القاتلة، لم يمت أبو علي ذلك الوقت، فقد قام الاحتلال بعلاجه، وإنقاذه، وتمت فيما بعد تصفيته على أيدي مجموعة أخرى من الفدائيين.

ثبّتنا في نابلس لجنة تحضير للعمل المسلح ترأسها الأخ تيسير هوّاش(أبوشريف) مع مجموعة من الإخوة لترتيب الأمور وشراء السلاح وتخزينه .

يتم شراء هذا السلاح، بكل إمكانياتنا البسيطة، وبأية كمية نستطيع الحصول عليها، فكنا نعتبر ان لدينا مخزوناً جيداً في نابلس، بالإضافة إلى أعداد الشباب الذين تم تدريبهم، كان معنا الأخ مجاهد، وفي البداية تم فرزه، ليكون مسؤولاً لمنطقة رام الله، ولكنه عاد إلى نابلس في اليوم الثاني بشكل عاجل فقد كان في رام الله عدد كبير من العناصر التي تعرفه، والتي قام نفسه، بتدريبها، عندما كان آمراً للمعسكر في الهامة، فآثرنا أن يكون في نابلس.

كنت اضطر أحياناً ان أترك الأخ أبو عمار، لعمل ما، وكنت أطلب من الاخوة الموجودين معه، منع أي عنصر، أو رسول، يأتي من الخارج بأن يرى الأخ أبو عمار، وإذا جاء برسالة، فعليهم أن يأخذوا هم الرسالة، أو الخبر، ويقومون بإعطائه للأخ أبو عمار، وهو الذي يقرر بعد ذلك، هل يريد أن يرى القادم؟ أم لا؟

كانت هذه التعليمات حول حماية أبو عمار، تتم في كل المناطق، ممنوع أن يرى أي قادم أبو عمار مباشرة.

بعد ترتيب الأمور بشكل جيد في نابلس، غادرنا إلى رام الله، ثم القدس حيث مكان الإقامة، وكنا نعمل في القدس وفي أكثر من منطقة على الانفتاح على كل القوى الوطنية وبكافة انتماءاتها سواء كانوا حزبيين، أو من فصائل أخرى، فهدفنا واحد وهو مقاومةالاحتلال، وهذا ما يجمعنا.

كان اتصالي مع كمال النمري، مسؤول حركة القوميين العرب ذلك الوقت، فقد كان الدكتور صبحي غوشة منزوياً أو على خلاف مع حركة القوميين، لكن هذا لم يغير نظرة أهل القدس إلى هذا الرجل كانسان وطني، نظيف، مخلص، فكان الذي يمتلك إعطاء التعليمات والقرار هو الأخ كمال النمري، فعقدنا الاتفاق معه، كنّا نحضّر لعصيان مسلح في البلدة القديمة في القدس في اطار الانطلاقة الثانية، وكنا ننتظر قدوم أعداد كبيرة من اخوتنا، من كتيبة القادسية التي كانت متواجدة في العراق، ومعظم ضباطها كانوا من حركة فتح، وكنا نتواصل معهم ونتشاور حول كيفية القيام بالعصيان المسلح في البلدة القديمة؟

وكان الأخ أبو عمار، هو الذي يخطط، ويقوم بالإشراف على الإعداد، وفي تلك الفترة كانت إقامته في القدس، في شقة تعود لأحد أخوالي، إبراهيم وصادق الشنطي، كان وضعهم المالي لا بأس به، فأعطونا شقة تقع عند صيدلية الطزيز، قرب الهلال الأحمر الفلسطيني، وبجوار بيوتهم، كان لهم أكثر من بيت، فأفرغوا لنا هذه الشقة، كي نكون فيها مستقلين ونعمل بحرية، صباحاً يحضرون لنا الإفطار، أو أذهب أنا لإحضاره، خاصة إذا كان لدى الأخ أبو عمار أحد الاخوة في الشقة، وأذكر أن ملكية هذا البيت تعود إلى أبو علي قليبو، ولا يزال موجوداً في القدس حتى الآن.

كان أبو عمار يجتمع مع الكثير من عناصرنا في هذا المكان، وكنا نخرج بدورنا أنا وهو لرؤية بعض الشخصيات، حصلنا أيضاً على مركز، فأحد اخوتنا إسماعيل استنبولي، كان يعمل في شركة للمقاولات (المقاولين العرب)، صاحب هذه الشركة أو مديرها العام الأخ فهمي الحموري (أبو زياد)، كان منتمياً إلى الحزب الشيوعي لكنه يناصرنا، فكنا نستخدم مكتبه للتخزين، والاجتماعات، وتم لقاء بين الأخ أبو عمار وكمال النمري، وأيضاً مع الأخ فيصل الحسيني (رحمه الله) الذي كان حتى ذلك الوقت مع حركة القوميين العرب، وبدأت إسرائيل بعملية الإحصاء للسكان، وأحصي أبو عمار في أحد البيوت للحصول على هوية القدس، وبالمناسبة كان يمتلك أكثر من هوية، ومن أكثر من مصدر، ومهن متعددة، لكن المهنة التي كان يعرف بها أكثر من غيرها، مهنة التدريس، ويرتدي الحطة البيضاء، لم يكن حتى ذلك الوقت قد ارتدى الحطة المرقطة الفلسطينية، وطبعاً مع هذا الزي، كان يتحدث اللهجة المصرية.

طبعاً لأهلنا الفلاحين طريقتهم الخاصة في ارتداء هذه الحطة، وخاصة كبار السن، فكان أبو عمار يرتديها على طريقتهم، ويبدو كفلاح.

قلنا له مرة: أنت تبدو كفلاح ولكنك تتحدث اللهجة المصرية، نريد منك لهجة قريبة لنا.

فقال: ما رأيك في لهجة غزة؟

وعندما بدأ يتكلم اللهجة الغزاوية بطريقته قلنا له، الأفضل أن تعود إلى اللهجة المصرية.

كان دائم التنقل والزيارات تحت اسم أبو محمد، وكان كل الذين يلتقون به، يدركون أنهم أمام رجل مختلف، وصاحب قرار، وشخصية قوية، كان يطرح ما يريد بوضوح، ويتكلم بحقائق، ووثائق كثيرة تقنع الآخرين.

ذهبت معه للقاء الدكتور عبد العزيز الحاج أحمد، الذي تعرفت عليه في سجن الزرقاء العسكري، وكان قد عاد إلى عيادته في رام الله وكان شخصية مهمة، وتركّز حديثنا على الوحدة الوطنية،

وترجمة للوحدة الوطنية تم اتفاق في ذلك الوقت بيننا وبين الاخوة في حركة القوميين العرب على

التنسيق، لينجح العصيان الذي كان سيتم في القدس، فبدون وحدة حقيقية، وقرار واحد، لا يمكن نجاح العصيان.

كان معنا في ذلك الوقت الأخ فايز حمدان (الرائد خالد) رحمه الله، وكان برتبة نقيب بثلاثة نجوم في الجيش الأردني، وتم اعتقاله في الأردن على خلفية، انتمائه لحركة القوميين العرب ثمّ أفرج عنه.

كنا في ذلك الوقت في قمة التحضير للانطلاقة المسلحة الثانية، وفي أكثر من منطقة، وعلينا تحديد الوقت، والتاريخ للانطلاقة، كان الأخ أبو عمار على رأس القيادة التي تشكلت من ثلاثة أشخاص، أبو عمار، أبو جهاد، أبو علي إياد، قيادة قوات العاصفة.

الأخ أبو عمار داخل الأرض المحتلة، وأبو جهاد، وأبو علي إياد في دمشق، كنت أترك الأخ أبو عمار أحياناً، وأذهب عن طريق الجسر إلى دمشق، ولم يكن في الخروج أية مشكلة، لكن في العودة علينا التسلل عبر النهر.

خرجت إلى الشام بمعرفة أبو عمار. كان معي دفتر صغير، بحجم كف اليد، وأعطيت الأخوة تقريراً كاملاً عن الوضع، وأننا نطرح عليهم، بأننا في الداخل، نريد أن يصدر أمر بالتحرك للانطلاقة، فنحن الآن جاهزون، ولدينا حد معقول من التحضير، وفي كافة المناطق، ونريد موافقتكم، أو إصدار قرار لقيادة قوات العاصفة بالتحرك، وأريد منكما توقيعا للأخ أبو عمار على بياض، وفتحت الدفتر الصغير على صفحتين، فوقع الأخ أبو جهاد في منتصف الصفحة، ثم وقع الأخ أبو علي إياد، وتركا مكاناً لتوقيع الأخ أبو عمار، كان الدفتر لا يزال مفتوحاً على الصفحتين، فكتب الأخ أبو علي إياد في أعلى الصفحة إلى الأخ أبو عمار (كن مجنوناً).

على أساس مقولة، أن الثورة يخطط لها العقلاء، ويفجرها المجانين، للأسف الشديد.

المهم، عدت ومعي الدفتر، وسلمت هذه الوثيقة للأخ أبو عمار، فأصبح الآن القرار بيده، فقام بالتوقيع، جوار توقيعي أبو جهاد وأبو علي إياد، وأصبح عليه أن يحدد تاريخ اليوم الذي ستكون فيه الانطلاقة.

في ذلك الوقت، كان سيعقد مؤتمر للقمة، في الخرطوم، للرؤساء العرب، وقد قاموا باستبعاد أحمد الشقيري من حضوره، وهو ممثل فلسطين الرسمي، كان الافتتاح سيتم في يوم أربعاء في ٨/٢٩، الساعة السادسة مساءً. من الطرافة أنه في كثير من الأوقات، لم يكن أمام الأخ أبو عمار من يتحدث معه غيري، خاصة عندما لا يكون في زيارته أي أحد، ونكون وحدنا، فقلت له: ما رأيك أن يكون التاريخ في يوم مؤتمر القمة؟ خاصة وأنهم أبعدونا من الحضور؟

ونحن على الأرض موجودين، طبعاً قبل هذا الوقت، كان الكثير من الأخوة يقومون بعمليات مقاومة فردية، دون تعليمات، وكنا نقول لهم دائماً، حاولوا أن لا تقفزوا فوق التعليمات، ولا تقوموا بالتصدي، حتى لا يتم التشديد علينا، نحن نعد للانطلاقة ، وبدورنا لم نكن نصدر بيانات في هذه العمليات، لأننا لو أصدرنا، فسيعرف العدو أن وراء هذه العمليات جهة، منظمة، وهذا ليس في صالحنا في ذلك الوقت، فكنا نترك هذه العمليات دون إعلان.

وأذكر ان مجموعة من الأخوة، ذهبوا لاستكشاف هدفٍ من الأهداف، من أجل ساعة الصفر، وكانت هذه المجموعات تتحرك دائماً، فقط لاستكشاف الهدف، فوجدت المجموعة أمامها، هدفاً سهلاً، وتحمسوا، وقاموا على مسؤوليتهم بالتنفيذ، غضب الأخ أبو عمار، وطلبهم للمحاكمة، فتحملت أنا المسؤولية، وقلت له: أنني الذي أعطاهم التعليمات، وإذا أصريت على تقديمهم لمحكمة، فسأدخل إلى المحكمة، وأقول أنني أنا الذي أمرت بالتعليمات. كان شباب المجموعة رائعين، ومن خيرة الأخوة في الحركة، وقد استشهد منهم اثنان فيما بعد، وعندما ذهبوا للاستكشاف، وجدوا هدفاً سهلاً، فنفذوا، ونحن علينا الآن التشديد عليهم، وان نتعامل معهم كأبناء لنا، وان لا يتم هذا التجاوز مرة أخرى.

كنا حريصين على الانطلاقة بزخم، وكانت الخطة لدينا، حين تنطلق المجموعات من المناطق فعليها مساعدة بعضها البعض، وعدم السماح للعدو الإسرائيلي بالاستفراد بأية منطقة لوحدها على حساب الأخرى، لذلك سيكون التحرك في كل المناطق، وطلبنا تحديد أهداف من الجميع، إضافة إلى الأهداف التي حددتها القيادة، ثم بعد ذلك قلنا لهم، لكم الحرية في تنفيذ أهداف أخرى، فالأهم أولاً، هدفان تحددهما قيادة قوات العاصفة، ثم لكم حرية التصرف بعد ذلك.

ذهبت مع الأخ أبو عمار إلى غزة، واجتمع مع كل مسؤولي الساحة المتواجدين هناك، وتناولنا الغذاء، وعدنا في نفس اليوم، كان التنقل صعباً، فقد أخذتنا سيارة تذهب كل يوم إلى غزة للتجارة، وكان الأخ السائق يدفع رشاوى كثيرة للإسرائيليين لتسهيل حركته، وهذه الرشاوى التي كان يدفعها، هي التي تسمح لنا بالمرور.

من هنا كان لا بد من ذهاب الأخ أبو عمار إلى غزة، لأنه الوحيد الذي يمتلك حلاً لكل مشكلة، ويمتلك تحديد كلمة السر وجمع المعلومات، وتنظيمياً هو صاحب القرار.

في ٨/٢٥، كان الأخ أبو عمار في نابلس، وأنا استقر عملي في القدس ورام الله، لا أستطيع أن أتحرك من هذه الأماكن دون تعليمات، فكنت إذا استطعت، أمرر المعلومات مع الأخوة إلى المناطق، ولا أغادر إلا ضمن تعليمات، وكنت قد طلبت من الأخ مجاهد، بمحبة وأخوة، أن لا يحضر إلى رام الله، لأسباب أمنية، لأنّه معروف لكثير من الناس هناك.

في ٨/٢٥ فوجئت بمجاهد قادماً إلى رام الله، ذهب إلى أحدالعناوين ليراني، وأبلغت بذلك، وكنت أعرف انضباطه، فلما أخبروني، أحسست بأن ثمة شيئاً غير طبيعي في الأمر، وسألته، فقال، الأخ أبو محمد يقول لك: أن توقف جميع العمليات، وقد غادر نابلس إلى دمشق، جاءه رسول من هناك، وبعدها غادر، المهم مع قلقي الشديد، نقلت قراره وأبلغت مجموعتنا في كل مناطق الضفة الغربية بوقف العمليات، وأرسلت إلى الأخوة في غزة الأخت عبيدة الكاظمي تخبرهم بالتعليمات، فأبلغوها أن المجموعات تحركت إلى أهدافها، وذلك حسب الاتفاق والتعليمات. كان هذا في ٨/٢٥، في ٨/٢٦، أبلغت بتحرك الأهداف في غزة، والآن أصبحت القيادة لي بعد مغادرة الأخ أبو عمار، فأنا المخول الآن بإصدار التعليمات في الضفة الغربية وقطاع غزة معاً، وإذا تحركت غزة وحدها فهذا يعني أن قوات الاحتلال ستنفرد بها، بالتالي علي التخفيف عليهم، وذلك لن يكون إلا بتحرك قوات، أو مجموعات من الضفة الغربية. وهنا سأكون في مخالفة أوامر القيادة، فإما أن أترك قطاع غزة يخوض المعركة وحيداً، وإما مخالفة أمر القيادة الصريح بوقف العمليات، فتركت الضفة، وذهبت إلى دمشق فوراً، وأذكر أنني وصلتها صباح يوم ٨/٢٨ الساعة الخامسة، وعندما رآني أبو عمار قال لي: الله لا يجيبك، تركت فلسطين في أيدي اثنين من المجانين، مجاهد، وأبو علي المدني.

كنا نصنفهم في أعلى مراتب العلم العسكري، أما في غير هذا، كنا نحجمهم دائماً، فهما لا يفكران في غير فوهة البندقية، والآن استلما القرار، فأخبرته بكل تفاصيل الوضع، في غزة، والوضع الحرج الذي نحن فيه الآن، وقلت له: عليك تحمل المسؤولية، الأخوة في غزة تحركوا إلى أهدافهم، وستسمع ذلك في الأخبار، والقيادة لا تعرف وجهتهم حتى توقفهم.

عليك العودة فوراً إلى الأرض المحتلة، وبالفعل، يوم ٨/٢٩، عدنا ليتم الإعلان في نفس الليلة، الساعة السادسة قبل المغرب بنصف ساعة كنا على المخاضة، فمن خلال الرصد الذي كان يتم لدينا، قوات الاحتلال في منطقة الأغوار، تنسحب من الأغوار، وكنا نراهم بالعين المجردة، فتذهب مجموعات شبابنا بعد الغروب، لزرع الكمائن والألغام، ودائماً يتم ذلك بعد نصف ساعة من الغروب، ولدينا الآن ساعة فراغ قبل المغرب بنصف ساعة إلى نصف ساعة بعد الغروب، علينا خلالها أن نقطع الشريط الحدودي، وان نجتاز المنطقة الخطرة المزروعة بالألغام، فوصلنا إلى منطقة سيل الزرقاء على الجانب الأردني، وجلسنا، وكنا هذه المرة ٣٤ شخصاً مجموعة الدورية، وكان يرأسها الأخ أبو عمار. وكان معنا الأخ أبو علي حسن فريتخ، (رحمه الله) كان دليلاً ممتازاً جداً، ومميزاً، وعلى طريقة السائح، كان يحمل المطرة على كتفه، كالعادة كنت أكثرهم حركة، وفي لباس مدني، كنت أرتدي قميصاً وبنطلوناً، فخرجت من المكمن، وذهبت عند أبو علي فريتخ، فقال لي: إن مجاهدا استشهد. أصبت بصعقة المفاجأة، فروي لي، أن الأخ مجاهد جاء إلى بيت مصطفى سمارة، الذي كما أسلفت تركته القوات

المحتلة دون اعتقال، ليكون طعماً سهلاً لمن يتردد عليه، وواضح أن المراقبة كانت دقيقة، فعندما جاء مجاهد تم رصده تماماً، وكان قادماً لأخذ مصطفى سمارة إلى جنين لحضور اجتماع، سيعقد في صالون حلاقة يقع في منتصف البلدة، فتبعتهم، كان في حوزته مسدساً (نصف غولد) ومعه ٣٧ طلقة، تذكرت حواراتنا معاً، عندما كان يقول لي، لو أمتلك كلاشينكوف، ومعي مخازنه، فأنا جاهز وحدي لأتصدى لكتيبة من الجيش الإسرائيلي.

كان مقاتلاً حقيقياً، ولم يكن إنساناً سهلاً، له ثقة مطلقة في قدراته، وإيمانه، وتم حصاره بخمسة رشاشات (٥٠) وقاومهم بالمسدس، وتم اعتقاله، وأخذوه إلى منطقة سنة ١٩٤٨، كما علمت فيما بعد من المحقق، الذي أخبرني بذلك عندما حقق معي، ووصفه، بأنه كان رجلاً، وطبعاً وضعوا القيد في يديه وحمل في سيارة جيب فيها السائق، وجندي واحد للحراسة.. تطلع مجاهد، وحسب الموقف، أنه لو ضرب الحرس بيديه، والرشاش جوار السائق الإسرائيلي، فسيأخذ الرشاش بسرعة، ويسيطر على الموقف، وكما روى لي المحقق، أن السائق كان متيقظاً، وأسرع من مجاهد، فعندما ضرب مجاهد المرافق الذي معه، وقبل أن يصل إلى الرشاش، كان السائق قد تمكن من الرشاش، وأفرغه في جسد مجاهد حتى الموت.

الآن. عندما أخبرني أبو علي فريتخ، باستشهاد مجاهد، قلت له، أن لا يتحدث لأي أخ في الدورية بالأمر، فاحتمال أن يحصل إرباك للشباب وخاصة الذين دربهم مجاهد، كذلك نحن على وشك الدخول إلى الأرض المحتلة، ولا زلنا في بداية الدورية، وخبر كهذا لا بد يكون سلبياً على الأخوة.

ذهبت فقط للأخ أبو عمار، وأعلمته بالأمر، فطلب هو الآخر عدم معرفة الآخرين بالأمر، وعبرنا، وذهبنا في اتجاه نابلس، وقبل أن تصل دوريتنا صباحاً إلى بيارة الشكعة، تم الإعلان عن الهدفين في غزة، وكان أحد هذه الأهداف جسراً يقطع منطقة كاملة داخل الأرض المحتلة.

ولا بد من الإشارة هنا، أن إمكانياتنا في ذلك الوقت كانت بسيطة، وأذكر للأخ أبو عمار إحساسه الإنساني المتميز في أوقات الطعام، واستيعابه عدم كفاية الوجبات، فكان يوفر حصته من الطعام بطريقته الخاصة، ادعاؤه المرض، حتى تكون حصته من نصيب الأخوة، وأشهد على ما رأيته، كم من الليالي نام هذا الرجل جائعاً، فقط ليوفر حصته للآخرين.

في ١٠/٨، قررنا أن نصدر بياناً رسمياً، كان قد أصبح لدى الحركة ١٢٤ عملية، نفذت ولم يعلن عنها، فكان لا بد الآن من بيان للشعب، الأخ أبو علي إياد (رحمه الله)، كان مصراً أن يكون معنا في هذه الفترة، وأن يدخل إلى الأرض المحتلة، لكنه لم يكن قد تعافى تماماً من عملية الهامة، قلت له: يا أخ أبو علي، ان لنفسك عليك حقاً، ووضعك الصحي لا يسمح، ودخول الدورية ليس مثل ركوب سيارة، قال:

أنا أعرف الصعوبة، وإذا لم استطع العبور، فلن أكون عبئاً عليكم، وهذا بالضبط ما كان يخيفنا من أبو علي، فنحن نعرف أنه لحظة يشعر بعدم قدرته على الاستمرار لن يكون عبئاً على أحد، فقمنا بإقناعه بتأجيل الأمر وأننا لا زلنا في البداية، وفي المراحل القادمة، قلت له أعدك أن أكون معك في الدورية، فقال لي: إذن خذ هذا القلم، واكتبوا به البيان الأول لحركة فتح، في مرحلة انطلاقتها الثانية، فأخذت القلم.

وفي يوم ١٠/٨ كان يوم جمعة، تغدينا أنا والأخ أبو عمار في نفس البيت في القدس، وأذكر أن بيت خالي كانوا قد أعدوا يومها سمكاً، وبعد الغداء، قال لي: سنكتب البيان الآن، وبدأ يهم بالكتابة، فقلت له: ليس بقلمك، لو سمحت هذا قلم أبو علي إياد، فمزق الورقة التي كان قد بدأ فيها الكتابة وكتب بقلم أبو علي اياد.

في هذه اللحظة، حملت أنا صينية الطعام، لأعيدها إلى بيت خالي، كان لبيت قليبو الذي نقيم به، أكثر من ميزة، من حيث الموقع، ووجود عدة مداخل تؤدي إليه، من جهات عديدة، فعندما خرجت لفت نظري رجل، لم أره من قبل يرتدي بذلة ويقف في أحد مداخل البيت، أكملت طريقي بطريقة طبيعية إلى بيت خالي، ثمّ عدت، ودرت من جهة أخرى لا يراني منها الرجل، كان هناك بيت لآل الجعبري، وكذلك لهم فرن، فدرت من ناحية الفرن، وكانت علاقتي مع الجيران، حميمة وممتازة، فسألت الأخ الذي في الفرن، وقلت له: أرى في الحارة زبوناً جديداً ؟

قال لي: هذا منهم، أحضرته سيارة بيضاء.كانت مخابرات الاحتلال في ذلك الوقت تستخدم سيارات بيجو ٤٠٤ بيضاء اللون، ومجرد أن يرى الناس هذه السيارة، يعرفون أنهم مخابرات، وأكمل لي الشاب، أن معه أيضاً جهازا.

حملت المعلومات، ودخلت إلى أبو عمار وأبلغته، كان لا يزال يكتب البيان، وقد خلع جاكيته، أو بالأحرى جاكيتي، لأنه يرتدي ملابس مدنية، وكان معنا بنطلون وجاكيت سبور، والبذلة، وفي الصباح كنت أسأله: ماذا سترتدي من الموجود؟

كان قياسنا في ذلك الوقت واحداً، فكان يقول لي، إذا كنت تريد أن ترتدي البذلة، سأرتدي أنا الجاكيت والبنطلون، والعكس، في ذلك اليوم كان يرتدي الجاكيت، فقمت بسحبه لنخرج، وأخذ الجاكيت عن الكرسي، وارتداها، وغادرنا سريعاً، دون أن يرانا أحد، حتى الشاب الذي في الفرن، ابن الجعبري لم يرانا، وكما أسلفت، كان للبيت أكثر من طريق للخروج والدخول إليه، خرجنا من منطقة فيها محل، تصليح (بسكليتات)، وكان معي سيارة (دوج حمراء) لعدنان الجولاني، مركونة عند موقف السيارات ومقدمتها باتجاه الحائط، فلما خرجنا، وأشير هنا الى أنني كنت بالغ الحرص على حماية أبوعمار،وعاهدت نفسي والأخوة في القيادة على ذلك طالما أنا على قيد الحياة، وطالما أنا قادرعلى ذلك،

فكانت مصيبة لو اعتقل أو قتل هذا الرجل، فتحت له باب السيارة الخلفي سريعاً وركب، وبدأت أرجع في السيارة إلى الوراء، لأخرج، فانكشفت السيارة للرجل الذي يراقبنا. سقت السيارة بسرعة لمسافة ٥٠٠ م تقريباً وعند كازية في الشيخ جراح، وأنت خارج من الجسمانية لتدور إلى باب العامود، وتحسباً لأية مفاجأة، ومع شبكة المعومات التي كنت على اتصال بها، أوقفت السيارة، وأنزلت أبو عمار منها، واتصلت تيلفون مع الأخ عدنان الجولاني، قلت له: يا أبو الفهم ما أخبارك؟ كيف صحتك؟

قال لي: الأحمر يخسر.

قلت له: أرسل من يأخذ السيارة، لقد فهمت من جملته، الأحمر يخسر، أننا في خطر، وكان يعرف بالطبع أنني استخدمت السيارة الحمراء.

كنت أمتلك سيارة (فولكس فاجن) بيضاء، لا أحد يعلم بامتلاكي لها، وكانت جيدة وقوية، فقد كان عندنا أحد الأخوة، قد رتبها لي، بحيث لا تستطيع سيارة بحجم كبير أن تكون في صلاحيتها وسرعتها، وكنت قد وضعتها في نفس المنطقة للطوارىء، فذهبت وأحضرت سيارتي، وخرجنا من القدس في سيارة بيضاء إلى رام الله، وقلت لأبو عمار، الآن كل سلطات الاحتلال، تبحث عن سيارة حمراء وتقوم بالتفتيش.

جئت بالأخ أبو عمار إلى شقة في رام الله، في الشارع الموازي لشارع ركب، قرب حلويات الأمراء، كانت الشقة في الطابق الثالث. كانت للأخ نعيم قعدان، (المختار نعيم) الذي استلم فيما بعد مؤسسة أسر الشهداء في عمان، وكانت خالية، والأخ نعيم يقيم في الطابق الثاني من البناية، فوضعت الأخ أبو عمار في الشقة، وأحضرت حبلاً، وكلاليب ، كان في المطبخ شباك يطل على الجهة الأخرى، لشارع آخر، وهناك ساحة تحت الشباك، فكان الحبل هذا ليستخدمه أبو عمار، إذا لا سمح الله آتى من يلقي القبض عليه، من الشارع الرئيسي.

قلت له: لا تتردد في استخدام الحبل، وستكون في منطقة بعيدة عن الشارع، وكذلك يوجد في الشقة طعام، ومؤونة تكفي لمدة ١٤ يوماً.

كانت سلطات الاحتلال تقوم بعمليات تمشيط واسعة بدأتها من الشمال إلى الجنوب ومن منطقة جنين، وقد ورد اسم عبد الحميد، كما أخبرني الأخوة في أكثر من منطقة، فقلت، يا أخ أبو عمار، أصبح الوضع صعباً، وهاهم يصلون إلى رام الله، فمن الضروري أن تختفي، لأنني أنا أيضاً يجب أن أختفي، وطوال وجودك، لا يمكن أن أقوم بالاختفاء، وللأمانة، ونحن نتحاور، بكى أبو عمار، قال لي: عندما كان الوضع لديكم جيد، وكنت في أمن نسبي، وأنا القائد، والآن وأنتم تتعرضون للخطر، تريد مني أن أختفي؟

قلت له: يا أخ أبو عمار، الوضع لا يتحمل، أمن، وكادر، أو مزاودة، أنا الآن أريد أن أختفي، ولن أفعل

ذلك وأنت موجود.

قال: طالما ازداد الخطر عليكم، فلا يمكن أن أقبل طلبك.

قلت له: يوجد حل، القاعدة السرية التي لنا على نهر الأردن، لا يعلمها أحد إطلاقاً، إلا شخص واحد فقط، كنا نستخدمها مستودعاً، وكانت هذه بناءً على طلب أبو عمار، طلب أن يكون لنا مستودع في الأردن للسلاح، وكانت له رؤية في ذلك، قلت له يومها: لماذا يكون لنا مستودع في الأردن، ونحن مطاردين؟

قال لي: معرفش، لكني أخشى أن تتم مساومة على فلسطين، ويحب أن نكون مستقلين.

هذا الكلام في سنة ١٩٦٧، فقمنا بإنشاء هذه القاعدة، التي تدخل الطريق إليها سيارة واحدة معينة وكانت على الجانب الأردني، وأخبرته أن فلاناً فقط يعرف. وبهذا لا يعرف الذين في الخارج أنك خرجت، ولا الذين في الداخل أنك غادرت، فرفض رفضاً قاطعاً، قلت له: طالما هذا رأيك، فسأبقى موجوداً، وسأسجن، ولكني أكرر عليك، أن أهم شيء بالنسبة لي أنت، وما يهمني هو أن تبقى بخير.

وعدت إلى القدس، وتم إلقاء القبض عليّ في نفس تلك الليلة، وبقى أبو عمار في شقة رام الله لمدة ١١ يوماً، مخالفاً التعليمات المتفق عليها.

أنا لا أنكر أنني أمتلك تجربةً أمنيةً جيدة، اكتسبتها من فترة اعتقالي في الأردن، فتزودت بهذه التجربة، فبعد أن أمنت أبو عمار، عدت إلى القدس، وفي الساعة الواحدة ليلاً، جاءت مفرزة من قوات الاحتلال، إلى بيت أخوالي وقاموا باعتقالي من هناك، ونقلوني إلى سجن المسكوبية.

كان يوجد في جيبي صورتان، نسيت أن اتخلص منهما. واحدة لأخ اسمه مصطفى عبد العزيز حجو، والصورة الأخرى للأخ أبو عمار من أجل عمل هويات لهما.

وصلت باب المسكوبية، ولم تفتشني بعد سلطات الاحتلال، وهذا كان حسن حظ، فأخرجت الصورتين وقمت بأكلهما، ولن أنسى بعد كل هذه السنوات أسوأ من ذلك الطعم، لا يمكن تصوره.

أما الأخ أبو عمار، فقد تركته في رام الله، في نفس الشقة، علمت فيما بعد أنه بقى فيها ١١ يوماً، بعدها لم أعرف، فقد استلم الأمر، الأخ أبو فراس (مصطفى عيسى)، وأخوة آخرين تابعوا المهمة، ومعه كان هشام السعودي.

أوراق فلسطينية

تحليل للإنتفاضة من زوايا مختلفة سماتها، وآفاقها المستقبلية

عبد الغني سلامه *

مقدمـة

للشهر الثالث على التوالي، تواصل الهبّة الشعبية فعالياتها على طول الأرض المحتلة وعرضها، ورغم محدودية المواجهات واقتصارها على نقاط التماس إلا أنها أقرب ما تكون في اتجاه تحولها إلى حالة شبه دائمة، أو انتفاضة استنزاف (على غرار حرب الاستنزاف)؛ فإذا كانت حرب الاستنزاف تجري بوتيرة أقل من الحروب التقليدية، لأن الطرفين لا يستخدمان كافة عناصر قوتهما، لتقليل حجم الخسائر والتضحيات؛ فإننا الآن أمام مشهد يمكن وصفه بانتفاضة الاستنزاف؛ إذ لا توجد مواجهة شاملة من الطرف الفلسطيني، وحجم المشاركة الشعبية أقل بكثير مقارنة بالانتفاضات السابقة، ولم نشهد عمليات عسكرية نوعية. وفي المقابل فإن السياسة الإسرائيلية حتى الآن لم تصل بعد إلى مستوى المواجهة الشاملة، وتكتفي بالضرب بقوة وقسوة في مناطق التماس والمواجهة، واستسهال القتل للشباب الفلسطيني. ولكن دون وجود مؤشرات على إعادة احتلال المدن الفلسطينية، أو قصف مقرات للسلطة ومراكز الأجهزة الأمنية، أو حتى إجراءات عقابية اقتصادية ومالية موجهة ضد السلطة الفلسطينية، مثل احتجاز أموال الضرائب، أو فرض عقوبات جماعية مثل إغلاق طرق ونصب حواجز وحصار للمدن، كما فعلت طوال سنوات انتفاضة الأقصى.

وهذا يعود ربما لحسابات الجانب الإسرائيلي، الذي لا يرغب بمواجهة انتفاضة شعبية سلمية تجر عليه مزيدا من العزلة والضغط الدولي، ولا يرغب في تكرار سيناريو تحطيم الأجهزة الأمنية

* باحث فلسطيني

الفلسطينية في «انتفاضة الأقصى»، والذي نتج عنه انضمام عدد كبير من أبناء تلك الأجهزة للانتفاضة، بل وتولي قيادتها. هذا فضلا عن أنّ الأعمال الانتفاضية حتى الآن لا توجد لها بنية منظمة يمكن ضربها بطريقة المواجهات المفتوحة، ولأن عمليات اجتياح واستهداف المدن تعني عمليا توسعة الانتفاضة والمواجهة، ولأنّ الفصائل كافة تتراوح مواقفها بين المشاهدة والتأييد اللفظي لما يحدث، وبالتالي لا تبدو هدفاً مفيداً للاحتلال.[١]

أمام هذا الواقع، تجد الانتفاضة نفسها في مواجهة خيارات معينة؛ فهي تحمل في طياتها عوامل الإستمرار والتصعيد، جنبا إلى جنب مع عوامل التوقف والانحسار، كما أن استمراريتها يمكن أن تكون بأكثر من شكل؛ فهناك خيارات العسكرة، وخيارات إبقائها على نفس الوتيرة لفترة من الزمن، أو تحولها إلى نمط حياة دائم، كشكل من أشكال المقاومة الشعبية والعصيان المدني، وكل هذا مرهون بتطور الظروف.

في كل الأحوال لا تلعب الرغبات والأماني، ولا حتى القناعات والتوجهات الذاتية العامل الوحيد في رسم مستقبل الانتفاضة، وتحديد شكلها، فهناك عوامل موضوعية تفرض نفسها بقوة؛ أبرزها العامل الإسرائيلي وكيفية الرد من قبل جيش الاحتلال، وهناك العوامل الإقليمية والدولية. وقبل ذلك كله، علينا أن نقر بأن العامل الذاتي الفلسطيني غير موحد، وليس هناك إجماع شعبي أو فصائلي أو رسمي على القيام بانتفاضة، أو على إستراتيجية مواجهة موحدة.

لماذا انتفاضة ؟

تسود مقولة في الأوساط الإعلامية مفادها أن الانتفاضة ولدت يتيمة، وأنها تُركت وحيدة .. والأسئلة التي تطرح نفسها مباشرة استنادا إلى هذه المقولة: هل هذا صحيح أولا ؟ وهل هي بالأساس «انتفاضة» ؟

إذا كانت «الانتفاضة» في المفهوم النضالي الفلسطيني هي خروج الجماهير والقوى والفعاليات الشعبية عن حالة الرفض الصامت، إلى حالة المواجهة المفتوحة، والبدء بفعاليات كفاحية متعددة الأشكال والأوجه في مواجهة الاحتلال، وعلى مدى فترة زمنية طويلة نسبيا، تماما كما حدث في الانتفاضتين السابقتين؛ فإننا الآن، ووفقا لهذه المعايير أمام انتفاضة «مصغرة»، بسبب محدودية المواجهات من جهة، ولأنها ما تزال في بداية تشكلها، ومن المبكر إطلاق الأحكام والتصنيفات عليها من جهة أخرى. ولكن هذه الانتفاضة «المصغرة» أو الهبة الجماهيرية أو مهما كان اسمها صارت أمرا واقعا، وجزءاً أساسيًا من التراث النضالي الفلسطيني، وصفحة أخرى في كتاب كفاحه الخالد،

وهي بكل تأكيد موجة كفاحية جديدة، قد تستمر وتتصاعد وتصبح شاملة بكل معنى الكلمة، وقد تتراجع بعض الشيء فاتحةً المجال أمام موجة أخرى قريبة، قد تكون أشد عنفا وأقوى تأثيرا.

لكن هذه الانتفاضة، لم تولد يتيمة، ولم تنبثق من الفراغ، حتى لو بدا لنا الآن أن من يحركها ويقوم بفعالياتها هم شبان لا ينتمون لفصيل معين، ولم يكن خروجهم بناءً على قرارات أو توجهات من قبل القيادة؛ إلا أنها ولدت من رحم الثورة التي انطلقت قبل ذلك بعقود، وجاءت امتدادا للانتفاضات السابقة، وتواصلا لمسيرة طويلة من الكفاح والعمل السياسي والتنظيمي، ونتاجاً لتراكمات من التضحيات والعمل بدأته حركة فتح، وأكملته معها بقية فصائل العمل الوطني وجماهير شعبنا على امتداد تاريخ من الكفاح والعطاء والشهداء والأسرى، داخل الوطن وخارجه. وفي تصريح للرئيس «محمود عباس» قال فيه: «إن هذه الهبة الجماهيرية الغاضبة لم يدعُ لها أحد، ولم يقررها أحد، لكنها جاءت ردا من الشباب الغاضب على سياسات الغطرسة الإسرائيلية والتوسع الإستيطاني ومحاولات تهويد القدس».[٢]

المعاني والفرص التي تحملها الانتفاضة

صحيح أن هذه الانتفاضة بدأت عفوية كسابقاتها، لكنها هذه المرة جاءت دون إطار قيادي ميداني ودون هدف سياسي واضح، إلا أنها دون شك وفّرت فرصة تاريخية لإعادة تصحيح شكل العلاقة التي سادت في السنوات السابقة بين الشعب والسلطة من جهة، والاحتلال الإسرائيلي في الجهة المقابلة، أي بجعلها علاقة اشتباك وتصادم بين الضحية والجلاد، وفرصة للخروج من حالة اللامقاومة، واللامفاوضات التي اتسمت بها المرحلة السابقة.

وحتى لو بدا لنا أن هذه الانتفاضة غير قادرة على دحر الاحتلال، في هذه المرحلة، وفقا للمعطيات المتاحة؛ إلا أنها تشكل مدخلا مناسبا لعلاج الوهن والضعف الذي أصاب الحركة الوطنية الفلسطينية، وفرصة لتغيير المسارات المختلفة التي اعتمدتها القيادات السياسية الفلسطينية خلال المرحلة السابقة، والتي انتهت جميعها بالفشل.

وتقدم الانتفاضة أيضاً فرصة تاريخية لحركة فتح، ويمكن أن تكون الفرصة الأخيرة، لتصويب مسارها، واستعادة مكانتها الريادية والقيادية في الكفاح الفلسطيني، ولأن تصفّي خلافاتها الداخلية، وتعقد مؤتمرها الحركي، وتجدد شبابها وقياداتها، وتخرج ببرنامج كفاحي مقاوم يرتقي إلى مستوى الأحداث، ويليق بإرثها النضالي. وهي بنفس الدرجة فرصة لكافة فصائل العمل الوطني، التي هي أيضا اعتراها الوهن وأصابها الترهل؛ بمعنى أن هذه الانتفاضة تضع جميع القوى والفصائل

أمام الاختبار الصعب والحقيقي، لكي تعود إلى المقاومة الجماهيرية. وهي كذلك فرصة لاستعادة الوحدة الوطنية وإنهاء الانقسام، وإعادة الاعتبار للجماهير.

بل إنها تشكل فرصة للأشقاء العرب، كي يصحوا من واقعهم المخزي بعد أن غرقوا في صراعاتهم الطائفية، وانشغلوا عن قضيتهم المركزية.

والانتفاضة أيضاً تمنحنا القوة الأخلاقية والسياسية للرد على سياسة التجاهل والانحياز التي تتبعها الولايات المتحدة والمجتمع الدولي، وإجبارهم على تبني خطاب آخر متحرر من الهيمنة الصهيونية، وأن يظهروا ولو لمرة واحدة انحيازهم لقيم العدالة والحرية وحق الشعوب في تقرير مصيرها.

الدور المطلوب

ومنذ اندلاعها لم تصل الهبّـة بعد إلى مستوى المشاركة الشعبية الواسعة، كما لوحظ أن معظم فعالياتها تتم بصورة فردية، والسبب في ذلك ربما يعود لعدم قدرة القيادة والقوى والفصائل الوطنية على اجتراح مجرى كفاحي أكثر فعّالية، وبالتالي، وبسبب هذا الغياب وعدم انتهاج خط سياسي واضح، ومقاومة فعّالة نتج عن ذلك فراغ. والسياسة لا تقبل الفراغ؛ لذلك، انتشرت ظاهرة السكاكين والدهس. فَلَو كانت هناك مقاومة شعبية حقيقية، أو كان لدى الفلسطيني إمكانيات أكبر فإنه لن يلجأ إلى السيارة والسكين والمقص وحفّار الكوسا.[٣]

لكن هذه الهبّة أحدثت حراكا سياسيا في كلٍ من الشأن الداخلي، وفي الشأن التفاوضي على حد سواء، دون أن تنجح في حسم أي منهما، إذ يمكن القول بأن هذه الهبّة لم تتمكن لغاية هذه اللحظة من تحريك المجتمع الدولي، أو إجبار الإدارة الأمريكية على أن تتصرف وتأخذ موقفا جديا، أو إحداث إختراق في الموقف الإسرائيلي، أو في إجبار الطرفين للجلوس على طاولة المفاوضات، بل إنها حتى لم تحرك الجماهير العربية؛ إلا أن هذا كله لا يقلل من أهميتها؛ فهي بهذه الوتيرة السلمية المتصاعدة، وبامتلاكها روح الإصرار والتحدي، وبتقديمها كل هذه التضحيات، هي أقرب ما تكون في اتجاه تحولها إلى حالة شبه دائمة، أي "انتفاضة استنزاف"، وبانتظار تطور الأمور ميدانيا وسياسيا، وربما أمامها بضعة أشهر أخرى فارقة حتى تتمكن من إحداث الاختراقات المطلوبة.

وحتى لو بدت إنجازات الانتفاضة غير مرئية في اللحظة الراهنة؛ فهي بحد ذاتها تعبير عن الصمود ومواصلة مسيرة الكفاح الشعبي واستمرار للانتفاضات السابقة والمقاومة المسلحة، والتي لولاها لما بقيت القضية حية، ولتمكنت الحركة الصهيونية من ابتلاع ما تبقى من الأرض، وطرد من بقي من شعبها، ولتحول كل الشعب إلى مجرد لاجئين، ولصفِّيت القضية للأبد، وأقيمت الدولة اليهودية

النقية على أرض «إسرائيل التوراتية».

وليس شرطا أن تحقق هذه الهبّة الجماهيرية الأهداف العليا للشعب الفلسطيني دفعة واحدة، رغم أنها تسعى إلى ذلك، وهي إن تراجعت قليلا فإنها ستضيف مدماكا جديدا في البناء الكلي، عبر عملية تراكمية مستمرة، وسوف تتصاعد من جديد، إلى أن تمتلئ الشوارع بالجماهير، في انتفاضة شعبية هادرة تدحر الاحتلال ومستوطناته.

وحتى تحقق الانتفاضة أهدافها، وتتحول إلى انتفاضة شعبية هادرة، وتقدم رسالة سياسية واضحة وقوية للعالم، قادرة على إحداث الاختراقات المطلوبة، لا بد من إنضاج بعض العوامل المهمة؛ أولها اتساع قاعدتها الجماهيرية، وانضمام كافة شرائح المجتمع الفلسطيني إليها، وانخراط فصائل العمل الوطني بقوة أكثر في فعالياتها، وعدم الاكتفاء بدور المراقب والمشجّع، وتصعيد فعالياتها السلمية من دون إهمال كلي لبعض أشكال المقاومة المسلحة الضرورية لرفع معنويات الفلسطينيين، وإجبار إسرائيل والعالم على الاستجابة للمطالب الفلسطينية، ولجعل الاحتلال مكلفًا لإسرائيل، لأنه إذا كانت الانتفاضة سلمية مئة في المئة، واكتفت بالمسيرات بالساحات ومراكز المدن ورفع الشموع والدعوة لمقاطعة إسرائيل اقتصاديا وعزلها سياسيا، وترديد الهتافات مائة عام، وفي ظل عدم تواجد جيش الاحتلال في المدن، فلن تحرك إسرائيل ساكنًا، وسيبقى المجتمع الدولي جامدًا مطمئنًا لاستمرار مصالحه ونفوذه.[٤]

وهذا كله يتطلب تشكيل إطار قيادي ميداني، يمثل كافة الفصائل والفعاليات الوطنية، يوازيه على مستوى القيادة السياسية تقديم خطاب سياسي مختلف لا تكون «المفاوضات» مبتدأه ومنتهاه، والعمل على ربط الهبة الشعبية بهدف سياسي واقعي قابل للتحقيق. ولا يُعقَل بعد كل هذه التجارب والنضالات أن نعود دائمًا إلى نقطة البدء، نطرح نفس الأسئلة: نضال سلمي أم مسلح، مفاوضات أم مقاومة، برغم أن هذه الانتقائية والأحادية من مسببات وصولنا إلى ما نحن فيه، فما يحدد أشكال النضال ليس الضحية وحدها، بل طبيعة الصراع وخصائصه، واستراتيجيات العدو وأدواته، وتحالفاته، وطبيعة المرحلة وسماتها.[٥]

وهنا لا بد من التأكيد على أن الأحزاب والفصائل الفلسطينية نظرا لما لها من تجربة نضالية وإمكانيات وعلاقات وقدرة على الحشد والتنظيم، وحتى في ظل أزمتها البنيوية، مع كل الترهل الذي تعاني منه، ما زالت الفاعل السياسي الرئيس، وما زال دورها ضروريا ومطلوبا.[٦]

وبالنسبة لحركة فتح مطلوب منها أن تنهي خلافاتها الداخلية، وأن تهيئ الأجواء لعقد المؤتمر الحركي السابع، وأن تخرج بخطاب سياسي وبرنامج كفاحي يعبر عن ضميرها الثوري، بصفتها طليعة

القوى الوطنية المقاومة، ثم بعد ذلك عليها أن تنجز المصالحة الوطنية وتنهي خلافها مع حماس بأي شكل، الأمر الذي يتطلب منها ومن حماس تقديم التنازلات المتبادلة لإنهاء الانقسام، مرة أخيرة وإلى الأبد. وهذا يعني تنفيذ اتفاقية الشاطئ، وتمكين الحكومة من ممارسة أعمالها في غزة، وأهمها تحديد موعد للانتخابات الرئاسية والتشريعية.

ومطلوب أيضاً عقد المجلس الوطني الفسطيني، والبدء فورا بعمليات إصلاح وتجديد لهياكل منظمة التحرير الفلسطينية، دون الحاجة للدخول في حوارات داخلية من جديد، فهناك اتفاقية القاهرة ٢٠٠٥، والعديد من التفاهمات الوطنية التي سبق وأنجزت، ولكن لم يطبق منها شيء. أي بمعنى مختصر، ترتيب البيت الفلسطيني وتمتين الجبهة الداخلية.

قد تبدو هذه المطالب حالمة بعض الشيء، أو متفائلة أكثر من اللازم، ولكن بدونها لا يمكن تحقيق أي تقدم سياسي، وسنظل ندور في حلقة مفرغة، نقدم فيها تضحيات غالية ونجني مزيدا من الهزائم والإخفاقات .. وعلينا أن لا نفقد الأمل باتجاه تحقيق هذه الأهداف؛ ففي عالم السياسة كل شيء قابل للتحقق، وأحيانا ما يبدو أنه واقعي وممكن يتضح أنه بعيد جدا عن التحقق، مثال ذلك «حل الدولتين». وما يبدو مستحيلا، يغدو حقيقيا بأسرع مما يتخيل أكثر المراقبين خيالا، ومثال ذلك ما يحدث حاليا في المنطقة العربية، والذي كان يبدو خياليا قبل خمس أو عشر سنوات.

الانتفاضة الثالثة، أو هبّة القدس، أو مهما كان اسمها، لا تنتظر منا خطابات ومديحاً وقصائد .. تنتظر منا جميعا أن نحولها إلى صرخة قوية ومدوية في وجه العالم. أن نجعلها نمط حياة، ونملّكها مقومات الاستمرار والتصعيد المدروس، بحيث تكون تمرداً حقيقياً ودائماً ضد الاحتلال، وتعبيراً صارخاً عن رفض إجراءاته الإرهابية العنصرية ومخططاته التوسعية.

الآفاق السياسية للانتفاضة

لم تأت هذه الهبة في ظل مرحلة سياسية مثالية؛ بل إنها جاءت في ظل ظرف إقليمي ودولي غير مواتٍ، تمـرُّ فيه القضية في واحدة من أسوأ مراحلها، وقد شهدت تهميشا غير مسبوق، وتراجع مكانتها في أجندة السياسات الدولية وأولوياتها، ومن ناحية ثانية فإن الظرف الذاتي الفلسطيني غير ناضج، وغير قادر على انتزاع شيء ذي قيمة، حيث ما زال الانقسام حاضرا، ومنظمة التحرير تعاني من الترهل والضعف. السلطة، وعلى لسان رئيسها أعلنت منذ سنوات بأن خيار المفاوضات وصل إلى طريق مسدود، وأعلنت أنها لا تريد انتفاضة، واكتفت بالنضال الدبلوماسي، وبالتهديد باللجوء للمحاكم الدولية، واستخدمت تكتيكات تستهدف تحسين شروط المفاوضات. كما أن القوى التي

رفعت شعار المقاومة المسلحة (وبالذات حماس) وصلت إلى طريق مسدود بدورها، بدليل التزامها بالهدنة منذ العام ٢٠٠٣ حتى الآن، وسعيها لهدنة طويلة الأمد مقابل الحفاظ على سلطتها ورفع الحصار عن غزة.[٧]

الموقف الدولي لم يتغير كثيرا عن حاله قبل اندلاع الانتفاضة، وما زال مكتفيا بدور الشاهد على ممارسات الاحتلال التعسفية، العاجز عن الضغط على إسرائيل، أو إجبارها على الانصياع للشرعية الدولية، أو الموافقة على الحلول السياسية المقترحة، وأهمها حل الدولتين.

الموقف الأميركي تراجع إلى حد كبير، فبعد أن وعد الرئيس «أوباما» قبيل انتخابه العام ٢٠٠٨، بأنّه لن ينتظر طويلاً لمعالجة الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وأنّه لن يفعل ما فعله غيره من رؤساء أجّلوا القضية لأواخر عهدهم؛ ها هو الآن يدير ظهره للقضية الفلسطينية ويتنكر للمفاوضات والعملية السياسية. ولتجنب الدخول في أي مواجهة مع إسرائيل يعلن بكل صراحة أن على الفلسطينيين قبول الفتات وعدم إزعاجنا.[٨]

والواضح أنّ إدارة «أوباما» تجد ما تشغل نفسها واللاعبين الإقليميين به؛ فبعد انشغالها بالملف الإيراني، تريد توجيه النار للملف السوري، وتهميش الشأن الفلسطيني. أي أنها تريد من العرب التركيز على سورية الآن، وتطلب من الفلسطينيين الانتظار وعدم "تخريب المسيرة". كما سبق أن فعلت إدارة "بوش" عندما أجلت كل القضايا لصالح حربها في العراق.

فمنذ اندلاع الانتفاضة في أول أكتوبر، زار وزير الخارجية الأميركي «جون كيري» المنطقة والتقى بقياداتها أكثر من مرة، ولكن دون أن يحمل معه أية رؤية لحل سياسي ولو بالحد الأدنى. ولم يبحث حتى إعادة إطلاق المفاوضات، بل مجرد إجراءات تهدئة. وعلى ما يبدو أن جل هم الإدارة الأميركية محاولة احتواء الأحداث وتطويقها، والحيلولة دون تفاقمها وخروجها عن السيطرة، أي منع تحولها إلى انتفاضة شعبية شاملة، وإقناع إسرائيل بتخفيف إجراءاتها القمعية، وعدم افتتاح دورة عنف دموية جديدة؛ وقد ظنت أميركا بأن إعادة الأوضاع في باحة الأقصى إلى ما كانت عليه، والتوقف عن محاولات فرض التقسيم الزماني للمسجد ستؤدي إلى توقف الحراك الشعبي، وعودة الهدوء من جديد.

زيارات "كيري" للمنطقة، وما جاء به من مشاريع للسلام الاقتصادي، وتقديم تسهيلات للفلسطينيين، والاكتفاء في الوقت الراهن بالضغط لفرض حلول انتقالية طويلة الأمد، مثل زيادة مساحة المناطق الخاضعة للسلطة الفلسطينية، تدريجيا، كبديل لحل سياسي على أساس الدولتين، إنما تدل على أن السياسة الأميركية ما زالت قاصرة عن فهم رسالة الانتفاضة، على أنها صرخة قوية ومدوية في وجه

الكل، في وجه الاحتلال، والانحياز الأميركي اللامحدود لإسرائيل، وفي وجه الصمت الدولي. حتى أنها لم تستوعب خطاب الرئيس "محمود عباس" قبل يوم واحد من بدء الانتفاضة، حين تحدث من على منصة الأمم المتحدة عن فرصة أخيرة، مؤكدا على أن الفلسطينيين لم يعودوا قادرين على القبول بقواعد اللعبة بشروط الوضع الذي سبق الانتفاضة.[٩]

خاتمة

يبدو أن هذه الانتفاضة فاجأت الجميع، وأربكت القوى والفصائل؛ ولا يتعلق الأمر بالنخب السياسية فقط؛ بل هناك نخب اقتصادية وفي المجتمع المدني تشعر بأن الانتفاضة ستهدد مصالحها. حركة فتح من جهتها أرادتها أن تظل «هبّة شعبية»، ربما لأن التيار المتنفذ فيها على قناعة بأن الظرف السياسي العام غير مناسب لاندلاع انتفاضة، ولقناعتها أيضا أن الانتفاضة ليست موضع إجماع شعبي (على الأقل في المرحلة الحالية)، أو لأنها تريد تجنيب الشعب مواجهة خاسرة سلفا. أو ربما تعاملت فتح معها بهذا القدر لاستعادة شعبيتها المتراجعة، ولدعم السياسات التي لوّح بها الرئيس في خطابه بالأمم المتحدة، خصوصًا تهديده بعدم الالتزام بالاتفاقات مع إسرائيل. لذلك لم تسع إلى عسكرتها، ولم تنفذ كتائبها المسلحة أية عملية عسكرية. أما حركة حماس؛ فقد أرادت تصعيد الانتفاضة في الضفة فقط، حتى تساعدها على الخروج من مأزق سلطتها في غزة، وربما لإحراج وإضعاف السلطة في الضفة.[١٠]

كذلك الحال، يبدو أن الأحزاب والفصائل ما زالت مترددة بشأن المشاركة فيها، وتراوح بين عدم رغبتها، أو عجزها عن تحويلها لانتفاضة وثورة شاملة على الاحتلال (لأنها تخشى أن الشعب تجاوزها ولم يعد يثق بها).

في الانتفاضة الأولى، تشكلت القيادة الوطنية الموحدة في وقت مبكر، وفي الانتفاضة الثانية كانت القيادة الفلسطينية حاضرة بقوة، بل إنها هي التي كانت ترسم خطها السياسي، وإلى حد كبير تحدد إيقاعاتها، أما هذه الموجة الانتفاضية فما زالت من دون قيادة ولا تنظيم ولا هدف، أي من دون عقل يوجهها، وهذا أمر لا يمكن تفسيره إلا بأن القيادة تخلّت عن مسؤولياتها، والقوى عاجزة، بينما لم تدرك النخب ما يجري وحجم التغيير الذي يعتمل داخل الشباب الفلسطيني، الذي أدى إلى حصول ما نشاهده الآن.[١١]

فمع ضعف دور الفصائل التاريخية، وغياب أي دور فاعل ومؤثر للقيادة السياسية الحالية، فإن هذه الهبة الشعبية حتما ستُفرز قيادات جديدة. حينها، سيتضح للإدارة الأميركية بأن تقديرها

للموقف على أن الهبة الحالية ليست أمراً مقلقاً، وأنه يمكن احتواؤها ببعض الخطوات الصغيرة كان تقديرا خاطئا وغير دقيق، وحينها ستكون مضطرة للتعامل مع قيادات جديدة ومختلفة.

من ناحية أخرى، كشفت هذه الهبة الشعبية مدى هشاشة دولة الاحتلال، واستحالة التعايش مع الاستيطان، وعرّت أخلاقيات جيشها، وفضحت عنصريتها، وبينت حجم الإرهاب الذي تمارسه بحق المدنيين العزل.

الهوامش

١) د. أحمد جميل عزم، انتفاضة استنزاف تفرز قوى جديدة، صحيفة الغد الأردنية، ٢٤-١١-٢٠١٥.

٢) تصريح للرئيس عباس، في حفل توزيع جائزة الدولة للآداب والفنون والعلوم الإنسانية، في قصر الثقافة برام الله، ١٦-١١-٢٠١٥.

٣) هاني المصري، لماذا انتفاضة سكاكين، مسارات ١-١٢-٢٠١٥. http://cutt.us/pd3KF

٤) محمد فاضل، فلسطين والانتفاضة، الحوار المتمدن، العدد: ٤٩٦٣ – ٢٠١٥/١٠/٢٢

٥) المصدر نفسه

٦) إبراهيم أبراش، الانتفاضة بين حسابات الشعب وحسابات النخب، ٢٠١٥/١١/٢٠

٧) محمد فاضل، مصدر سبق ذكره

٨) أحمد جميل عزم، على الفلسطينيين قبول الفتات، جريدة القدس، ٢٥-١١-٢٠١٥. http://www.alquds.com/articles/1448493954209448900/

٩) طلال عوكل، إدارة تستمرئ الفشل، جريدة الأيام، ٢٦-١١-٢٠١٥.

١٠) محمد فاضل، مصدر سبق ذكره

١١) هاني المصري، مصدر سبق ذكره

الاستيطان الاسرائيلي وحقوق اللاجئين الفلسطينيين

عبد الفتاح القلقيلي*

يُجمع اليهود في اسرائيل (يسارهم ويمينهم ووسطهم) على أمرين :

الأول : تعزيز الإستيطان في منطقة القدس. فحتى حركة "ميرتس"، أقصى اليسار الإسرائيلي، أعلنت في كانون الثاني ١٩٩٥ (في ذروة تطبيق اوسلو، وفي ذروة افتخار فرسان السلام الفلسطيني بسلام الشجعان) أنه على الرغم من معارضتها تكثيف المستعمرات والمزيد من مصادرة الأراضي العربية، فإنه من الضروري إستمرار البناء في معاليه أدوميم والسعي لتمكين كتلة عتسيون الإستيطانية من البقاء تحت السيادة الاسرائيلية. فقد توقف الاسرائيليون عن النظر الى الضواحي الجديدة في القدس الشرقية كمستوطنات، فهي في نظرهم جزء من إسرائيل، بل جزء من عاصمتهم الموحدة.

أما الأمر الثاني فهو عدم عودة اللاجئين. فحتى يوسي ساريد، وهو أمين عام ميرتس أعلن مراراً وتكراراً رفضه لتلك العودة واعتبرها تدميراً لاسرائيل، وظلّ على هذا الموقف حتى بعد ان ترك موقعه كامين عام. كل يهود اسرائيل متفقون حول هذين الأمرين، وقد يختلفون حول غيرهما.

مما لاشك فيه أن الحرب الصهيونية عام ١٩٤٨ كانت سبب تهجير الفلسطينيين، ولكن بعد أن تبلورت القضية الفلسطينية تداخلت الأسباب بالنتائج بحيث صار هنالك إمكانية للخلط فيما إذا كانت مشكلة اللاجئين هي سبب القضية الفلسطينية أم أنها نتيجة لها ؟ أي هل حل قضية اللاجئين يؤدي إلى حل القضية الفلسطينية أم العكس؟ وتطور هذا التعقيد لينتقل من الاعتقاد السائد أن حل مشكلة اللاجئين هو مفتاح السلام ولا سلام بدونه، الى الوهم بأن السلام هو مفتاح حل مشكلة اللاجئين، ولا حل لها بدونه. وهنا نشير الى الجدول الذي اعدّه الدكتور سلمان ابو سته رئيس "هيئة

* باحث فلسطيني

ارض فلسطين". ومنه نجد أن عدد اللاجئين عام ١٩٤٨ هو ٨٠٥,٠٠٠ لاجىء يمثلون ٨٥٪ من أهالي الأرض التي أصبحت إسرائيل. وبأخذ معدل النمو الطبيعي يكون عددهم عام ١٩٩٨ كما يقول الجدول هو ٤,٩٠٠,٠٠٠ لاجىء، منهم ٣,٦ مليوناً مسجلون لدى الوكالة و١,٢ مليون غير مسجلين.

اما عدد الفلسطينيين كافة، فيوضح الجدول ان عدد كافة الفلسطينيين عام ٢٠٠٠ بلغ ٨,٢٥٠,٠٠٠ نسمة موزعين كالتالي: حوالي ٣,٦٠٠,٠٠٠ نسمة. (٤٦٪ من المجموع) يعيشون على أرض فلسطين. ومنهم ٣,٢٧٠,٠٠٠ (٤٢٪) في دول الطوق (مصر والأردن وسوريا ولبنان). وهذا يعني أن ٨٨٪ من الفلسطينيين لا يزالون في فلسطين وحولها، بعد ٤٧ عاماً من التشريد. وهذه نسبة هامة تثبت التشبث بالأرض والتحفز للعودة اليها. ويوجد الباقي، حوالي المليون (١٢٪)، في الخليج الأميركيتين وأوروبا. ويشير الجدول الى ان اللاجئين الفلسطينيين يشكلون ٧٠٪ من الشعب الفلسطيني خارج اسرائيل (شعب منظمة التحرير الفلسطينية). مما يوحي انه يجب ان تتحكم عودتهم بأساس برنامج منظمة التحرير ومؤسساتها بما فيها السلطة الوطنية.

الشق المتدين من الصهيونية يعتبر فلسطين هي الأرض التي قيَّمها الرب فلم يجد غيرها جديرة بأن تُمنح لجماعة يسرائيل "وأما الشق العلماني من الصهيونية فيؤمن بحلول "الشعب" بالأرض دون اله حيث تصبح الأرض هي الاله، وقد صرح دايان ذات يوم أن "أرض اسرائيل هي ربه الوحيد"، وكلاهما أي المتدين والعلماني يريان أن أرض فلسطين هي أرض الميعاد والمعاد وهي الأرض التي ستشهد نهاية التاريخ.

الحركة الصهيونية، اضافة الى أنها حركة استعمارية احلالية عنصرية، هي أيضا حركة شاذة. ووصفها بالشاذة ليس إلا توصيفا دقيقا لواقعها. فالحركة السياسية الطبيعية (مهما كانت ايدلوجيتها وسياستها) هي حركة تنمو بين شعب يعيش على ارضه. اما الحركة الصهيونية فانشئت لتحصل على ارض بوسائل مختلفة لتهجّر إليها شعبا من بلاد مختلفة بطرق مختلفة.

أي ان المسار الطبيعي للحركات السياسية المختلفة عبر التاريخ كان ومازال هو: ارض فشعب فحركة، اما مسار الحركة الصهيونية الشاذ فكان حركة فارضا فشعبا. وكذلك الانقسام الطبقي الصهيوني كان شاذاً أيضا. فالطبقة العاملة اليهودية الاسرائيلية (الصهيونية) كانت وليدة الفكرة، ففكرة الخلق سبقت الوجود بعكس نشوء الطبقات في أي بلد آخر حيث تظهر الطبقة العاملة قبل الفكرة او الايديولوجيا. ولذلك تعلقت الطبقة العاملة في اسرائيل بفكرة الصهيونية والاستيطان، فكان حزب العمل الاسرائيلي هو قائد العدوان والاستيطان والتوسع، وكان الكيبوتس لا يقل عن الموشاف او الموشافا تشددا ضد العرب، وتمسكا بالصهيونية والعنصرية. فقد قامت الطبقة البرجوازية اليهودية

بسلب الأرض الفلسطينية من اصحابها، وقامت الطبقة العمالية اليهودية بسلب العمل، وتشعر الطبقتان معا بالاستفادة من الاحتلال، وكانتا ومازالتا تتعاونان معه قولا وعملا.

وقد شدد بنغوريون على حصر العمل في المستوطنات اليهودية بالايدي اليهودية، ويقول (كمانقله عبد الحفيظ محارب) ان عملية امتلاك الارض بالاموال لا تعتبر انقاذا بالمعنى القومي طالما الارض لا تستغل بايدي اليهود، كما وان انبعاث الشعب لا يمكن تصوره بدون عمل في الأرض... " وكما يقول "ارسكين شليدر" في كتابه "تهويد فلسطين" فان "الاستيلاء على الأرض وطرد السكان ليس ناجما عن طبع شرير عند اليهود، بل هو من مقتضيات اقامة الكيان الصهيوني الذي ما كان ليقوم إلا بارض اكثر وعرب اقل!!".

ونقلا عن جريدة الاتحاد الاماراتية (٢٠١٠/٥/١٤)هناك عبارة ينسبها الباحث المصري انور زناتي في كتابه "تهويد القدس" إلى "هرتزل" مؤسس الحركة الصهيونية يقول فيها: "إذا. حصلنا يوما على القدس، وكنت ما أزال أحيا وقادرا على القيام بأي شيء فسوف أزيل ما ليس مقدسا لدى اليهود فيها، وسأحرق الآثار التي مرت عليها القرون". وإذا دققنا اليوم في السياسة الاسرائيلية منذ استيلائها على القدس عام ١٩٦٧ حتى يوم امس نجدها تنفذ خطة هيرتزل في ما يخص المقدسات في القدس بالتدريج المتواصل.

وبعد الاطلاع على العديد من الدراسات التي كُتبت حول الصهيونية من انصارها واعدائها نخلص الى "المثلث الصهيوني"، قاعدته الارض وضلعاه الانسان السالب والانسان الموجب.

الضلع الاول (العربي) خارجا من فلسطين، والضلع الثاني (اليهودي) داخلا إليها. هذا المثلث واضح على مستوى المستوطنة الواحدة وعلى مستوى فلسطين ككل أيضا، كان ومازال كذلك منذ انطلقت الحركة الصهيونية رسميا بمبادرة من هيرتزل عام ١٨٩٧ حتى يوم امس بقيادة نتنياهو.

فالحركة الصهيونية باعتبارها احلالية تختلف عن الحركات الاستيطانية العنصرية الاخرى بانها تحتل الارض والعمل ولا تقبل ابقاء السكان الاصليين ليعملوا في مزارعها ومعاملها، فهي حركة استيطان وتهجير، تهجير السكان الفلسطينيين عن ارضهم وتهجير اليهود الى تلك الارض.. ولذلك فمنطلقاتها وانظمتها ودساتيرالمؤسسات وأنظمتها المنبثقة عنها او المستندة إليها تتمحور حول الارض وامتلاكها. ولكن بعد توسع اسرائيل عام ١٩٦٧ وسيطرتها على ما تبقى من فلسطين بدأت ترى ان من مصلحتها الملحة ان تقبل اليد العاملة الفلسطينية الرخيصة جدا ضمن شروط قاسية امنيا وانسانيا. ولم يجد الفلسطينيون اي سبيل آخر للحياة مما جعلهم يُقبلون على العمل الشاق والمهين في المشاريع الاسرائيلية وخاصة في مجالي الزراعة والبناء. ولكن اسرائيل لم تشأ (في يوم

من الأيام) ضم الضفة الغربية وغزة أو احداهما لإسرائيل لأن ذلك سيهدد، وقد يلغي، ديمقراطية اسرائيل (المزعومة) أو يهوديتها أو كليهما. ولكنها، أي اسرائيل، كانت وما زالت تصرّ على ضم القدس واجزاء صغيرة من قطاع غزة واجزاء أكبر من الضفة الغربية. وما لاتريد ضمه من غزة والضفة الغربية تُعدّ له مستقبلاً مرسوماً حسب أمنها ومصلحتها وبرنامجها الذي بدأه بيريز عام ١٩٩٣ وواصله شارون (بدون اوسلو)، ويتبناه الان نتنياهو (خارج اوسلو). ففي مؤتمر اليونسكو في غرناطة بعد شهرين من أوسلو، أي في كانون أول ١٩٩٣، أعلن بيريز أنه " سيكون للضفة الغربية مستقبل سياسي يختلف عن مستقبل قطاع غزة. فهذا الأخير سيحصل بالتدريج على خواص الدولة، في حين أن الضفة الغربية ستتطور ككيان سياسي ذي استقلال ذاتي، يضم الفلسطينيين والمستوطنين الاسرائيليين. وستكون هذه السلطة المستقلة ذاتيا مسؤولة عن الأمور الداخلية كافة، بينما يبقى الأمن والشؤون الخارجية في يد اسرائيل. وسيتم إقامة برلمان محلي للضفة الغربية يترشح لإنتخابات عضويته الفلسطينيون والمستوطنون الاسرائيليون على حد سواء، وسيتحدد تمثيلهم النسبي بناء على التناسب بين السكان". (لاحظوا ان ما رآه رمزُ حزب العمل عام ١٩٩٣ يراه وينفذه حزب الليكود الآن) كان ذلك في زمن ياسر عرفات في غزة والضفة، وهو الان في زمن ابو مازن في الضفة وحماس في غزة. باختصار إن اسرائيل متمسكة جدا جدا بثوابتها "الوطنية"!!!!!

والحركة الصهيونية كما عرّفها بن غوريون ومن تلاه من رؤساء الوزارات الاسرائيلية: "هي الاستيطان".

ويقول فيصل الحسيني: الارض والسكان هما الهدفان التوأمان للحركة الصهيونية لخلق "حقائق" يهودية على الارض الفلسطينية، ويرتكزان مباشرة على التهجير والاستيطان. والسياسة الصهيونية ما زالت تتصاعد حدتها حتى اليوم (١٩٩٧/٩/٣٠ _ جمعية الدراسات العربية). ولم تتغير طبيعة الصهيونية لا بعد قيام دولة اسرائيل (١٩٤٨) ولا بعد توسعها (١٩٦٧)، ولا بعد عقدها اتفاق اوسلو (١٩٩٣). فهذا شمعون بيريز (حينما كان وزيرا للدفاع) يقول "ان الحكومة الاسرائيلية ليست حكومة قانون فقط، بل هي حكومة استيطان أيضا" (جريدة دافار الاسرائيلية ١٩٧٥/١٢/١٢). اما الحاخام يوحنان فريد فيقول ان "الاستيطان يعلو فوق القانون لانه روح اسرائيل"(جريدة هآرتس الاسرائيلية ١٠/١٥ /١٩٧٤). ومقولة أن الاستيطان هو روح اسرائيل، وهو فوق القانون صارت اوضح ما يكون في صيف عام ٢٠١٥ في هجمة التغوّل الاستيطاني ومواجهة الشباب الفلسطيني في هبّة القدس لها في تشرين اول ٢٠١٥.

وفي اذار ١٨٩٩ ارسل يوسف الخالدي (رئيس بلدية القدس) رسالة الى تسادوق كاهن رئيس حاخامي فرنسا ناشده "باسم الله ان يَدَعوا فلسطين وشأنها"، وبادر كاهن بتحويل الرسالة الى

هيرتزل الذي اجاب الخالدي "ان الاستيطان اليهودي في فلسطين سيطور البلد ويحسّن الاوضاع، ويرفع اسعار الارض، وذلك سيكون في صالح العرب وخاصة ملاك الاراضي".

المستوطنات وسياسة الاستيطان هي المعبّر الاساسي والاصدق عن السياسة الحقيقية والبرامج المستقبلية للحركة الصهيونية وهي المعبر عن نيات اسرائيل وسياستها وبرنامجها المستتر والمعلن.

كانت المستوطنات قبل قيام الحركة الصهيونة تقع قرب المدن وفي المناطق الخصبة جداً والمجدية اقتصادياً باعتبارها بؤرا استيطانية قابلة للحياة.

وقامت الحركة الصهيونية فوضعت العامل الاقتصادي في الدرجة الثانية وتقدم العامل الاستراتيجي على طريق اقامة الدولة اليهودية، وصارت المستوطنات تقام ضمن استراتيجية تكون بموجبها قابلة للقتال او للدفاع عن نفسها حيث لا بد ان يتوفر الموقع الاستراتيجي لكل مستوطنة وتتوفر امكانية التواصل فيما بينها.

وبعد احتلال بقية فلسطين عام ١٩٦٧ وخاصة بعد ظهور بوادر سلام (بعد حرب ١٩٧٣) صارت المستوطنات تقام ضمن استراتيجية تمزيق المناطق المحتلة بقصد منع التواصل الجغرافي بين مناطق الكثافة السكانية الفلسطينية، كضربة استباقية لاساس السيادة الفلسطينية المحتملة وامكانية تقرير الفلسطينيين لمصيرهم.

وفي عام ١٩٨٤، أبلغني السفير الايطالي لدى اثيوبيا نقلاً عن تقرير للقنصل الايطالي في القدس ان سياسة اسرائيل الاستيطانية تُحَوِّل الضفة الغربية الى ما يشبه الجبنة السويسرية (او جبنة الفأر) المخَرمة بحيث يتعذر قيام دولة فلسطينية مستقلة حتى لو صار يوري افنيري (صديق ياسر عرفات) هو رئيس وزراء اسرائيل.

وفي اجتماع اللجنة الوزارية الاسرائيلية حول بناء المستوطنات في ١٩٩٥/١/٢٥ احتجّت عضوة الكنيست شولاميت آلوني على رابين قائلة "انت مثل الليكود تماما! الا ترى ان العرب يحتاجون الى مكان يعيشون فيه؟".اجاب رابين (الذي كان شريك ياسر عرفات) "انا افكر بالاسرائليين!". ورغم ذلك اغتاله احد المستوطنين الذي ما زال يُنظر له كبطل قومي.

وحينما طلب كارتر (في تموز ١٩٧٧)من بيغن وقف الاستيطان كبادرة حسن نية نحو عملية السلام، رفض بيغن وردّ بان السلام لا يحتاج اظهار حسن نوايا، بل اظهار جدية، وان مواصلة الاستيطان دون اعتراض مصري جاد يؤكد جدية عملية السلام مع مصر.. وكذلك فعل شارون وقبله نتنياهو مع بوش الابن وقبله كلينتون، وما زال نتنياهو يفعله مع اول رئيس امريكي اسود (اوباما).

وذكرت منظمة "بيتسيلم" (مركز المعلومات الاسرائيلي لحقوق الانسان) في تقريرها السنوي في ايار ٢٠٠٢ أن "العملية السياسية بين اسرائيل والفلسطينيين لم تؤثر على عملية الاستيطان، حيث استمرت عملية توسيعها حتى في عهد حكومة رابين وبيريز (١٩٩٢-١٩٩٦)، والحكومات التي اتت بعدها. حيث قامت هذه الحكومات ببناء الآف الوحدات السكنية معللة ذلك بضرورات التكاثر السكاني للمستوطنين. نتيجة لهذا، ازداد عدد المستوطنين الضعف تقريباً في الفترة ما بين١٩٩٣-٢٠٠٠."

وأكدت بيتسيلم في تقريرها أن "في غالبية الاحيان تعاونت محكمة العدل العليا مع آلية الاستيلاء على الاراضي، وساعدت بخلق رداء قانوني لهذه الاجراءات. في بادئ الامر قبلت محكمة العدل العليا ادعاء الدولة بأن الاحتياجات العسكرية الملحة سمحت للدولة بمصادرة اراض يمتلكها سكان فلسطينيون لاقامة هذه المستوطنات. ورفضت محكمة العدل العليا التدخل لمنع اجراء الاعلان عن الاراضي كاراضي دولة".

وبعد اوسلو بخمس سنوات، أي بعد انتهاء الفترة الانتقالية الافتراضية عززت اسرائيل تقطيع اوصال الضفة الغربية ووصل قِطع الاستيطان بافتتاح شبكة من الطرق الالتفافية التي التهمت مزيداً من الاراضي الفلسطينية، وتزعم اسرائيل أن الطرق الالتفافية جرى الاتفاق عليها مع الفلسطينيين في طابا ١٩٩٥/٩/٢٨، ولذلك يعتقد بيريز أنه "خوزق الفلسطينيين بهذه الاتفاقية".

وصرح أنه اعتباراً من الآن ستصادر الاراضي الفلسطينية لغرضين فقط : لأعمال البنية التحتية للمستوطنات كالماء، والمجاري، وللسماح ببناء طرق التفافية بين المستعمرات وحول مراكز السكان الفلسطينية. وأشار بيريز الى أن المفاوضين الفلسطينيين وافقوا على ذلك على اعتبار أنه الأساس الضروري لإعادة انتشار القوات الاسرائيلية في الضفة الغربية.

كانت المستوطنات وما زالت هي القاعدة القوية للحزب الحاكم في اسرائيل. فكما اعتمد حزب العمل الاسرائيلي على الكيبوتسات في فلسطين كقاعدة انطلاق لاقامة دولة اسرائيل فقد اعتمد حزب الليكود على المستوطنات في "فلسطين الصغرى" كقاعدة انطلاق لاقامة الشرق الاوسط الجديد.

ونقلت "فلسطين اون لاين" ان الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني ذكر أن عدد المستوطنين في الضفة الغربية المحتلة بلغ ٥٣٦,٩٣٢ مستوطنًا في نهاية عام ٢٠١١، مقارنة بـ ٥٢٣,٩٣٩ في نهاية عام ٢٠١٠، أي بنسبة نمو مقدارها ١,٣٪.

وقال الإحصاء في تقرير وصلت "فلسطين أون لاين" نسخة عنه، الخميس ٢-٨-٢٠١٢:" إن عدد المستوطنين في الضفة قد تضاعف أكثر من ٤٠ مرة خلال السنوات ١٩٧٢– ٢٠١١، و بلغ عدد المستوطنات

بالضفة في نهاية ٢٠١١ (١٤٤) مستوطنة، كان أكثرها في محافظة القدس بواقع ٢٦ مستوطنة، منها ١٦ تم ضمها إلى (إسرائيل)، ثم محافظة رام الله والبيرة حيث يوجد فيها ٢٤ مستوطنة.

وأوضح أن معظم المستوطنين يتركزون في محافظة القدس بنسبة حوالي ٥٠٪ من مجموع المستوطنين في الضفة بواقع ٢٦٧,٦٤٣ مستوطنًا، يلي ذلك محافظة رام الله والبيرة بواقع ١٠٠,٥٠١ مستوطناً، و٥٩,٤١٤ مستوطناً في محافظة بيت لحم، و٣٤,٩٤٦ في محافظة سلفيت، في حين أن أقل المحافظات من حيث عدد المستوطنين هي محافظة طوباس بواقع ١,٤٨٩ مستوطنًا.

أما الإستيطان في القدس فيتم باتجاه فرض واقعين: الأول جعل العرب فيها أقلية لا تتجاوز ٢٦ ٪ (كنسبة العرب في اسرائيل عموما)، والثاني تداخل العرب واليهود بما يجعل من المستحيل تقسيمها. وقد قال شارون في أواسط عام ١٩٩٢ "لقد وضعنا لأنفسنا هدفاً ألا نترك حياً واحداً في القدس الشرقية بلا يهود، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يضمن مدينة موحدة تحت السيادة الاسرائيلية.

كما أنه وفقاً لبيانات من المكتب المركزي للإحصاء الإسرائيلي، والتي تم الحصول عليها من قبل صحيفة "كالكاليست" الاقتصادية الإسرائيلية، أكدت أن الإنفاق على المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية كان ١,١ مليار شيكل أي ١٦٠ مليون جنيه إسترليني في عام ٢٠١١، بينما ارتفع ٠,٨ مليار في العامين السابقين، مشيرة إلى أن الميزانية العامة للدولة ارتفعت بنسبة ٢,٧٪ عام ٢٠١١.

ومن الجدير بالملاحظة ان اسرائيل تعتبر كل خطوة نحو التسوية (بغض النظر عن الحزب الحاكم فيها وبغض النظر ايضا عن المقابل الفلسطيني) فرصة لمزيد من نهب الاراضي الفلسطينية وتعزيز الاستيطان عليها.

فقد بدأت موجة الاستيطان الأولى الجادة خارج مدينة القدس في عام ١٩٧٤ أي بعد أن أعلن السادات باسم العرب أن حرب رمضان (١٩٧٣) هي آخر الحروب، وازالت منظمة التحرير الفلسطينية لافتة الخيانة عن بوابة التسوية وفتحتها، وإن كان بشكل موارب، فاعلنت برنامجها المرحلي المسمى بالنقاط العشر في حزيران ١٩٧٤.

وبدأت الموجة الثانية من الاستيطان في بداية عام ١٩٧٨، بعد أن فتح السادات بوابة التسوية على مصراعيها بزيارته للقدس ١٩٧٧/١١/١٩ م. وزادت المنظمة بوابتها للتسوية اتساعاً عندما أكدت لأول مرة في تاريخها على أهمية العلاقة والتنسيق مع القوى اليهودية الديمقراطية والتقدمية المناضلة داخل الوطن المحتل وخارجه وذلك في النقطة ١٤ من برنامج المنظمة السياسي الذي أقرته جلسة المجلس الوطني الفلسطيني الثالث عشر في ٧٧/٣/٢٢.

ففي عام ١٩٧٧ كان عدد المستوطنين باستثناء القدس ٤٤٠٠ مستوطن وفي عام مبادرة السادات ومفاوضاته (١٩٧٨) تضاعف العدد تقريباً ٧٣٦١. وعندما بدأت المفاوضات العربية في مدريد عام ١٩٩٠ كان عددهم ٧٦ ألفاً، وبنجاح المفاوضات وقيام الحكم الذاتي الفلسطيني عام ١٩٩٥ تضاعف عددهم ليصل ١٤٥ ألفاً.

بعد توقيع أوسلو بشهرين فقط، أي في تشرين ثاني ١٩٩٣ هُزم تيدي كوليك لصالح ايهود اولمرت الليكودي المتشدد في الانتخابات الإسرائيلية لبلدية القدس.

واتفاقيات أوسلو، وإن أوقفت حلم اسرائيل الكبرى (من النيل إلى الفرات)، إلا أنها لم تُضعف وضع المستوطنات. كتب يوسي بيلين (نائب وزير الخارجية وأهم مُخرجي أوسلو) يوم ١٩٩٥/٩/٢٨ في صحيفة معاريف أن الحالة في المستعمرات لم تكن في يوم من الأيام أفضل من تلك التي نشأت بعد اتفاق أوسلو -٢(اتفاق طابا ١٩٩٥/٩/٢٨) حيث تأخر الاتفاق شهوراً عدة للتأكد من أن المستعمرات كافة ستبقى سليمة كما هي، وأن المستوطنين سيتمتعون باقصى درجات الأمن، وقد استدعى هذا الأمر استثماراً مالياً طائلاً.

وقد اعتبر جيفري آرونسون، بحسب اتفاق طابا هذا، أن منظمة التحرير الفلسطينية تدير مناطق في الضفة الغربية بموجب عقد مع اسرائيل التي تبقى صاحبة السيادة الفعلية على هذه المناطق، وصارت لاتفاقيات أوسلو السيادة والولاية على السلطة الفلسطينية. لأن أي نشاط فلسطيني رسمي محكوم باتفاقيات أوسلو، فقد جاءت مسودة الدستور الفلسطيني مرتبكة ومشوشة خاصة في مسائل الحدود والجنسية واللاجئين. فجاء في المادة الأولى " فلسطين دولة مستقلة ذات سيادة، نظامها جمهوري، واقليمها وحدة لا تتجزأ بحدودها في الرابع من حزيران / يونيو ١٩٦٧..." وجاء في المادة ١٢ الجنسية الفلسطينية ينظمها القانون دون المساس بحق كل من اكتسبها قبل الخامس عشر من أيار ١٩٤٨ وفقاً للقانون، أو بحق الفلسطيني الذي كان يقيم في فلسطين قبل ذلك التاريخ وهُجّر أو نزح منها أو مُنع من العودة اليها، وينتقل هذا الحق من الأباء والأمهات إلى ذريتهم ولا يزول أو يسقط إلا بالتخلي طواعية على الوجه المبين في القانون".

وجاء في المادة ١٣ " للفلسطيني الذي هُجّر من فلسطين أو نُزّح عنها نتيجة لحرب ١٩٤٨ ومُنع من العودة اليها حق العودة إلى الدولة الفلسطينية وحمل جنسيتها، وهو حق دائم لايسقط بالتقادم. تعمل الدولة الفلسطينية على متابعة السعي لتنفيذ الحق المشروع للاجئين الفلسطينيين في العودة لديارهم والتعويض من خلال المفاوضات والسبل السياسية والقضائية وفقاً لقرار الأمم المتحدة ١٩٤ لسنة ١٩٤٨ ولمبادئ القانون الدولي".

وهنا تثور المسائل التالية :

أ- إن المادة ١٢ تلزم السلطة الفلسطينية دستورياً بمنح الجنسية الفلسطينية لكل اليهود الذين كانوا يحملونها قبل ١٩٤٨/٥/١٥ ولذريتهم كذلك. وعدد هؤلاء يفوق عدد المستوطنين الموجودين حالياً شرق الخط الأخضر بمن فيهم المستوطنون حول القدس.

ب- عندما تشير هذه المادة إلى حق الفلسطيني الذي كان يقيم في"فلسطين" قبل ذلك التاريخ، فأي فلسطين تعني المادة ؟ هل هي فلسطين المحدودة دستورياً أي بحدود الرابع من حزيران ١٩٦٧ أم هي ما كانت عليه قبل ١٩٤٨/٥/١٥ ؟

ج- تستطيع السلطة أن تمنح حق العودة لمن تشاء إلى الأرض التي تسيطر عليها، ويمكن لدستورها أن ينص على ذلك. ولكن كيف يجوز للدستور أن ينص على مساعي هذه السلطة لتأمين عودة مواطنيها لأخذ جنسية دولة أخرى ؟

د- مفهوم، بل ومتوقع، أن تقع لجنة الدستور في حيرة من أمرها. ومن الطبيعي أن تنعكس هذه الحيرة في نصوص الدستور. فمن المؤكد أن اللجنة أخذت بعين الاعتبار أوضاع اللاجئين في الدول المضيفة المختلفة ومواقف كل دولة. وتلك المواقف متباينة وأحياناً متناقضة. فالموقف اللبناني يتلخص بالاسراع ما أمكن بالترحيل الكامل والشمولي لكل الفلسطينيين من لبنان، أما الموقف الأردني فيتركز على عدم التدخل في الشؤون الداخلية لكل اللاجئين الذين يحملون الجنسية الأردنية وهم نصف السكان تقريباً.

أوراق عربية

العلم الحديث والتقدم من التفاؤل الكبير إلى الكارثة

د. فيصل دراج*

١ ـ بطولة العلم الحديث المدمّرة

كتبت الإنجليزية ماري شلي، عام ١٨١٦ روايتها: فرانكنشتاين، أو بروميثيوس الحديث، التي ترجمت طموحاً علمياً حديثاً، تتوّجُه الكارثة. كان في الرواية ما يضيء التصوّر الروائي للعالم، حيث السائر إلى "مفازة" ينتهي إلى مهلكة، وقاصد السعادة يحصد بؤساً لم يتوقعه.

أعطت شلي عدة أعمال روائية، وبقي "فرانكنشتاين"، عملها الروائي الذي صاغته وهي في الثامنة عشرة من عمرها، الأكثر شهرة وقيمة أدبية في آن. فالكاتبة، التي عايشت الشاعرين الرومانسيين بايرون وشلي، تذكّر في مقدمة روايتها، بأعمال أدبية كبيرة: الالياذة لهوميروس، العاصفة وحلم ليلة صيف لشكسبير والفردوس المفقود لميلتون. قصدت المؤلفة من الإشارة الأدبية إلى وضع عملها في إطار أدبي معترف به، ذلك أن في موضوعه ما يستدعي الأطياف والكوابيس والغموض الموجع الذي يستحوذ على الطبيعة الإنسانية. وبغية تبعيد ما يوحي "بأدب الأشباح"، أدرجت شلي، في مقدمتها، تعبير "المعتقد الفلسفي"، معلنة، بقصد أو من غيره، أنها تقرأ جوهر العالم الحديث وتساجله، أو أنها تصوغه، روائياً، وتنقده.

التقطت شلي فكرة روايتها، كما تقول، من حوار بين الشاعرين (بايرون وشلي)، موضوعه "عقائد فلسفية متنوعة" تمس، "طبيعة المبدأ الحيوي"، المتصلة بالمواد التي تحتضن بذرة الحياة. ولم تنسَ أن تستدعي اسم إيراسموس دارون، الطبيب والفيلسوف التنويري الذي قام بتجارب غايتها توليد الحياة من مواد لا حياة فيها، اعتماداً على وسائل كيميائية ـ فيزيائية. بل أن إرادتها في تحديد "الزمن العلمي" لروايتها هو الذي حملها على وضع اسم "الدكتور دارون" في السطور الأولى لمقدمتها، معطية عملها تسويغه العلمي الضروري.

---

* كاتب وناقد من فلسطين

أحالت الرواية على "مجال عام"، يتعيّن بالفلسفة والعلوم، وعلى مجال "خاص" قوامه الإبداع الأدبي، الذي يحتضن عالم الإنسان، الذي تخترقه العواطف والمشاعر والرغبات. ولم يكن هذان المجالان إلا مرآة لمجالها العائلي، الذي يتضمن الأبوين وزوجها الشاعر الشهير: بيرسي شلي. انتسب والدها "وليم جودوين" إلى التنوير الإنجليزي الذي انجذب إلى الثورة الفرنسية، وهو مؤلف كتاب عنوانه "بحث في العدالة السياسية"، أحد المراجع الكبيرة في الفلسفة السياسية الإنجليزية، والمؤسس الأول للفوضوية الفلسفية، إضافة إلى كونه روائياً، وضع عملاً عنوانه "كالب وليمز" ـ Caleb Williams ـ ١٧٩٤ هو رواية سياسية ترجم فهيا مبادئ "العدالة السياسية". ولم يكن حال الأم ماري ويلستونكرافت مختلفاً ، فهي أحد الأسماء الكبرى التي دافعت عن حقوق المرأة، ووضعت كتاباً عنها، وأرادت بدورها أن تعطي أفكارها شكلاً روائياً.

تفسّر عائلة شلي الأبعاد الثقافية المدرجة في رواية "فرانكنشتاين"، بقدر ما تضيء وضعها الاجتماعي، وهي المنتمية إلى برجوازية نهاية القرن الثامن عشر، في أبعادها السياسية التي تفصح عن التمرد والميل إلى الثورة.

وإذا كان في مناقب الأبوين ما وسم ابنتهما ثقافياً وسياسياً، فإن زوجها شلي وطد البعدين ووسّع آفاقهما. فهذا الشاعر، كما الرومانسي الآخر كيتس، كان قريباً من الأوساط السياسية الراديكالية الرافضة للنظام القائم ما دفعه إلى خيار المنفى، في جنيف ، وهو ما فعله شاعر متمرد آخر هو اللورد بايرون. وعلى هذا، فإن الوسط الثقافي المباشر، كما اضطرابات المجتمع التي تحيط به، أسهم في توليد "رائعة" ماري شيلي، وهي في التاسعة عشرة من عمرها، التي قصّرت عنها في رواياتها الخمسة الأخرى. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن سريعاً: لماذا أبدعت المؤلفة في عملها الأول وقصّرت عمّا بدأت به بعد تقدم تجربتها الكتابية؟ لا وجود لجواب "مكتمل"، وإن كانت الإجابة المحتملة تأتي من المعيش المباشر، فقد عرفت عن قرب الموضوع العلمي الذي ترجمته روائياً، وعايشت نخبة ثقافية ـ سياسية أسعفتها في كتابته، وتأملت زمناً مضطرباً وقريباً من الثورة الفرنسية، التي جذبت الرومانسيين الإنجليز وفتنتهم أيضاً.

يتلامح المناخ الروحي الذي كتبت فيه شلي روايتها في مستهل الفصل الخامس: "تأملتُ عملي، بعد إنجازه، في ليلة كئيبة من شهر كانون الأول"، أما الفصول الأربعة السابقة فسردها فيكتور فرانكنشتاين، العالم الذي "خلق" وحشاً لم يستطع السيطرة عليه، في انتظار الفصل الحادي عشر، حيث يأتي صوت الوحش شاكياً حياة موحشة، تفتقر إلى المودة والألفة. يتقاطع في النص الروائي أصوات ثلاثة: صوت "الخالق" الذي أسس لحكاية جديدة، وصوت المخلوق المشتكي الذي سأل "خالقه" حياة أكثر دفئاً أو أقل برودة، وصوت الروائية الشامل، الذي يضبط دلالة "حكاية حديثة" مسكونة بالمفارقة، ظاهرها "علم سعيد"، يكتشف ويركب ويبتكر، وداخلها إخفاق يخترقه الرعب. لم تكن المفارقة بعيدة عن أجواء

الرومانسيين الإنجليز، الذين أرعبهم عنف الثورة الفرنسية وفتنهم في آن، كما لو كانت الثورة بدورها "علماً طموحاً"، يبتكر مخلوقات غير مسبوقة، ويلقي بها في عزلة باردة لا تحتمل.

أضاء النص الروائي "عقيدة "العلم"، التي اعتنقها فيكتور فرانكنشتاين، بأشكال مختلفة: فقد زار المناطق التي تتمتع جامعاتها بهيبة علمية في (l'Ecosse)، بعيداً عن جامعات إنجليزية سيئة السمعة، مثل اكسفورد وكيمبردج، وبحث عن أمكنة ملائمة لتصنيع :"عرق من الوحوش"، تحدد المخابر صفاته ومزاياه، والتقى بالجغرافي "والتون"، المكتشف القطبي، الذي ألمّ بأطراف كثيرة من حكاية فرانكنشتاين و"حزنه"، حالماً ببناء "جماعة علمية"، تعيد تشكيل "أوروبا عصر التنوير".

عبّرت شخصية فرانكنشتاين عن عالم هزمه المخلوق الذي أنجزه، وعن روح علمية أوروبية صاعدة، جعلت من العلم "ديناً جديداً"، يستكشف آفاق الإبداع الإنساني، كما زوايا الكرة الأرضية كلها، ويؤمن بأن الاكتشاف لا حدود له، وأن المجهول قابل للهزيمة. لا غرابة أن يقرأ فرانكنشتاين على ضوء أسطورة "فاوست"، الذي باع روحه للشيطان كي يحصل على ما يريد، وأن يبدو معادلاً حديثاً لأسطورة بروميثيوس، الذي سرق نار الآلهة كي يضيء سبل البشر. لكنه، في الحالين، امتداد لأساطير "الخلق" المحتشدة بالغطرسة والزهو، التي تنفتح دائماً على كارثة.

يصرخ المخلوق الذي جاء به العالم الحديث في وجه خالقه: "لكل إنسان زوجة من نصيبه، ولكل دابة عائلتها، بيما أنا أبقى وحيداً؟...، تستطيع تدمير عواطفي الأخرى، لكنني سأحتفظ بالانتقام، هذا الانتقام الذي هو أعزّ على قلبي، من الآن فصاعداً، من الضوء أو الغذاء، ....، سأتحلّى بمكر الثعبان وأركن إلى السم الزعاف الذي سألسع به..". شيء قريب من مخلوق مظلوم هرب من "جهنم" وهيّأ نفسه للانتقام من "خالقه"، ترجمه الوحش بقتل زوجة العالم المتغطرس يوم الزفاف.

ولعل مآل العالِم، الذي انتقم منه مخلوقه الصناعي، هو الذي يضع في نص شلي، المعنون: "فرانكنشتاين، أو برميثيوس الحديث"، التباساً واضحاً، أو يعطي فسحة لتأويل مشتق من الأزمنة الحديثة، التي وعدت بخلاص إنساني غير مسبوق. فنص ماري شلي عابق بالتشاؤم وبرائحة الموت، ذلك أن فيكتور الذي يساوي افتراضياً بروميثيوس القديم، جبار متغطرس يحمل مساره "حِداده"، وهو الذي استولد الشر والتعاسة معتقداً أنه يستولد النور والعدالة. ولذا يبدو "مخلوقه" معادلاً للطائر الكاسر الذي كان يلحق العذاب الأليم "ببروميثيوس"، ولوباء مستطير يضرب البشرية كلها، بعيداً عن "نار مقدسة" تعطي الإنسان حياة جديدة.

تمرّد بروميثيوس على آلهة ظالمة، احتكرت النار، وتمرد "الوحش" على "إله حديث مزعوم" كرس معارفه لتوليد الآلام. تقاسم الطرفان "فضيلة التمرد" لأغراض متباينة، فالأول قاتل من أجل احتكار المعرفة الصالحة، بينما قاتل الثاني احتكار معرفة شريرة. توزع الطرفان الشقاء وتشاطرا، عدم الخنوع أيضاً. في

مقابل النص المتشائم الذي صاغته "ماري"، قدم زوجها الشاعر شلي نصاً متفائلاً، ـ ١٨١٨ ـ ١٨١٩ ـ عنوانه: "بروميثيوس طليقاً"، بلغة لويس عوض، حيث تعود الأسطورة مع بطل مأساوي، يوحّد بين التمرد والتحرّر. قصد النص إظهار الأسباب التي قادت البطل إلى التمرد على عالم يحكمه السديم، لا يعود سويّاً إلا بفعل يحرّره من السيطرة الظالمة التي تشوّهّه.

تأخذ أسطورة بروميثيوس، في التصورين السابقين، شكلين متناقضين مرجعهما السعادة أو الشقاء. بيد أن التحرر من مرجعية البطل القديم، يمكن أن يفضي إلى تصوّر جديد مشتق من زمن الثورة العلمية الحديثة، حيث فرانكنشتاين لا يحتاج إلى سلف قديم، فهو خلق جاء به العلم الحديث، ووضع فيه تناقضاً بين الأب والابن، إذ الأول يهجس بحضارة جديدة، وإذ الثاني، الذي سقط في مآل حزين، يرغب بإلغاء ذاته وخالقه والحضارة التي سمحت بوجوده. يتراءى حل التناقض في عودة الطرفين إلى ما كانا عليه، التي تفترض تخلي "العالم الحديث" عن غطرسته، وترك "ابنه العلمي" إمكانية مجردة، لا ضرورة لتحققها. يستدعي حل التناقض إضاءة الفرق بين الطبيعة والمجتمع، فالأولى لها قوانينها الموضوعية التي لا تغتصب ما يخصّها خلافاً لمجتمع إنساني يخترقه العنف، ويدرج عنفه في البحث العلمي وتطبيقاته. في حدود الطبيعة يتوارث الأبناء مواقع آبائهم، وتستمر عملية الإنجاب مفتوحة، من دون عسف كبير.

بدأ العلم للفكر النهضوي الأوروبي خالقاً لوجود شفاف، لا عتمة فيه ولا غموض، ومبدعاً لإنسان شامل يتحكم بوجوده ولا يتحكم وجوده به، حاذفاً من "تاريخ الإنسان" اغتراباً سحيق الأزمنة. هجست ماري شلي، في روايتها، بهذا الاغتراب، الذي لا تمكن هزيمته، وأخبرت أن ما بدا وعداً كبيراً للقائلين "بدين العلم"، تكشّف وعيداً متعدد الجهات. يحاور فرانكنشتاين ذاته فيقول: "ما أنا إذن؟ إنني أجهل كل شيء عن خلقي، وعن خالقي، لكنني أعلم أنه لا نقود عندي وأنني بلا أصدقاء، ولا أي شي يمت إلى الملكية بصلة وعندي، من ناحية ثانية، قامة مشوّهة بشكل مريع وكريه، وليس عندي ما له علاقة بطبيعة البشر، .....، . وحين أنظر حولي ، لا أرى ولا أسمع أحداً يتحدث عن مخلوقات تشبهني. فهل أنا، إذن، وحش، لطخة فوق سطح الأرض، يتحاشاها جميع البشر ويستنكرون وجودها؟".

يقول الوحش "ما أنا" لا "من أنا"، فهو مبعد عن النظر الذي يتبادله البشر، وهو "موضوع" ـ شيء ـ تحتاجه التجربة العلمية وعليه أن يلتحف باختلافه الحزين ، المسيّج بعزلة باردة، تفرض عليه أن يعرف البشر، ولا يكون منهم.

٢ ـ اغتراب المخلوق المصطنع

الكائن المخلوق الذي قال "العلم النهضوي" بإمكانية وجوده، منقسم، تستضيفه حكاية تتسع للأشباح

و"الأشياء" المتحركة، وله مكان في الواقع ينكره البشر. يتيح الانقسام للوحش أن "يعرف"، وان يتعلّم الكلام، وأن يبدو في بعض الأحيان فصيحاً. وواقع الأمر، أن ماري شلي ساجلت الفضاء الثقافي النهضوي. ارتكنت إلى دعاوى الدكتور دارون وعلماء آخرين، وأوعزت إلى بطل روايتها أن يستولد "مادة حيّة" من مواد غير حيّة. لكنها ما لبثت أن واجهت الادعاءات النهضوية، القائلة بكون لا اغتراب فيه، بمخلوق يتاخم اغترابه السعير. بل أنها طبقت على "وحشها" نظرية الإنجليزي لوك في التعلم واللغة، التي اعتبرت "الوليد" صفحة بيضاء، يمكن أن تسطّر عليها التجربة ما تشاء، عن طريق الإحساس أولا، والتفكير تالياً. لذا يمر الوحش بتجارب متنوعة، قبل أن يتعلم "التفكير"، وينجذب إلى ضوء القمر.

أدرجت شلي في روايتها خطاباً فلسفياً، يعترف بقوة العلم وينقضها، وبفلسفة "لوك" التجريبية وينقدها. فإذا كان "الوليد" قادراً، عن طريق الإحساس والتفكير، أن يصبح كائناً اجتماعياً، فلماذا بقي فرانكنشتاين غريباً واحتضن نزوعاً "شريراً" يستيقظ بين فترة وأخرى؟ تصدر الإجابة عن "فراغات" الفكر النهضوي، الذي ساوى بين الفكرة المجردة وتطبيقها العملي، وقد يأتي من طبيعة المجتمع، التي تعلم اللغة والشر معاً. فالوحش يقول: "جعلني هذا أفكرْ" و"أنا أفترض"، دون أن تستطيع قدراته على التفكير والافتراض، أو أن تجعله جزءاً من المجتمع، وأن تحرّره من عزلته الباردة فهو يذهب إلى الشر مدفوعاً بتعاسته، لا بسبب شر يسكنه.

يصاحب الوحش وجوداً مزدوجاً: الوجود النظري المرتبط بالعلم النهضوي، الذي يعيّن "المخلوق العلمي" كائناً سوّياً، يفكر ويتكلم ، يفترض ويتمتع بجمالية القمر، والوجود العملي الذي يدفعه إلى تدمير ذاته وتدمير العالم الذي "خلقه". والمتهم هنا ليس المجتمع فقط، الذي يقوم على أسس "العقد الاجتماعي"، الذي اقترحه جان جاك روسو، بل هي تلك "العقلانية الصارمة" التي قال بها النهضويون ، أو بعضهم، التي مزجت بين دين العقل ودين العلم، وهما دينا القرن الثامن عشر، اللذان زعما أن الإنسان ذاهب إلى "كماله"، وأن التجربة كفيلة باجتثاث "رذائله" المحتملة.

نسيت العقلانية الصارمة، في ما نسيته، عوالم الأحاسيس والشعور والعواطف، فقد انصرف العالم فيكتور فرانكنشتاين إلى تصنيع مخلوق قادر على الحركة، دون أن يعني بتناسبه الجمالي ومتطلبات روحه، كما لو كان العلم يلتغي بالمنتوج ويضع "أمور الروح" جانباً. حين يتأسى الوحش، الذي ودّ أن يكون مخلوقاً كغيره، يقول: "ها أنذا وحيد على الأرض، بلا أخ، ولا قريب، ولا صديق، ولا مجتمع لي إلا أنا..". والواضح في الشكوى رغبة الوحش في العيش مع البشر، وفي الانتماء إلى مجتمع يكون منه ومعه، وفي الوجود مع عائلة. ربما كانت شلي، في إشاراتها إلى العائلة ودفء الاجتماع، تنقد والدها "جود دين"، العقلاني الإنجليزي الذي لا يقترب من العواطف، والفيلسوف جان جاك روسو في كتابه التربوي "إميل "، حيث الأخير "وحش" آخر، يعيش وحيداً"، بعيداً عن نظرائه.

لا إنسان يعيش مكتفياً بعقله، فوراء العقل، أو إلى جانبه، صور العائلة والعيش الاجتماعي المشترك ورغبة التناسل والإنجاب. سأل الوحش، بإصرار كبير، خالقه أن يعطيه "صحبة"، وأن يسمح له ببناء عائلة. كان الخالق العلمي، رمزياً،أباه، أنجبه ولم يشأ أن " يعترف" به، فمنع عنه الاسم، ولم يحتمل فكرة أن يكون له ذرية، تذكرّه "بخطئه، أو بنسل مشوّه لا يريد أن ينسب إليه. فمن المفترض، "عقلانياً"، أن الإنسان يسير إلى كماله ولو بعد زمن، على خلاف الوحش، الذي بدأ ناقصاً، وتابع حياته سائراً من نقص إلى آخر.

تقرأ رواية ماري شيلي بمقولة عن الأنوار الطاغية: "الخلق العلمي"، الذي حايثته فلسفة تقول بالإنسان الشامل، الذي هو خالق وجميل وبصير في آن. كان ديكارت، فارس الأزمنة الحديثة، كما يقال، قد هجس بحيوانات ـ آلات، تسيّر ذاتها بذاتها، ويسيّرها العالم الذي خلقها، الحالم بالإنسان ـ الآلة، الذي يستغني خلقه عن الإله، ويعظم الإنسان ويقرّبه من الإله. نظر العالم "لامتري" إلى العلم وإمكانياته ووضع كتاب ":الإنسان ـ الآلة" عام ١٧٤٨، الذي عالج "الحلم الطريف" ورسم تفاصيله مؤكداً أن "الجسم الإنساني آلة تدير ذاتها بذاتها". غير أن "رومانسية الأنوار" سقطت في الماء، لأن "العالم الخالق" لم يسيطر على مخلوقه، قبل الخلق وبعده، فجاء مشوّهاً وقتل "خالقه".

لا تتضمن رواية فرانكنشتاين آثاراً دينيه، تركت "الله في مكانه"، ولم تتوقف أمام المواد التي صنع منها فيكتور مخلوقه العجيب. مع ذك فإن فيها ما يواجه خطاب العلم بخطاب الدين، اعتماداً على فكرة " الخلق" التي أوكلها "التنوير" إلى فرضياته العلمية. فديكارت الذي حلم بآلة إنسانية دقيقة تضبطها القوانين، كان مؤمناً وأراد أن يبرهن عن وجود الله بمعادلات رياضية. لم يمنعه إيمانه عن تحويل الله إلى فكرة مجردة، وتفويض الإنسان بخلق ما يريد، استناداً إلى "علوم خالقة"، كالفيزياء والرياضيات والكيمياء. عثر في العلم على ضمان مزدوج: ضمن الأول منهما وجود الله بمنطق رياضي، وضمن ثانيهما "الإنسان الخالق" بمنطق العلوم الحديثة.

نقضت شلي الخطاب العلمي، الممتلئ بالغطرسة، بخطاب ديني مغاير آيته الإنسان السوي، قائلة بقوة العلم وخيبته، حتى لو كان العالم مخلصاً لعلمه وغاياته. وصفت انصراف فيكتور إلى علم الكيمياء والبيولوجيا وتحوّله، لاحقاً، إلى علم الكهرباء الذي، احتاجه صنع مخلوق غريب وصعد في مطلع القرن التاسع عشر. أراد العالم أن يكون ابن زمانه، فتأمل تشارلز دارون في كتابه "أصل الأنواع"، وأوغل في دراسة الكهرباء، واطمأن إلى "صناعة بشرية" قادمة؛ لها آفاق واسعة، لا تكف عن التجدّد.

يتسم الخلق الإلهي بالثبات، فالله كامل ولا يشبهه أحد، والكامل لا يتغير، والإنسان المخلوق ثابت، فقد خلقه الله "على أحسن تكوين"، وينصاع إلى الأمر الإلهي: كن فيكون. على خلاف ذلك، فإن للخلق، في

حقله العلمي، مآل آخر، فلا ثبات في قدرات العلم، ولا في التراكم العلمي الذي يلجأ إليه، ولا ثبات في مواصفات "المنتوج العلمي"، الخاضع أبداً لمعطيات التجربة العلمية، التي تحتمل الصواب والخطأ. في مقابل اليقين الديني، يتراءى قلق العالم واضطرابه، الذي قد يقوده إلى الموت.

يهمش الخلق العلمي، المتكئ على سيرورة علمية مفتوحة، الخالق والمخلوق، بل أن في أخطاء العلم المحتملة وما يهدمهما، على مسافة من "الخلق الإلهي"، الذي يُعطي دفعة واحدة.

٣ ـ من الفردوس الأرضي إلى رواية الخيال العلمي:

وضع الإيطالي أ. بارتلمت جاماتي كتاباً نشره عام ١٩٦٦ عنوانه "الفردوس الأرضي وملحمة عصر النهضة"، استهله بالسطور التالية: "الرغبة بحال لا تنقصها الراحة الكاملة، كما الحياة الأبدية، لازمت البشرية دائماً، وعبّر الشعراء عن هذا الحلم منذ الأزل". ما يلفت النظر في الكتاب، الذي يبدأ فصله الأول "بالحدائق والجنان"، ويغلق فصله السادس بدراسة طويلة عن ميلتون والفردوس المفقود، ماثل في عنوانه، الذي عطف الفردوس على الأرض، موحياً بإمكانية عيش سعيد "كامل" لا يحتاج إلى السماء. تضمن الكتاب نصوصاً من الأساطير والفكر الديني و"الفكر النهضوي" أيضاً، الذي واجه الناقص القائم بكامل محتمل، وأفصح عنه بالأشعار والحكايات ورغبات ملتبسة لا سبيل إلى تحقيقها، ذلك أن في "الأراضي " ما يجعل الفردوس مستحيلاً، أو يصيّره، بلغة أكثر وضوحاً "فردوساً مفقوداً".

درس الإيطالي جاماتي "الفردوس" داخل الأدب، مقارناً بين مجموعة من النصوص، ومقتفياً آثار تقليد أدبي أوروبي، جاء من اليونان ووصل إلى الأزمنة الحديثة. لم يقارب التاريخ وعلم الاجتماع، ولا إمكانية وجود الحلم أو استحالته، منجزاً دراسة اكاديمية لامعة عن روح الإنسان التي تخشى الفناء، وترى "الديمومة" في حدائق تطرد أطياف الموت بعيداً.

رسم الإنجليزي توماس مور (١٤٧٨ – ١٥٣٥)، الذي كان موظفاً في السلطة، مكاناً مرغوباً آخر، دعاه "يوتوبيا"، أي اللامكان، وقارب ملامحه برحلة متخيّلة، لا تفصل تماماً بين الواقعي والمتخيّل، ذلك أن في المتخيل واقعاً حرّر من نواقصه. بدا العلم بداية لغيره، أخذ بكلمة استولدها مؤلفه وحيداً، وحمل آثار سياق تاريخي لامس التقدم، ومزج بين المعروف والمجهول وأبقى "جزيرة الحلم" ظاهرة جديدة. يدل عنوان الحلم على جدته: "عن حالة البشر في أحسن أحوالها، وجزيرة اليوتوبيا الجديدة، كتاب صغير ثمين، مفيد بقدر ما هو ممتع". والمحصلة حكاية عاقلة ومتعقلة، تسائل السياسة وأحوال الناس وتستعير أساطير أفلاطونية، وتحاور قضايا عصرها برحلة متخيلة لا تنقصها السخرية . كتب مور على غلاف كتابه: "هذا هو الكتاب الفائق الشهرة للعالم توماس مور، المواطن في لندن ونائب شريف المدينة". استبعد

التوقيع من العمل كل إدعاء "غير جاد"، وكل زعم بأن ما فيه مختلق ولا علاقة له "بالواقعية".

وضع المؤلف في جزيرته، التي لا وجود لها، رحّالة، يصفها ويتحدث عن وقائعها، ويسرد النظام الذي يحكمها ويقيم مع المؤلف حواراً متصلاً، كما لو كان مور يقترح مدينة فاضلة، ولا يقدّم صورة نهائية عنها، ذلك أن الرحالة يقبل ويرفض، ويكون في قوله ورفضه حراً. تبدو المدينة قضية تنتظر حلاً لم تبلغه بعد، ما يدعها قابلة للتطبيق وغير قابلة له في آن، وقابلة للمقارنة بحالات اجتماعية قائمة فعلاً، لأن الرحالة اجتاز انجلترا، قبل أن يعرف "بيوتوبيا". لذا يقول حين يعلم أن سكان "المدينة" ليسوا مجبرين على العمل: "كيف يمكن تأمين الغذاء الضروري، حين يستطيع أي إنسان أن يتهرب من العمل، فلا أحد ترهقه الحاجة، وكل فرد يمكنه أن يستسلم إلى الكسل معتمداً على كدح غيره". يرسم مور نظام العمل في الجزيرة من وجهة نظر قارئه، قبل أن يعهد إلى "الرحالة"، الذي عاش في الجزيرة وعرف عاداتها وتقاليدها مدة خمس سنوات ، بتقديم إجابة عن محاسن المدينة، وقوانين حكمها الراشدة التي لا تنافسها أية قواينن معروفة: "وفضائلها كثيرة ومتنوعة، قاعات الطعام المنظمة، والتعاطف الجماعي،، والأمان والاختيار الجماعي الحر، وتنظيم دور العائلة ورعايته، وتوازن العلاقة بين الريف والمدينة،... وخصائص أخرى تمثّل وجوه الحضارة اليوتوبية"، بلغة بيير ماشريه، الذي كتب متأملاً كتاب مور:

"تحقق الحضارة اليوتوبية توازناً عادلاً بين النظام والحركة، وبين تعددية الشروط وتكامل المساواة في الحقوق والواجبات، ما يتيح لكل فرد أن يكون في خدمة الجميع، وذلك في سياق لا يسمح للمنفعة الخاصة أن تسيطر أبداً".

لا تعود "طوباوية" اليوتوبيا، بالمعنى الفعلي للكلمة، إلى انحرافها عن الطبيعة، وانسياقها إلى نسق من المبادئ، اقترحها مور، وغيره، إنما يعود، على نقيض ذلك، إلى العودة إلى الطبيعة ذاتها، التي هي صالحة في ذاتها، ولا تحتاج إلى حذف وإضافته، فلا وجود ليوتوبيا إلا في شكل "طبيعي"، يؤكد عدالة الطبيعة وصلاحها.

لن يكون مآل "اليوتوبيا"، الرامية إلى سلام شامل للجميع، مختلفاً عن مآل "العلم الديكارتي"، الذي حلم بسيطرة "الإنسان العلمي" على الطبيعة والعلم كله. مآلان قابعان في كهف سري، حراسّه لا ينامون مدعومين بالحرب والجوع والاستبداد والكراهية المتبادلة بين أجناس بشرية متعددة، كما لو كانت الطبيعة الإنسانية تتحقق سلباً، ولا تقصد السعادة إلا في أيام قليلة. ولعل إخفاق الرغبات الإنسانية، التي تنشد التحقق المتوازن، هو الذي نقل اليوتوبيا التقليدية، الممتدة من أفلاطون إلى سان سيمون، إلى مجال كتاب جديد عنوانه: رواية الخيال العلمي"، التي هي ليست خيالية تماماً، فالعلم الذي تنتسب إليه يقترح ويقارن ويتطور ويتوقع، وله آثار تدل على صحته.

اتخذت رواية الخيال العلمي من مفهوم: الإزاحة، مرجعاً أساسياً لها، أكان ذلك على صعيد المكان، كأن يذهب جول فيرن إلى مكان جديد في روايته "عشرون ألف ميل تحت البحر"، أو أن يذهب ج.هـ. ويلز إلى المستقبل في روايته "آلة الزمن". اعتمدت الإزاحة على تقنية: "الرحلة"، التي تقود الإنسان من مكان إلى غيره، أو من زمان إلى زمان لا فرق إن كان في الماضي أو في المستقبل، بل أن في طبيعة الخيال العلمي، الواثق من التقنيات التي يتكئ عليها، أن يتحرر من ثنائية المكان/الزمان، وأن يستدعي ما شاء من الأمكنة والأزمنة، باحثاً عن شكل جديد من "اليوتوبيا"، يسيطر الإنسان فيه على المكان/الزمان، ولا يسيطران عليه.

تقرأ رواية الخيال العلمي، نسبياً، في ثلاثة مجازات: الرحلة، التي تتضمن الحركة والانتقال، و"الجزيرة"، التي هي فضاء مغاير، فيه ما لا يوجد في غيره، حال "جزيرة الدكتور مورو" لويلز، التي عالجت، بدورها،" الخلق الشرير" والتصرّف القاتل بالعلم وبإمكانياته. يتمثّل المجاز الثالث بخلق فضاء مكاني ـ زماني محض، يشبه ذاته ولا يشبهه غيره، ذلك أنه "قائم" في المستقبل، ولم يَره أحد، حالة رواية "سولارس"للبولوني ستانسلاف ليم"، و"آلة الزمن" لويلز. ومهما تكن المجازات المحتملة، فإن في هذه الرواية بعدين متلازمين: بعد معرفي، فلولا الكشوف العلمية لما كتب ويلز روايته "حرب العوالم"، ولما هجس لام بكتابة رواية عن غزو الفضاء. والبعد الآخر، وهو لا يقل أهمية عن الأول، إن لم يكن أكثر ضرورة وهو: العنصر الجمالي، فما يميّز رواية الخيال العلمي ليست فكرتها، بل صوغ عناصرها جمالياً، بدءاً من "السارد العجائبي"، الذي هو واقعي يسرد ما يوجد في "واقع مغاير"، انتهاء باللغة، التي هي نثر أدبي يوسع مجاله المنظور العلمي.

يمثل الإنجليزي ج.هـ. ويلز "جنس رواية الخيال العلمي" كتابة ومنظوراً، كتبها باستفاضة، وأنتج معها تصوراً للعلم، لن يعارض الذي أخذت به ماري شلي، رغم اختلاف زمنيهما. فقد أعطى معظم أعماله في فترة متقدمة من القرن العشرين (بدايات القرن العشرين). اعترف بالتقدم العلمي وردّ عليه متوسلاً، في رواياته اكتشافات علمية زائفة، أملت بنية روائية، رأت إلى عالم غريب، لا يبشّر بخير. أشار ويلز الغريب إلى مكان وزمان بعيدين عن العالم الهادئ الموروث عن العصر الفيكتوري، المبرئ من الأوهام العلمية، التي لا ترضي أحداً. وما هوخطر في هذا "العلم الغريب" آثاره في المستقبل، التي يتراءى فيها رعب قديم، آياته: الخوف من الظلام، الوحوش المخيفة، العمالقة والغيلان، والحشرات الكاسحة التي يصدم وجودها الطبيعة الأليفة، ولا تأتلف مع توقعات التطور الداروينى.

بدا العلم، في رواية ويلز، سيداً لجميع الأبالسة، يحمل دماراً واسعاً ورعباً غيرمتوقع، ويأتي بمخلوقات معقدة لاعواطف لها تخرّب الكون. يقول ويلز في مقالته "إعادة اكتشاف الفريد"، المنشورة عام ١٨١٩: "العلم عود ثقاب أشعله إنسان حال العثور عليه. اعتقد أنه كان في غرفة، في حالة خشوع وعبادة، في

معبد ـ وأن ضوءه سينعكس على الجدران ويكشف عنها، ...، لكنه رأى بعد ذلك أن الظلام ظل قائماً"، لم يضيء العلم الجدران التي وعد بإضاءتها، تحدث ويلز عن ذاته وهو يحكي قصة عود الثقاب، معتبراً أن التطور الإنساني سؤال مفتوح له إجابتان محتملتان، تقول إحداهما بمستقبل منير وثانيهما مستقبل مظلم، والأول منهما غالب للثاني. والإجابتان من حيث هما، لا تحملان كثيراً من الأهمية، ذلك أن في التطور التقني، الذي جاءت به الثورتان العلمية والتقنية، نقطة عمياء، تمنع النور المنشود، ولا يمكن للإنسان أن يسيطر عليها. حمل ويلز تناقضاته ولم يجد لها مخرجاً، اعترف بإمكانيات العلم وهو يتأملها في روايات كثيرة، ولم يتوقع منها خيراً كثيراً وتوقع "حرب العوالم"، التي أعطاها نهاية مفزعة، وتنبأ فيها بمصائب الحرب القادمة، ـ ١٩٣٩-١٩٤٦ ـ حيث الرعب والملاجئ واللاجئون، والحرب الجرثومية، ...

تعامل الفرنسي جول فيرن مع عالم إنساني أقرب إلى الإنسجام، يسير بعيداً إلى مستقبل يضمنه علم "تقدمي" ثابت في تطورّه، فوزع "التقنيات" على قاع البحر ومركز الأرض والعالم الخارجي والجزر المجهولة، وعهد بها إلى إنسان منتصر في جميع الاتجاهات. وتعامل ويلز مع ما تعامل به وبقي "مأزوماً"، يؤمن بتقدم العلم ولا يقتنع بتقدم الإنسان. تحقق، تاريخياً، ما توقعه العالمان، لكنه تحقق "ويلزياً"، حيث وحش فرانكنشتاين قادر على إعطاب بروميثيوس، لا فرق إن كان مقيداً أو طليقاً.

تتراءى في رواية الخيال العلمي إرادة إنسانية مجتهدة ذاهبة، برضا كبير، إلى كارثة غير متوقعة، تترجم، ولو بقدر، اللقاء الذي لا يتحقق بين بروميثيوس وفرانكنشتاين.

إشارات:

1- M.Shelley: Frankenstein.or the modern Prometheus, Chicago, the university of Chicago press, 1974.

2 - J-jack lecercle: Frankenstein: my the et philosophie, p.u.f. 1988.

3 - DARK Suvin: Metamorphose of Science fiction. Yale university press 1975.

4- Pierre Macherey: de l'utopie, de l'incidence Editeur, Paris, 2011.

عبد السلام بوعزة الجزائري من حركة الشّباب العربي في لبنان إلى جمعية تحرير المغرب العربي*

د. مصطفى نويصر**
جامعة أبو القاسم سعد الله

عبد السلام بوعزة الجزائري، هو واحد من آلاف الشّباب الذين هاجر أجدادهم أو أباؤهم من الجزائر، إلى ديار المشرق العربي بعد الاحتلال الفرنسي لبلادهم، وأصبحت لهم مكانة مهمّة في البلدان والمناطق التي استقرّوا فيها، سواء على الصّعيد الفكري أو السّياسي أو الإجتماعي، وتبوّأ الكثير منهم مناصب ريادية في معظم الأقطار التي نزلوا فيها منذ القرن التاسع عشر.

وهذه الورقة المتواضعة تحاول أن تسلّط الضّوء على هذا الرّجل الذي أصبحت له مكانة عظيمة في المشرق العربي بصفة عامة والدّيار الشّاميّة بصفة خاصة.

أمّا المغاربة والجزائريون على وجه الخصوص فلا يعرفون عنه شيئاً رغم الأدوار التي قام بها إبّان فترة الكفاح الوطني لصالح قضيّة بلاده، إنطلاقا من مقرّ إقامته في بيروت.

باختصار أقول:

عبد السلام بوعزة من مواليد مدينة بيروت، سنة ١٩٠٧، من أب جزائري وأمّ لبنانية، يعرف بـ"**الجزائري**" نسبة إلى بلده الأصلي (الجزائر).

---

* - مداخلة ألقيت في ملتقى: «دور ومساهمة الجزائريّين في حركة التّحرّر العربي خلال القرنين التّاسع عشر والعشرين»، المنعقد يومي ١٩ و٢٠ أفريل ٢٠١٥، الذي نظّمه المركز الوطني للبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أوّل نوفمبر ١٩٥٤م.

** باحث وأكاديمي من فلسطين

طفولته كانت شديدة الصّعوبة نظرا لفقدان الأم والأب في عمر مبكّر.

ترك المدرسة في السّنة الرابعة الابتدائية لصعوبة المعيشة بسبب اليتم، حيث تزامن كلّ ذلك مع اندلاع الحرب العالمية الأولى.

اشتغل في مستودعات درويش حداد، وكان غير مستقر في عمله بسبب الحرب العالمية الأولى.

انخرط عبد السلام منذ شبابه في العمل السّياسي الذي كان يعرفه لبنان ابتداءً من ثلاثينات القرن الماضي، فكيف كان هذا النّشاط؟

الانخراط في النّضال الوطني لمقاومة الانتداب والصهيونيّة

بدأ عبد السّلام نشاطه السّياسي سنة ١٩٣٦ عندما قام مع اثنين من أصدقائه هما **محمود سلام والحاج عثمان الحبّال** بتأسيس حركة شبّانيّة "**سرّية**" لمناهضة الانتداب الفرنسي في لبنان وسوريا. أطلقوا عليها اسم **حركة الشّباب العربي في لبنان**. وفي هذا الإطار يقول **محمود سلام** في مذكّراته التي نشرها سنة ١٩٩٢ عن هذه الحركة وخلفية تأسيسها ما يلي:

"... وفكّرت مع عدد من أصدقائي المخلصين سلك طريق المقاومة والعنف لمقاومته- يقصد الانتداب الفرنسي لبلاده- مختارا أفضل اثنين منهما لهذا الغرض، وهما: "**الحاج عثمان الحبّال**" والسّيد "**عبد السّلام الجزائري**"، واخترنا اسما لمنظّمتنا ألا وهو "**الشّباب العربي في لبنان**". قمنا ببعض الأعمال الدّفاعية السّريّة من أجل مناصرة بلادنا وكلّ بلد عربيّ واقع تحت الاحتلال خصوصا الفرنسي والانكليزي والإسرائيلي، وكلّ احتلال يسيء لأمّتنا العربيّة بوحي من ضميرنا دون غيره؛ وأولينا "**قضيّة فلسطين**" أهمّية قصوى لأنّ الشّعبين الآخرين كانا يبغيان إستعمارها وجلاء سكّانها عن أراضيهم، فالدّفاع عن هذه الأراضي المقدّسة التي هي أولى القبلتين وثالث الحرمين الشّريفين، يعتبر واجب كلّ مسلم لدفع الأذى عنها بكلّ ما يملك. لذلك صمّمنا العمل على نصرتها وعدم تقبّل أيّ عون مادّي كي لا نكون عبيداً لمن يقدّمه لنا، بل كنّا أسياد مصيرنا وقرّرنا عدم البوح بمقرّراتنا إلاّ لبعض الزّعماء الذين نثق بهم وتربطنا بهم صداقات مخلصة أمثال: سماحة "**المفتي الحاج أمين الحسيني**" وسماحة مفتي بيروت الشّيخ "**توفيق خالد**"، والزّعيم "**رياض الصلح**" والرّئيس "**صائب سلام**"، وآخرين من المخلصين المسيحيّين خصوصا المرحوم "**قسطنطين يني...**" وكنّا نشاروهم ونستفيد من تجاربهم وأخذ العبر منهم كي لا نقع في أمور مغايرة عن أهدافنا".(أنظر مذكّرات محمود سلام).

إذن، ساهم بوعزة وهو في ريعان شبابه من خلال هذه الحركة في مجمل النّضال الوطني الذي كانت تقوم به الشّخصيّات والأحزاب الوطنيّة الاستقلاليّة في كلّ من سوريا ولبنان. ذلك أنّ "**جذوة النّضال هذه المتوقّدة فيه- كما يقول عنه صديقه صائب سلام- دفعته إلى الانخراط في صفوف المجاهدين الأحرار في سبيل وطنه الثّاني لبنان وعروبته الأصيلة. وهذا ما كان يستمدّه عبد السّلام من جذوره الجزائريّة، ومن أصالة عائلته التي عانت الظّلم والاستبداد، فارتحلت في أواخر القرن الماضي (القرن التاسع عشر) إلى بيروت، حيث انتفض عبد السّلام ليستعيد مجد تلك العائلة ويعيد إلى أهله وإخوته الثّقة بأنفسهم**".

وقد تزامن هذا النّشاط الوطني في لبنان مع اندلاع الثّورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦م، التى شكّلت أحد محاور نضالات عبد السلام الجزائري ورفاقه في أوّل عهدهم بالعمل كفريق واحد، واستمرّت معه سنين طويلة.

توطّدت علاقة بوعزة بالقضيّة الفلسطينية أكثر بعد لجوء **الحاج أمين الحسيني** إلى بيروت، وأصبح اسم بوعزة الجزائري متداولا عند المجاهدين الفلسطينيين الوافدين إلى بيروت في شأن من شؤون الثّورة، ويقول محمد مصطفى عيتاني في هذا الصّدد: "**لقد كان عبد السّلام يمنع اللّقمة عن فمه ليقدّمها للمجاهدين الأبطال الذين كانوا يتردّدون عليه في بيروت سرّا وعلانية للاستنارة والاسترشاد بآرائه، وهذا بشهادة معظمهم...**".

وعزّز هذه العلاقة أنّ **حركة الشّباب العربي** راحت بين الحين والآخر تستحصل على بعض قطع السّلاح من الجنود المغاربة في الجيش الفرنسي وإرسالها إلى المجاهدين في أرض المعركة بفلسطين.

اعتقل عبد السّلام سنة ١٩٣٧ من قبل سلطات الانتداب بسبب دوره ونشاطه في دعم الثّورة الفلسطينيّة المشتعلة في كامل تراب فلسطين.

ومن الأنشطة والمواقف النّضالية لحركة الشّباب العربي في لبنان أيضا معارضتها قرار فصل لواء الاسكندرون وضمّه إلى تركيا، حيث رفعت الحركة عديد العرائض إلى الجهات المعنية بالأمر.

فضلا عن ذلك ساهم بوعزة الجزائري مع صديقه عماد منح الصلح بتشكيل لجنة شعبية لمقاطعة مؤسسات الانتداب الفرنسي في لبنان، و لضمان نجاحها و استمرارها شكلت لها لجان فرعية في معظم أحياء بيروت. (**أنظر عمر زين، من ذاكرة بيروت ص. ١٢١.**)

عبد السّلام بوعزّة والانفتاح على حركات التّحرّر في المغرب العربي

بعد الحرب العالميّة الثّانية، وتحديدا منذ سنة ١٩٤٥ بدأ عبد السلام بوعزة يوسّع من دائرة نشاطه النّضالي، فبعد أن كان مقتصرا في البداية على مقاومة الانتداب الفرنسي في لبنان، ودعم الثّورة الفلسطينية، أصبح منذ هذا التاريخ مهتمّا بقضايا التّحرير في المغرب العربي حيث قام بتأسيس (**جمعية تحرير المغرب العربي في لبنان**) وتولّى بنفسه رئاستها وإدارة شؤونها، فيما أسندت إلى الشّيخ **محمد العربي العزوزي** الرّئاسة الفخرية، وأمانة السّر العامة إلى الأستاذ **أحمد بديع المغربي المحرثي**، وأمانة السّر إلى الأستاذ **زهير السعداوي**.

وقد انضافت هذه الجمعية إلى جمعيات أخرى سبقتها في السّاحة السورية، مثل **جمعية مجاهدي شمال إفريقيا**، **وجمعية مهاجري شمال إفريقيا**، **وجمعية الدّفاع عن إفريقيا العربية**، فضلا عن **مكتب المغرب العربي** الذي أعاد بعثه في دمشق المناضل **يوسف الرويسي** سنة ١٩٤٦م.

لكن عبد السلام لم يُرِدْ لجمعيته أن تكون مجرّد هيئة تصدر بيانات التّنديد، ولا ارتضى لنفسه أن يكون التزامه بقضايا المغرب العربي شرفيّاً فقط. ففي إحدى رسائله إلى الشّيخ الإبراهيمي الذي كانت تربطه به صداقة قوية، كتب يقول: "**... سيّدي وأستاذي إذا كنا نرى من واجبنا أن نثني على طلاب الإستقلال، ونقوم بذلك في المناسبات، فكيف يكون واجبنا نحو الذين يبنون ذلك الاستقلال؟ لا شكّ أنّنا ننزل بكرامتنا وعقولنا إلى دَرك السّذاجة، إذ لم ندرك الفرق بين من يطلب الاستقلال ومن يبني الاستقلال؟**".

عبد السلام بوعزة وعبد الكريم الخطابي

توجّه عبد السّلام إلى القاهرة لمقابلة عبد الكريم الخطابي حاملا تجربته المتواضعة في معارك الاستقلال الوطني اللّبناني، كما حمل معه مشروع جمعيته، ووضعها أمام الأمير عبد الكريم، واعتبر نفسه منذ ذلك اللّقاء واحدا من جنوده المخلصين، وأصبح عبد السّلام واحدا من الشّباب الذين أولاهم الخطابي ثقته الكاملة، وعول عليهم كثيرا في تحقيق مشروعه التّحرّري على مستوى المشرق العربي والسّاحة اللّبنانيّة على وجه الخصوص.

ومن مظاهر هذه الثّقة قيامه بإرسال رسالة إلى رئيس الجمهورية اللّبنانية الشّيخ بشارة الخوري في الأول من نيسان سنة ١٩٤٨، يوصيه خيرا بعبد السّلام، وممّا جاء فيها:

"**حضرة صاحب الفخامة الشّيخ بشارة خليل الخوري**

رئيس جمهورية لبنان الموقّر الأفخم حفِظَهُ الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبَعْدُ، فيسُرُّنا أن نرسل تحيّاتنا لشخص فخامتكم مع حاملِ كاملِ ثقتنا رئيس جمعية تحرير المغرب العربي في لبنان الأستاذ عبد السلام بوعزّة الجزائري، الذي يكُنُّ لفخامتكم وللبنان كلَّ محبة واحترام، وقد حدّثَنا عن مآثركم الكثيرة والطيّبة، فوق ما هو معروف عنكم ومشهور لكم من مواقف فخر واعتزاز لقضايا العرب، وعن تلطُّفِكُم وعطفِكُم على جمعيّته الفَتيَّة، وعلى شخصه والمغاربة، ما جعلنا نردّد آيات الشّكر، ونسجّل الثّناء العاطر لفخامتكم ولحكومتكم الموقّرة.

ولنا كبير الأمل في أنّ فخامتكم ستشملون هذه الجمعية ورئيسَها بمزيد من العطف والتّشجيع، وأنّ رعايتكم السّامية ستكون حافزاً لإبراز حيويّتها.

ولا يَسَعُني إلاّ أن أنوِّه لفخامتكم بما يقوم به رئيس الجمعية من نشاط مشكور في خدمة قضيّة المغرب العربي على الصّعيد اللّبناني، ممّا جعلنا نعتمد عليه في جميع الشّؤون المتعلّقة بقضايانا لدى فخامتكم".

ويُؤكّد الأمير عبد الكريم هذه الثّقة في رسالة مماثلة إلى رئيس الوزراء اللّبناني رياض الصلح حيث جاء فيها:

"حضرة الأخ المجاهد العربي الكريم

دولة الزّعيم رياض بك الصلح المحترم حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعدُ، فقد تسلّمتُ تحريرَكم الكريم مع الأستاذ عبد السّلام بوعزّة الجزائري، رئيس جمعية تحرير المغرب العربي في لبنان. وإنّني أشكركم لأخوَّتِكُم عطفكم وصداقتكم ونضالكم على شخصه وعلى قضيّة المغرب، لا أستغرب ذلك من مجاهد في سبيل قضايا العرب منذ نعومة أظفاره، ولم يزل في طليعة العاملين المخلصين لتحرير كلّ قطر عربي من الشّرق إلى الغرب.

وقد نقل لنا الأستاذ عبد السّلام أخباركم وتشجيعكم وعطفكم، وهو كما نوَّهتُم بتحريركم، أهلٌ لكلِّ ما تشملونه به من رعاية. أمّا حديثه عن نضالكم للمغرب فلم يكن بالشيء الجديد، لأنّ وَجْهَكم ليس غريبًا في المغرب، فهو معروف بالدّفاع عنه، وكان له نصيب في جهادكم الماضي، كذلك إن شاء الله في المستقبل. وفّقنا الله وإيّاكم لتحرير المغرب العربي ورفْعِ هذا الكابوس عن إخوانكم، فيكون لكم الفضل في النّتائج، كما كان لكم في الأوائل.

وإنّ الأستاذ عبد السّلام يحمل إليكم مع تحيّاتنا ثقتَنا متأمّلين أن تمنحوه ثقتكم، فقد اعتمدنا عليه في جميع الشّؤون المتعلّقة بقضايانا عندكم".

وعندما قام الأمير عبد الكريم في أوائل سنة ١٩٤٨ بتأسيس لجنة **تحرير المغرب العربي**، رأى عبد السلام في هذه المبادرة بارقة أمل أخرى فكتب له رسالة يوم ٢٩ ديسمبر ١٩٤٨ جاء فيها:

"مولايَ صاحبَ السُّموِّ الأمير عبد الكريم الخطابي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

وبعدُ، فإنَّ جمعيةَ تحرير المغرب العربي في لبنان، إذ تحيّي في سمُوّكُم رمز النّضال وعنوان الجهاد، لتبتَهِلُ إلى الله ان يكْلأَكم بعين رعايته، ويحقّقَ على أيديكم جمعَ شتاتِ الأقطار المغربية وتوحيدَ كلمتها، حتّى تتمتّع بسيادتها الكاملة، وتخفُقَ فوق روابيها راياتها القومية.

مولاي السمو الملَكي،

عندما أتيح لي شرف تأليف هذه الجمعية مع فئة كريمة من إخواني المجاهدين المخلصين، كان شخصُكم الكريم خيرَ حافز لي على الاضطلاع بهذه المهمّة الشّاقة، فقلت في نفسي: ها إن الأسد قد عاد إلى عرينه، ومَن هو أوْلى من مولاي عبد الكريم المجاهد الصّامت والعربي الأمين بتطهير المغرب العربي من سرطان الاستعمار الوبيل؟

يمينًا إنّنا لم نتمالك أنفسنا من البكاء فرحًا وعزّة حين تلقّينا من مكتب المغرب العربي في القاهرة بيانكم الكريم، بل صيْحَتكم الدّاوية منادين أبناء المغرب العربي بصوتٍ عامرٍ بالإيمان وقلبٍ مفعمٍ بالرّجاء:

لقد دقّت ساعة العمل، بل ساعةُ الجهاد، فهُبّوا يا أبنائي معي على تحرير الجناح الأيسر من دنيانا العربية.

إنّ جمعية تحرير المغرب العربي في لبنان، إذ تعتزُّ بالانضمام إلى لجنة تحرير المغرب العربي في القاهرة تحت لوائكم، لتُجدِّدُ لسُموِّكُم العهدَ أن تكون أمينةً لمبادئِكُم وفيّة لأهدافكم. إنّ العهد كان مسؤولا".

ولم يكتف عبد السّلام بالتّأييد والمباركة بل ذهب أبعد من ذلك، حيث ساهم في وضع تصوّر شامل للجنة، تمثّلت في **ورقة عمل** قدّمها إلى الأمير عبد الكريم في ٢٧ مارس ١٩٤٨، ورأى فيها أنّ قضيّة المغرب العربي تمرّ بمرحلة تكوين جديدة، وتحتاج إلى شرطين رئيسيين لإعادة بعثها من جديد:

الأوّل- وحدة الصّف المغربي:

وصف عبدُ السلام النّضالَ في ورقته التي قدّمها للأمير عبد الكريم بأنّه "**كالبحر يتّسع للجميع، كلّ**

حسب قُدرتِه ومعرفته ونشاطه" وشدّد على رفع شعار **وحدة الكلمة** في هذه المرحلة، والعمل بشتّى الوسائل لمنع الخروج على مبادئ هذه الوحدة وتجنَّبَ التّشهير والحزبية المتطرّفَة.

الثاني- الدّعاية والإعلام:

في هذه المسألة، يُثبِتُ عبد السلام أنّهُ كان يقرأ جيّدًا مُعطيات الواقع وتطوّراته، في السّاحتين العربية والعالمية، مُستوعِبًا ما للإعلام والدّعاية من فعالية وتأثير. لهذا اقترح نوعين من الإعلام: واحد موجّه إلى الأقطار المغربية، وآخرَ عربيًّا وعالميًّا.

وتتجلّى واقعيّتُه في الدّعوة إلى أن تتولّى الدعايةَ في كلّ قطر عربي جمعيةٌ مغربية مستقلّة، تؤلّفُ من أبناء المغرب العربي الذين يسكنون ذلك القطر، على أن يكونوا محايدين ليكتسِبوا ثقة أحزاب القُطر وقادته جميعًا، وأحبَّ أن تضمَّ الجمعية مواطنين كأعضاء شرف، شرط أن يكونوا مستقلّين.

وكان ينطلق، في هذا التّصور، من تجربة جمعيته التي أنشأها في لبنان، حيث نجح في تحويلها إلى صوت يحظى بالعطف والتّأييد من معظم الفئات والأحزاب اللّبنانية، بما فيها الأصوات المعارضة للتّوجُّهات العربية والمتعاطفة مع الاحتلال الفرنسي للجزائر.

يشير عبد السلام للدّلالة على صحّة رأيه، إلى ما تشهده المنطقة العربية من تضارُبٍ في المصالح بين القوى الكبرى (**فرنسا وأمريكا وبريطانيا وروسيا**)، داعياً اللّجنة إلى الاستفادة من هذا التّضارب، مشدّدا في الوقت نفسه على مبدأ الحياد وعدم الدخول طرفًا في الصّراعات الدّولية، ومحاولةِ الاستفادة من الجميع، إذ يقول: «**أرى أن تتبَعَ اللّجنةُ سياسةً دوليةً، تستغلّ بها الملابسات والظّروف الدّولية، ولا يتسنّى لنا ذلك إلاّ بجمع المعلومات عن ظروف كلّ دولة، ومبلغ قوّتها أو ضَعْفِها، وسياسةِ رجالاتها وأحزابها وارتباطاتها الدّولية وعلاقاتها الخارجية، وما تهدف إليه سياستُها العامة والخاصة في البلاد العربية والعالم. كما يجب أن نعرفَ حقَّ المعرفة ماهيّةَ مصالِحها عندنا ونوْعَها، وهل هي المصالحُ نفسُها التي للدّول الأخرى، بهدف خلقِ التّزاحم بين هذه الدّولِ واستغلالِه لمصلحتنا، من دون التّقيُّد بالتزامات تسيء إلينا، إذ أنّ هذا السّلاح في نظري لا يقلّ أهميّةً عن سلاح التّحرّر في المعارك، على أن تناط هذه الأعمال برجال مُخلِصين، بإشراف وتوجيه من اللّجنة المركزية. ومن الضّروري أن نتظاهر بالاختلاف (كقوى مغربية) عند المباحثات معها، وأن نكون في الواقع متضامنين ومتفاهِمين**».

عبد السلام بوعزّة موحّدا:

في أواخر الأربعينات قام عبد السلام بخطوة وحدوية مهمّة تمثّلت في مسعاه لتوحيد جهود جمعيته في لبنان مع جهود **جمعية الدّفاع عن إفريقيا الشّمالية** في دمشق، حيث أصبح يتنقّل باستمرار

بين بيروت ودمشق ثمّ القاهرة، حاملا إليها ما استطاعت الجمعية أن يَجمعه من مساعدات لدعم مكتب المغرب العربي في القاهرة.

كما اتّجهَ رهانُ عبد السلام وجمعيته إلى ما يمكن أن تقدّمه جامعة الدّول العربية من مساعدة، وذلك من خلال عديد المذكرات التي كانت ترفعها الجمعية إلى مجلس الجامعة في دورات انعقاده. ففي أوّل مذكّرة على سبيل المثال، ناشدت الجمعيّة مجلس الجامعة العربيّة تعيينَ ممثّلينَ قنصليينَ للأقطار المغربية وفتح مصارف في الجزائر ومراكش وتونس.

كما لم تخْفَ عن عبد السلام خطورةُ "**سياسة الفرنسة**" التي كانت تتعرّض لها أقطار المغرب العربي، وخاصّة القطر الجزائري، لهذا كان من بين مطالب الجمعية المِلحَّة أن تحتضن الدولُ العربيةُ المستقلّة الطلاّبَ المَغارِبَة وتوفّرَ لهم التّعليم على حسابها، وتساعد الأفراد والمؤسّسات العاملة على إحياء اللّغة العربية ونَشْرِها في المغرب العربي، وإنشاء مؤسّساتٍ ثقافية في مدنِه أُسوَةً بما تقوم به فرنسا في هذه الأقطار.

وحين عقد مجلس الجامعة العربية دورته في بيروت، كانت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتّحدة على أعتاب عقد جلسة لتقرير مصير المستعمرات الإيطالية في إفريقيا. فتضمّنتْ مذكّرةُ **جمعية تحرير المغرب العربي في لبنان** إلى الأمين العام لجامعة الدّول العربية عبد الرحمن عزام باشا هذا النّداء:

"**آن الأوانُ لإثارة قضية المغرب العربي في هذه الدّورة التي تعقدها الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتّحدة، وذلك لمناسبة محاولة (الكبار) تصفيةً المستعمرات الإيطاليةً في إفريقيا، قبل أن يفوتنا القطار، فنصبح نرى أنفُسنا ذات يومٍ أمام واقعٍ، لا قِبَلَ لنا على دفعِه أو تجنّبِ أخطاره**".

وَسَّعَت **جمعية تحرير المغرب العربي** دائرةَ نشاطها لإيصال صوت أبناء المغرب العربي، وما يتعرّضون له من إرهاب وقمع على أيدي سلطات الاحتلال الفرنسي، إلى كلّ جهة مسؤولة، فاتّجهت إلى البعثات الدّبلوماسية في بيروت، ولا سيما التي تمثّل الدّول الكبرى، وأرسلت إليها عديد الرّسائل والمذكّرات لفضح الممارسات الفرنسية العنصريّة...

ومن اللاّفت أنّ الجمعية أحاطت بأدقّ التّفاصيل عن تطوّر الأوضاع في الجزائر ومراكش وتونس، وتعاملت مع أبسطِ الأحداث بمثل تعامُلِها مع أخطرها، كما يتبيّن من هذه البرقية الموجّهة في ١٦ شباط ١٩٤٨ إلى إمام جامع باريس قدور بن غبريط، وجاء فيها: "**جمعية تحرير المغرب العربي في لبنان ترى في ظهوركم في صورة واحدة مع الجنرال غوان، عدوّ مراكش والمغرب، أمرًا يتنافى مع جوهر عملكم بوصفكم إمامًا للجامع، ومسيئا لسُمعتكم وحْدكم في العالم العربي**".

عبد السّلام في ركاب معارك التّحرير المغاربيّة

مع انطلاقة الثّورة المسلّحة في الجزائر، سنة ١٩٥٤ خشيت فرنسا أن يتوحّد الكفاح المسلّح في البلدان الثلاثة، لذا سارعت إلى انتهاج سياسة المراوغة وراحت تقوم بالمناورات لإخماد الثّورة التي أصبحت مشتعلة في كلّ الأقطار المغربيّة عن طريق تفريق الصّفوف، وبدأت ذلك من تونس حين أعلن رئيس الحكومة الفرنسية منديس فرانس في ٣١ تموز ١٩٥٤ عن رغبة حكومته في إنهاء الحماية الفرنسية على تونس والاعتراف باستقلالها في النّطاق الفرنسي.

ولكسب الوقت، راحت فرنسا تطيل أَمَدَ المفاوضات، التي استمرّت تسعة أشهر تقريباً، تمسّكت خلالها بمشروع اتّفاقيّاتٍ لا تمنحُ تونسَ أيَّ نوع من الاستقلال الفعلي. وحدثَتِ المفاجأة عندما استدعَى رئيسُ الوزراء الفرنسي إدجار فور رئيسَ الحزب الحُرّ الدّستوري التّونسي الحبيب بورقيبة، إلى باريس، وألزمه بقبول العرض الفرنسي لاستقلال تونس وبقائها في الفلك الفرنسي.

وكانت الصّدمةُ كبيرةً في الأقطار المغربية وخاصّة عندما انقلب بورقيبة على أمين عام حزبه **صالح بن يوسف** الذي رفض هذه الاتّفاقيّة وقاد المعارضة ضدّها. وتحت الضّغط الفرنسي جرت محاولةُ القبض على **صالح بن يوسف**، الذي لجأ إلى الخارج ليقود منه حركة المعارضة، في الوقت الذي بدأت فيه خطواتُ ضرْبِ **جيش التّحرير التّونسي** وتصْفيتِه ومنعه من التّواصل مع جيشي التّحرير في المغرب والجزائر.

ولم يغب بوعزّة وجمعيته عن المعركة التي خاضها صالح بن يوسف حيال توجّهات بورقيبة في تصفية الثّورة المسلّحة التّونسية ومهادنة الفرنسيين. ومن اللاّفت أنّ عبد السّلام كان يشكُّ في صدق نيّات بورقيبة منذ أوائل الخمسينات، كما تدلّ على ذلك رسائلُ تبادَلها مع **مكتب المغرب العربي** في القاهرة، وجاءت الأحداث في تونس لتؤكّد هذه الشّكوك، ولتدفع بن يوسف إلى محاولة تطويق تراجعات بورقيبة، عن طريق الحصول على دعم خارجي لموقفه الرّافض للاتّفاقيات. وكانت السّاحة اللّبنانية إحدى السّاحات الرّئيسية التي توجّه إليها، للحصول على هذا الدّعم والمساندة.

ففي صيف عام ١٩٥٥ كان لبنان يشهد حدثين: الأوّل على صعيد المجلس النّيابي، حيث كانت اللّجنة البرلمانية للشّؤون الخارجية في برلمانات سوريا ولبنان والعراق والأردن. والثاني على المستوى الطّلابي، إذ كانت الاستعدادات تجري لعقد مؤتمر للطّلبة العرب في بيروت.

الأمر الذي جعل صالح بن يوسف يراسل عبد السّلام يوم ١٤ أوت ١٩٥٥، كي يسعى لدى اللّجنة النّيابيّة لإدراج الموقف في تونس على جدول أعمال الاجتماع، ولكي تَضمَنَ له فُرصة الحديث أمام المجتمعين. يقول في الرّسالة: **"هي فُرصة جدُّ مفيدة، لو أتمكّن من إسماع صوتِ تونسَ الحقيقيِّ**

لأعضاء تلك اللّجان مجتمعين، وألْفتُ أنظارَهم إلى ما يبيّتُ لتونسنا العربية من نيّة فَصْلِها عن الأمّة العربية، بموجب الاتّفاقيات الأخيرة (...) فرجائي أن تتّصل من الآن برئيس اللّجنة الدّاعية في بيروت، وبوزير الخارجية حميد فرنجية (...) ومن الممكن أن يُحاطَ هذا المسعى بالكِتْمان حتى يوم الاجتماع، ويقوم بعرض طلبي الرئيس الدّاعي، ويدعم اقتراحه بما لَقيته من مساعدات في أثناء رحلتي في آسيا".

و قبل هذا التّاريخ كانت **جمعية تحرير المغرب العربي في لبنان** قد أعلنت موقفها من هذه الاتّفاقيات، حين أصدرت بيانًا عارضت فيه هذه الاتفاقيات واعتبرتها ضربة قاصمة لوحدة النّضال في المغرب العربي.

وقد ردّ السّيد صالح بن يوسف على هذا البيان برسالة إلى السّيد عبد السّلام بوعزة مؤرّخة يوم ١٣ تموز سنة ١٩٥٥، جاء فيها: «**حمدًا وصلاةً وسلامًا،**

عزيزي الفاضل والوطني الصّميم عبد السّلام بوعزّة الجزائري حفظه الله، وبَعْدُ،

يُسعدُني أن أتقدَّمَ لكم بشكري الجزيل على تلبيتكم لطلبي الذي كلفت بتبليغه لكم أخَ الجميع يوسف الرّوسي، وهو الإبراق بألفي ليرة لبنانية إلى الوطني الأخ حسين التّريكي بالأرجنتين، حيث يقوم بدعاية جدّ مفيدة لقضيّة مغربنا العربي (...) بارك الله فيكم وجزاكم الله عن مغربنا المُجاهد أوفَرَ الجزاء.

أخي العزيز: لا زلت أتذكّرُ حديثنا بالرّيجانت أوتيل، حيث كنّا مجتمعين به وبأخينا يوسف الرويسي. فالأحداث التي تجري بتونس ما زادتنا إلاّ تمسّكا بعقيدتنا الوطنية العربية الخالصة من كلّ دنسٍ فرنسي وغربي، وإنّي واثق من أنّنا سنخلّص بلادنا من الهاوية التي أوْقعنا فيها أولئك الذين يئسوا من رحمة الله، ولا ييأسُ من رحمته إلاّ القوم الكافرون».

كما وضعت **جمعيةُ تحرير المغرب العربي** في لبنان كامل طاقاتها للدّفاع عن القضية المرّاكشية وخاصة بعد قيام السّلطات الفرنسية بنفي السّلطان محمد الخامس في العشرين من آب (أوت) ١٩٥٣، حيث وقفت الجمعية إلى جانب محمد الخامس.

وقفت الجمعية إلى جانب محمد الخامس في محنته، واستطاع عبد السّلام أن يستفيد من الموقع المميَّز للبنانَ وصِلاتِه وصداقاته، ليوظّفَها في حملة إعلامية قويّة، وبتضافُر الجهود العربية أثمرت هذه الحملة إطلاقَ سراحِ **محمّد الخامس** وعودتَه إلى بلاده.

عبد السّلام بوعزّة الجزائري والثّورة الجزائريّة

عندما قامت الثّورة في الجزائر في الأوّل من نوفمبر سنة ١٩٥٤، رأى عبد السّلام أنّ الفرصة قد سنحتْ له لكي يقدّم كلَّ شيء، فكرّس وقتَه وبيتَهُ وطاقاتِه الفكرِيّة والمادّيّة كلّها، وشبكة علاقاته بالرّسميّين والزّعماء اللّبنانيّين، لخدمة الثّورة التّحريريّة في بلد آبائه وأجداده.

وفي القاهرة كان لعبد السّلام أوّل لقاء مع عدد من قادة الثّورة العاملين في الخارج. وكانت البداية مع **محمد خيضر وأحمد بن بلاّ** أو "**مزياني مسعود**"، (قُدّم إليه بهذا الاسم)، بوصْفِه المسؤولَ عن إدارة الشّؤون الخارجيّة للثّورة. ثمّ توسّعت الدّائرة لمعظم قادة الثّورة.

وتولّى عبدُ السلام المهمّات المنوطة به، فيما يخصّ السّاحة اللّبنانيةّ، وأصبح يقوم برحلاتٍ دوريّة إلى القاهرة، لكي يلتقي بمسؤولي الثّورة وقادة حزبَي **الاستقلال المراكشي والحرِّ الدّستوري التونسي**. وجمعت الهمومُ المشتَركةُ بينه وبين بن بلاّ ومحمد خَيضَر وعلاّل الفاسي والحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف ويوسف الرويسي وغيرِهم من مناضلي المغرب العربي.

ورأى عبد السّلام أن تتّجه الجهود إلى تفضيل العمل الدّعائي (الإعلامي)، والدّبلوماسي في السّاحة اللّبنانية، فوجّه دَعوَتَه إلى هذه القيادات لزيارة بيروت. وخلال سنوات الثّورة فتح بيته لهم، وجعله مقرًّا ومنطلقًا لنشاطاتهم في لبنان، وأشرَفَ بنفسه على تنظيم هذه النّشاطات؛ من ندوات ومؤتمرات صحافية ولقاءات شعبية ورسمية، وتحوّل بيتُهُ إلى مركزٍ شبهِ دائم للأحزاب والحركات المغربية كلِّها من دون استثناء حسب عديد الشّهادات، ومنها شهادة الأستاذ **عبد الحميد مهري** الذي كان على تواصل دائم معه أثناء رئاسته لمكتب **جبهة التّحرير الوطني** في دمشق، فضلا عن شهادات العديد من الطّلبة المغاربة في سوريا ولبنان، أمثال **محمد الأخضر بلعيد والشّريف سيسبان ومحمّد مهري** وغيرهم.

يقول الكاتب والمناضل المغربي **عبد الهادي بوطالب** في كتابه (**ذكريات وشهادات ووجوه**)، عن عبد السّلام بوعزّة، ما يلي:

«... مجاهد عربي كبير، كان بيته في بيروت مفتوحا لكلّ من حضر إلى لبنان قادما من أيّ قطر عربي، أو منتميا، إلى الإسلام (...) يصرف كلّ ما تملكه يداه لضيافة الوافدين، ولعقد اجتماعات وندوات في بيته للتّعريف بقضايا الشّعوب المستعبدة، وهو، وإن كان يحمل اسم «الجزائري» لأنّه أصلا من الجزائر. فقد كان مثال المواطن العربي الذي لا تحدُّ مواطنيه حدود جغرافية (...) كان يحمل قلبًا كبيرا يُغذِقُ منه بفيض دافق من مشاعر التّقدير على من يلتقيهم في بيروت، أو يسمع بوفادتهم عليها من الزّعماء وصفوة المفكّرين، والمهاجرين من أوطانهم، ويكرم وفادة الجميع. كان عطوفا بشوشا بادي الأريحيّة. استضافني مرارًا، وفتح بيته لمحاضرتين ألقيتهما في قضيّة المغرب السّياسية،

دعا إليهما وأشرف على تنظيمهما...».

وهناك شهادة أخرى للسفير **محمد الأخضر بلعيد** قال فيها: «**عرفته قبل أن أعرفه جسديّا، سمعت عنه الكثير. وعندما أرسلتني الحكومة الجزائرية المؤقّتة في العام ١٩٦١ إلى مكتب بيروت، كان في ذهني أنّني سألتقي جزائريًا اسمُه عبد السلام، هو الصّوت المدوّي للثّورة الجزائرية في لبنان، وتعرّفت عليه، ووجدتُه- كما قيل لي- رجُلاً صارت الثّورة كلَّ همِّه، ويضحّي بكلِّ شيءٍ في سبيل دعم مسيرتها**» ثمّ يضيف:

«**لم يحْدثِ الأمرُ صدفةً، ولا الأقدارُ هي التي قادت عبد السّلام إلى هذه الرّحلة الطّويلة من النّضال، بل كان هذا خيارَه. وأحيانًا تحمل الخيارات الكثير من المرارات واليأس لأصحابها، أمّا هو فقد كانت راحته في الصّراع وفي الاندفاع إلى وسط تيار الحياة. لهذا لم يكن غريباً أن يتحوّل القلبَ النّابض في جمعيته. ولم تثْنِه عن ذلك أعباءُ المعيشة ولا متطلّبات أعمال مؤسّسته التي كانت في طفولة عهدِها. فكان يسهر حتى ساعة متأخّرة من اللّيل، يحرّر بنفسه البيانات والنّداءاتِ والمذكّراتِ التي تُصدِرُها الجمعية، ويتابع توزيعَها على الصُّحُف...**».

تمكن السيّد عبد السّلام من توظيف شبكة علاقاته بالسّياسيّين والقيادات الحزبيّة اللبنانية توظيفا ناجحا سمح للقيادات الجزائريّة خاصّة والمغربيّة عامة بأن تجعل من السّاحة اللّبنانيّة الحرّة منبراً سياسيّا وإعلاميّا قويّا لها.

وفضلا عن كلّ هذا كان القادة المغاربة يصلون إلى لبنان بجوازات تحمل أسماء مستعارة، وبمعرفة مسبقة من السّلطات الرّسميّة التي تستقبلهم بوضعهم ممثّلين لشعوبهم وقضاياهم التّحرّرية، وكان لعبد السّلام دور في كلّ هذه الأمور.

وانسياقا مع الشّهادات الحيّة لبعض المناضلين المغاربة يمكن القول أيضا انّ عبد السّلام لم يترك فرصة تتاح له لشرح قضيّة المغرب العربي والتّعريف بها إلاّ انتهزها. وكانت المؤتمرات العربيّة والإسلاميّة واحدة من هذه الفرص.

ففي **مؤتمر العالم الإسلامي** على سبيل المثال، المنعقد بكراتشي في شهر فيفري سنة ١٩٥١، حوّل عبد السّلام غرفته بالفندق الذي كان ينزل فيه إلى مكتب إعلامي حقيقي، وقام بالتّنسيق مع الوفد الجزائري المشارك في المؤتمر.

وفعل الشّيء نفسه في **المؤتمر الإسلامي العام** المنعقد في الدّار البيضاء في شهر ديسمبر سنة ١٩٥٣ الذي حضرته وفود من مختلف الدّول العربيّة والإسلاميّة من الصّين وأندونيسيا وباكستان وإيران وأفغانستان وأمريكا والبلاد العربية... ورافع عبد السّلام في هذا المؤتمر لصالح القضيّة المغربيّة ككلّ.

وفي أحد المؤتمرات إلتقى عبدُ السّلام الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي وزعيمَ حزب الاستقلال المراكشي علاّل الفاسي، حيث ساهم الثّلاثة في تقديم صورة متكاملة لمعاناة الشّعب المغربي، وعقدوا اللّقاءات على هامش جلسات المؤتمر. وكانت النّتيجة أن احتلّتِ القضية المغربية حيّزًا مهمًّا من المناقشات والمداولات، كما حظيت بنصيب وافرٍ من المقرّرات، حيث أوصى المؤتمرون بان تعمل الحكومات العربية والإسلامية لإنقاذ الأقطار المغربية، وإثارة قضيّتها في المحافل الدّولية وأمام الأمم المتّحدة، كما أكّدوا وقوفهم إلى جانب سلطان مراكش محمد بن يوسف ومحمد الأمين بايّ تونس في سعيهما لإلغاء الحماية الفرنسية المفروضة على بلديهما...إلخ.

أمّا المؤتمراتُ العربية الشّعبية فوفّرت لهُ ميدانًا أرْحبَ لنشاطه، فدأب على حضور دوراتها السّنوية، حيث تحوَّل إلى عضو فاعلٍ في بعضها، ونستشفّ ذلك من أرشيف الرّسائل التي كان يتلقّاها من **لجنة الاتّصال للمؤتمر الشّعبي العربي**، التي كانت تتكوّن من شخصيّات عربيّة مرموقة أمثال: **أكرم الحوراني، معروف الدّواليبي، فاخر الكيالي، ظافر القاسمي، كامل الجادرجي، صديق شنشل، سلمان النّابلسي، محمد فؤاد جلال، يوسف الرويسي، أحمد توفيق مدني، وحميد فرنجية.**

عبد السّلام بوعزّة وأسابيع الثّورة الجزائريّة

بدأ الجزائري عملَه لتنظيم **أسابيع نُصرة الجزائر** منذ العام ١٩٥٥، وكان همّه في تلك الفترة أن ينأى بالقضيّة عن الصّراعات الحزبية اللّبنانية، كما نلمس في إحدى رسائله التي بعثها إلى مكتب جبهة التّحرير في القاهرة في ١٣/ ٠٨/ ١٩٥٥، لأنّه كان يأمل دعم الجميع، لهذا اتّجَهَ إلى تأليف لجنة منتقاة من ممثّلين حزبيين وهيئات وطنية بِصِفتِهم الشّخصية، أطلق عليها اسمَ "**اللّجنة التّحضيرية للدّفاع عن المغرب العربي**"، وضمَّت: **نجيب الصّايغ، إدمون نعيم، محمد علي بَيْهُم، نسيب المتني، رمضان لاونْد، نجلا كفوري، نصري المعلوف، حبيبة شعبان يَكَنْ، عبد الوهاب رفاعي، عبد السلام جنّون، ورفيق نجا.**

وكانت باكُورةُ أعمال هذه اللّجنة مؤتمراً جامعاً وطنيّاً اتُّخِذت فيه مجموعةٌ من المقرّرات والتّوصيات، من أهمّها قرار تقديم المال والعَتاد والسّلاح لحركات المقاومة المسلّحة في الجزائر ومراكش وتونس، وإقامة المهرجانات الشّعبية الدّورية للدّعوة إلى نُصْرة قضايا المغرب العربي، والاتّصال باللّجان المماثلة في الأقطار العربية الأخرى، لتنسيق الجهود لصالح قضايا المغرب العربي.

وتحوّلت التّوصياتُ إلى برامج عمل بدأت اللّجنة بتنفيذها، عبر المهرجانات وحملات جمع التّبرعات بواسطة لجان معيّنة شكّلت لهذه الغاية.

وانغمس عبد السّلام في هذه الحملات، كي تعمّم على كافّة المدن اللّبنانية، وتطلّب الأمر ليالٍ طويلة من السّهر المتواصل في كتابة التّقارير والنّشرات والبيانات، فعانى في تلك الفترة من تدهورٍ في صحّته، لكنّ ذلك لم يمنعه من متابعة نشاطه، إذ قال في رسالةٍ بعثها إلى مكتب الجبهة في القاهرة: «**صحّة الوطن قبل صحّتي، آملُ أن أكتب إليكم مزيدًا من التّفاصيل مع بداية الأعمال، لأنّ طرابلس ستبدأ بجمع التّبرعات يوم الإثنين في ١٥ آب ١٩٥٥، كذلك بيروت (...)، ولن نترك عملاً ينفع المغرب بإمكاننا القيام به، وإن شاء الله، بعد تنظيم الأمور في لبنان، سنسعى لأن تتحمس بقية اللّجان**».

وفي أوائل السّتينات، خطتِ **اللّجنة** خطوةً متقدّمة في عملها، عندما تحوّلت إلى **جمعية** تعترف بها الدّولة التي أعطتها ترخيصَ عملٍ في ١١ تشرين الأول من العام ١٩٦١، تحت اسم "**اللّجنة اللّبنانية لنصرة الجزائر**"، غَايَتُها، تقديمُ المساعدات الممكنة لشعب الجزائر ودعمه بمختلف الوسائل المادية والدّعائية المشروعة في السّاحة العربيّة عموما واللّبنانية على وجه الخصوص.

وقد تشكّلت الهيئة الإدارية في بادئ الأمر من: **عبد السّلام بوعزّة الجزائري، جوزيف مغيزل، سهيل إدريس**، ثمّ أعيد تشكيلها لتضمّ **عبد السّلام، حسان طبارة، شكيب جابر، عباس خلف، الدّكتور محمد المجذوب، سهيل إدريس، جبران مجدلاني، فريد جبران.**

قامت الجمعية بإطلاق حملتين في السّنة: الأولى شتوية تستمرّ طول شهر شباط، ويجري خلالها جمْعُ التّبرّعات، والثانية حملة صيفية، وهي عبارة عن أسبوع تقام فيه مهرجانات الدّعم، وتُجْمَعُ التّبرّعاتُ أيضاً.

ولتوفير غطاءٍ شعبيّ لهذه الحملات، جمع عبد السلام حول اللّجنة أكبر عددٍ من القيادات اللّبنانية من مختلف الحساسيّات السّياسيّة اللّبنانيّة، فتشكّلت نتيجة ذلك **لجنة عليا لأسابيع الجزائر** شارك فيها أربعة وستّون شخصيّةً لبنانية كان منهم: **سليمان فرنجية، رينيه معوض، أَلْفْرِدْ نقّاش، صائب سلام، حسين العويني، رشيد كرامي، أمين الحافظ، صبري حمادة، تقيّ الدّين الصّلح، عبد الله اليافي**، والنّواب: **جان سكاف، جعفر شرف الدّين، الدّكتور رفيق شاهين، عبد العزيز شهاب، عصام حجّار، علي بزّي، كمال جنبلاط، معروف سعد، محمد صفيّ الدين، نسيم مجدلاني، عزيز عون، إدمون ربّاط، إدمون نعيم، إسكندر غبريل، رياض طه، زاهية سلمان، سعيد فريحة، غبريال طرَاد، الدّكتور محمد خالد، محمد جميل كبي، توفيق عساف، فؤاد نجار، الدكتور عبد المجيد الرافعي، أنور الخطيب، عفيف الطيبي، هراتش ستراكيان، نظاريت غريبيان** وغيرهم.

ومع بدء كلِّ حملةٍ كان يجري تأسيس مكاتب تنفيذية في معظم المدن اللّبنانية لتشرف على العمليات، وينسق فيما بينها مكتبٌ مركزي في بيروت تشرف عليه اللّجنة، ويُصدرُ يوميّاً نشرةً توزَّع

على الصّحف حاملةً أسماء المتبرّعين والمبالغ التي دفعوها لحساب اللّجنة التي تُسلِّمُها إلى مكتب الحكومة الجزائرية المؤقّتة في بيروت.

وتوضح ملفّات الحملاتِ العائدة لسنتي ١٩٦١ و١٩٦٢ في بيروت، أنّه كان يجري تقسيم العاصمة إلى شوارعَ وأحياءٍ لجمع التّبرّعات الشّعبية، كما يتمُّ وضْعُ لائحةٍ اسمية بالمصارف والشّركات والمؤسسات التّجارية والصناعية وشركات الطّيران والنّقابات، فيُرسَلُ إلى كلٍّ منها كتابُ تذكيرٍ ببدء الحملة، ثمّ كتابٌ آخرُ تُعلِن فيه اللّجنة عن تسلُّمها المبلغ، وإدراج اسم المؤسّسة أو الشّركة في اللاّئحة اليومية للمتبرّعين، وعند انتهاء الحملة تصْدرُ لائحة سنوية تفصيلية بأسماء المتبرّعين والمبالغ العامة. وكانت آخر الحملات حملة الأسبوع الأوّل من حزيران ١٩٦٢ - أي بعد وقف إطلاق النّار في الجزائر- وأُطلقتْ تحت شعار **إعادة بناء الجزائر وتوفير الكِساء والغِذاء لنحو ٣٠٠ ألف لاجئ**، أجبرتهم الحرب على اللّجوء إلى تونس والمغرب، ومعظمهم من الأطفال والنّساء والشّيوخ.

وقد اتّخذت اللّجنة من **نادي متخرّجي المقاصد الإسلامية** مقرًّا لها. وشكّل الطّلابُ الجسمَ الفاعل في لجان الشّوارع والأحياء. وتكشف اللّوائحُ العائدة للحملة الصّيفيّة لسنة ١٩٦١ مدى النّجاح الذي حقّقته، فقد بلغت حصيلة اليوم الأوّل فقط ٢٢,٨١١ ليرة، أي أكثر من **عشرة آلاف دولار**، الأمر الذي يوضّح مدى إلتصاق الشّارع اللّبناني بالقضيّة الجزائرية وإلتزامه بها.

وممّا ساعد اللّجنة في الوصول إلى كلّ لبنان تلك الثّقةُ التي منحتها إيّاها القيادات والأحزاب الوطنية والسّلطات الرّسمية والحكومة الجزائرية المؤقّتة للسيّد عبد السّلام بوعزة، فأدّت دورها بأمانة وصدق[(١)].

وفي ٢٤ آذار ١٩٦٢، وزّعت **جمعيةُ تحرير المغرب العربي في لبنان** بيانًا بمناسبة وقْف إطلاق النّار في الجزائر، جاء فيه: «**ولأن كان حقًّ لنا اعتبارُ وقف إطلاق النّار في الجزائر حتميًّا للنّضال الطّويل، وحقّ اعتباره انتصارًا للعرب، فإنّ عوامل الانتصار يجب أن تُستَكْمَلَ حتى نقطِفَ ثمارهُ**».

عبد السّلام بوعزّة القومي العربي

كان عبد السلام مؤمناً بضرورة أن تبني الجزائرُ قوّتها الذّاتيّةَ في شتّى أشكالها، لكي تستطيع أن تكون مستقلّةً فعليًّا، وتمتلك حرّية القرار في إطار التّكامل مع شقيقاتها العربيّات مشرِقًا ومغرِبًا،

١- في ١١ شباط (فبراير) سنة ١٩٦٤ سلّمت اللّجنة إلى السّفارة الجزائرية في بيروت آخر قرش كان في ذمّتها.

انطلاقا من مبادئه القوميّة التي آمن بها منذ انخراطه في النّضال الوطني والقومي عبر **حركة الشّباب العربي في لبنان** التي ساهم في تأسيسها سنة ١٩٣٦ وهو في ريعان شبابه.

وباستطاعتنا أن نلمُسَ هذا التّوجُّهَ القومي في كلّ ما تركه من أدبيّات ووثائق سياسية: في مذكّرات ومسودّات رسائل وبيانات...

ويوم بدأت الانتقاداتُ توجّهُ إلى جامعة الدّول العربية، كتب عبد السلام إلى أمينها العام يقول:

«إنّ العرب على اختلاف أقطارهم وأوضاعهم، ليَعلّقون- على الرّغم من الزوابع والعواصف- أعظَم الآمال على جامعتكم المباركة. وهم إذ يفعلون ذلك ويصرّون عليه، ليسوا في نظرنا بمخطئين، لأنّ عوامل الفشل في كثير من محاولات هذه المؤسّسة النّاشئة ليس مرجعُها إلى الفكرة نفسها، فالفكرة في ذاتها ضروريّة ومقدّسة، ونعتقد أنّها ستعيش حتمًا لأنّها حقيقة ثابتة. ولأنّ العرب أمّةٌ واحدة، تجبرُهم ضرورةُ الأخوّة والحياة على التّعاون والوحدة. ونعتقد أنّ كلَّ من يُضمِرُ لهذا المولود أدنى سوء- من أهله أو من غير أهله- فسوف لا تُفْلِتُهُ يدُ التّاريخ والأجيال.

ثمّ إنّ ما يُسمّيه النّاسُ في أعمال الجامعة فشلاً، لن يخرُج عن سنن الاجتماع التي عرفها التّاريخُ في جميع العصور».

إنّ عبد السّلام الذي عاش عصرَ النّهضة القومية، شهد في أواخر عمره انحسار المَدّ القومي. ولم يصنِّفْ نفسَه في خانة المتشائمين من المستقبل ولو يومًا واحدًا، حيث كان يردّد في معظم مجالسه: **«نحن في كبوة. ولابدّ أن ننهض منها»**.

وهو الرّد الجاهز الذي كان يواجه به كلّ مقولة تشكّك في الأمّة العربية، وقُدْرتِها، على استعادة مكانتها.

توفّي عبد السّلام بوعزة صبيحة يوم الأحد ١٠ فبراير (شباط) سن ١٩٩١ وبكته بيروت ولبنان كلّه. وأبّنه صديقه ورفيق دربه رئيس الوزراء اللّبناني الدّكتور **سليم الحص** بكلمات معبّرة جاء فيها:

«... سيبقى اسم عبد السّلام الجزائري في وجدان كلّ من عرفه عنوانا لقصّة نضال طويل. فقد اقترن اسمه بخطّ نضال وطني وقومي التزمه في شبابه، وبقي فخراً واعتزازاً له ولصَحبِه، من أجل حرّية العرب واستقلالهم متحدّيا قوى الانتداب والاستعمار.

ناضل مع المناضلين لغير ما غرضٍ سياسي شخصي لذاته من أجل لبنان وسوريا وفلسطين والجزائر والعروبة، وكانت ذكريات نضاله تشحن حديثه بالحلاوة واللّهفة، وبقيت جذوة اندفاعه الوطني والقومي، لبنانيا وعربيّا، تلازمه حتى النّفس الأخير...».

ملاحظة: اعتمدنا في هذه الورقة على:

- كتاب «**رحلة من غير زاد – سيرة عبد السّلام بوعزّة الجزائري**»،

- **مذكّرات محمود السّلام**،

- عمر زين- **من ذاكرة بيروت**،

وشهادات أخرى.

التكفير: فشل الدولة لا فشل الثقافة

د.أحمد رفيق عوض*

مقدمة:

نعتمد في هذا البحث المنهج التاريخي والمنهج الثقافي معاً، لمقاربة الظاهرة التكفيرية المتكررة في التاريخ البشري العام، فهي ظاهرة لا تختص بثقافة ولا بدين ولا بشعب و لابزمن ولا بحضارة. التكفير باعتباره موقفاً عصابياً لا يحتاج الى أكثر من تحفيز ما، وهذه هي فرضية هذا البحث. اذ ان التكفير باعتباره إنكار الآخر، واحتكار النص، وابادة المخالف، يكمن دائماً في قلب كل حضارة وان مرحلة ظهور هذه النزعة العصابية انما تحتاج الى محفز مرضي أو سياسي أو اقتصادي ليس الا. وقد لوحظ ان موجات التكفير والتشدد وما يصاحبها من ارهاب فكري أو سياسي مورست على مر التاريخ، في معظم الحضارات والثقافات (١).

اذن،هذه الظاهرة تاريخية، لا مدهشة ولا جديدة، لها ملامحها ومميزاتها وأدواتها ورموزها وشخوصها وآلياتها ونتائجها أيضاً، فالتاريخ حلبة للصراع بين الخير والشر، وهو صراع غير محسوم النتائج، على عكس المقترحات الغربية، الرأسمالية منها والشيوعية، اللتين اقترحتا ان التاريخ يسير نحو "ديموقراطية ليبرالية" أكيدة أو "مجتمع شيوعي لا طبقي" يشبه الجنة على الأرض. لا أحد يستطيع ان يقرر نهايات التاريخ أو مساراته، وكل ما يمكن قوله ان هناك قوانين جزئية لا تشكل في مجموعها قانوناً كلياً(٢)، والتكفير –ربما- هو احد هذه القوانين الجزئية، فالتكفير بمعنى مغادرة الجماعة ورفضها ومحاولة الاستيلاء على حاضرها ومستقبلها هو حدث تاريخي يظهر عادة في

* كاتب وباحث من فلسطين

الازمات العنيفة والآفاق المسدودة واختلاط المفاهيم أو اضطرابها، كما يظهر عندما تغيب النماذج والشخصيات الكاريزمية والأفكار المسيطرة.

التكفير في التاريخ الاسلامي:

كانت الموجة التكفيرية الأولى التي شهدها التاريخ الاسلامي هي موجة الخوارج (٣)، ومصطلح الخوارج مصطلح كبير وواسع، تدخل تحته كثير من الحركات الصغيرة والكبيرة والأفكار المتباعدة والمتقاربة والشخصيات الكاريزمية والمغامرة وحتى الخفيفة، لا يعنينا هنا كثيراً ما قالوه في العقيدة الاسلامية، فقد كفروا حتى الصحابة، وأحلّوا قتالهم ودماءهم واموالهم وأحلوا حتى قتل أطفالهم في بعض فتاويهم الشاذة، ولكن ما يهمنا هو، لماذا ظهرت هذه الموجة في سنة ٦٥٦ ميلادية ؟!، ان الاجابة على هذا السؤال تشكل محور وهدف هذا البحث، فقد ظهر هؤلاء إثر الحرب التي وقعت بين صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك الخلاف المرير والصادم حول الأحقية بالحكم والخلافة. ان هذا الخلاف وما نتج عنه من حروب وانقسامات و تحالفات على مستوى البلاد والقبائل، خفض السقوف كلها، وجعل الجميع محل انتقاد وجدل، بمعنى آخر، بهتت الرموز وتم الاجتراء على الكبراء، والأهم من ذلك. تم الاجتراء على النص وتفسيره وتأويله، لأن النص هنا يتحول الى اداة سياسية تدعم هذا الطرف أو ذاك، وفي مثل هذا الجو المشحون والمضطرب، حيث تضيع البوصلة ويختلط الصحيح بالفاسد، وتختفي المعايير وتحضر المصالح، فقد ظهر ابناء القبائل البعيدة والمحرومة والموتورة والصحراوية ايضاً، لتطالب بحضورها وقوتها وتستعيد ثاراتها القريبة والبعيدة، وليس من الصدفة أن يكون الخوارج جلهم من قبائل ربيعة الصحراوية الفقيرة التي لم تستفد كثيراً من الغنائم والثروات الجديدة، والتي لم تنس ثاراتها مع قريش أو مع مضر عموماً، وفي مثل هذا الجو الذي انخفض فيه مستوى المثال الحيوي والفعال، ظهر التكفير تعبيراً عن الأزمة العميقة التي دخلت إليها الأمة، ولكن الخوارج وبدلاً من تقديم مقترح سياسي وفكري وعقائدي يجاور المقترحات الأخرى، ذهبوا بعيداً في اقتراحاتهم، فقد كفروا الجميع وافتوا بقتل الجميع ؟! من هنا يبدو التكفير موقفاً طفولياً وعصابياً من الدرجة الأولى، ومن هنا تأتي هشاشته أيضاً. فهذا الموقف العصابي عادة ما يحتاج الى مبررات ذهنية وعقلية وفقهية، فبحثوا في النص المقدس، ولكن هذا النص لا يمكن ان يسعفهم، فلم يجدوا حرجاً في ليّ الآيات و تفسيرها او تاويلها بخفة تثير الضحك(٤). هل يكفي هذا الكلام لفهم ظاهرة الخوارج التي شغلت وما تزال الثقافة العربية والاسلامية؟ اعتقد أن ذلك لا يكفي، فالازمة التاريخية تنتج مفاعيلها الغامضة وآلياتها التي قد لا نستطيع الاحاطة بها. فالازمة التاريخية هي مظالم متعددة وأوضاع مختلفة وسلوكات تتميز بالعجب. الأزمة التاريخية هي افق مسدود واحساس بالعبث واللاجدوى، وشعور بأن الكون مختل. انا شخصياً لا اصدق ان رجالاً حكماء

ومتقشفين ودائمي العبادة مثل بعض الخوارج يُقدم على أو يقبل قتل أطفال المسلمين دون أن يكون قد وصل الى قاعٍ عميق من الاحساس باختلال الأوضاع وعدم سلامتها أو صحتها، أو انها لا تصلح سوى بهذه الطريق التي اختارها، هذا هو التكفير كمرض وهذا التكفير كأزمة تاريخية. هو مرض من ناحية ذهنية ونفسية ولكنه ايضاً يحمل مضامين اللحظة التاريخية المظلمة التي نتج عنها. فإذا اضفت الى ذلك الجهل والشعبوية والمصلحة والهوى والهوس، فإن ظاهرة التكفير تصبح ماساة حقيقية.

استمرت ظاهرة الخوارج طويلاً، وبسبب الحروب والمطاردة الأمنية والحملات الاعلامية، فقد طوّر هؤلاء الخوارج لأنفسهم بنياناً فقهياً وسياسياً اعتمد على فكرة الولاء والبراء، الأمر الذي ادى بهم الى الانعزال الجغرافي (وهي ظاهرة ستظل تتكرر الى أيامنا هذه) الى ان تم القضاء عليهم وعلى حركتهم عندما تجاوزتهم الأزمات وظهور شخصيات قوية أفقدت الخوارج جُلّ مقولاتهم وحولتهم الى هامش مزعج في كيان المجتمع حينذاك. بمعنى آخر، سيطرة الأمويين وبناء دولتهم وتغييرهم لمواقع القرار والتأثير وتوجيه الجهود نحو البناء والفتح والجبهات الاخرى، جعل من الخوارج بدون جدوى أو كأنهم معلقون في الماضي (أحد مقاتل التكفيريين تعلقهم بالماضي وعدم اعترافهم بالزمن)(٥).

ظاهرة شيخ الاسلام ابن تيمية:

الحدّة و الاستقلالية التي تميز بها شيخ الاسلام ابن تيمية كانت بسبب الأزمة التاريخية التي عاش في قلبها وعاشت في قلبه ايضاً، فقد رأى هذا الفقيه مدينة دمشق تسقط أمام عينيه، ورأى كيف هرب القادة والأغنياء منها وتركوها للغازي المغولي، وقد تحمل مسؤولية الدفاع عن المدينة. واجراء مفاوضات مع الغزاة ليحميها. ابن تيمية الذي عاش في أحلك الظروف حيث فساد الملك وغزو الأعداء وجمود الفقه وتكلسه ونفاق العلماء وتزلفهم، جعل منه رجلاً حاداً وسليطاً ومستقلاً ايضاً، وهو أمر جعله يسجن ثلاث مرات في دمشق والقاهرة وان يعتدى عليه في الشارع ايضاً من قبل البلطجية وزعران دمشق والقاهرة(٦). بكلمات أخرى، فإن ابن تيمية نتاج أزمة تاريخية كبرى، اضطرته الى أن يكفر بعض الجماعات وان يعارض بعض الاجتهادات ويقترح اجتهادات أخرى اسست لبعض المواقف المتطرفة فيما بعد. وهذا يعني ان معارضته لأبي موسى الاشعري وهجومه العنيف ضده، كان يمكن لها ان تبقى في حدود الاختلاف المعروف بين الفقهاء لولا ان تم التقاطه أو استثماره ليتحول الى ما يشبه التكفير أو التكفير ذاته على أيامنا هذه. ابن تيمية، مرة أخرى، كان حاداً وقاسياً بسبب ما رآه من تفكك للدولة وسيطرة للجهل وقبول للذل والخضوع والتعاون مع الأجنبي، ولهذا، كان الرجل مستقلاً حتى في فقهه عن استاذه الكبير ابن حنبل الذي تأثر به كثيراً ولكنه خالفه أيضاً(٧).

ظاهرة التكفيريين في العصر الحديث:

وقد تمثلت هذه الظاهرة في الموجات التكفيرية الثلاثة التي ظهرت في السبعينات من القرن الماضي. وقد تم القضاء عليها من خلال أساليب القهر والاحتواء والمهادنة، ثم ظهرت الموجة في التسعينات من القرن الماضي ايضاً، وقد تم التعامل معها بالاساليب السابقة، ثم انفجرت الموجة الثالثة الحالية بطريقة أوسع واعمق وأخطر بكثير من كل الموجات السابقة، ويمكن القول أن الموجة الاخيرة فاقت في اتساعها ومضامينها وآثارها ما فعله الخوارج ذات يوم(٨). وسنعود الى هذا بعد قليل.

اسباب محتملة للتكفير:

حسب الادعاء الذي نتبناه هنا، فإن التكفير محاولة لبناء هوية جديدة ومغايرة، والمعضلة ان هذه الهوية المدعاة أو المفترضة لا تستطيع الدفاع عن نفسها طيلة الوقت وذلك لعيبٍ اصيل في هذه الهوية، وهو عيب يتعلق بمرجعياتها من جهة وعدم قدرتها على الصمود امام تقلبات الزمن والتحديات الجديدة. الهوية الجديدة التي يحاول المكفر ان يؤسس لها تتميز بأنها جوهرانية،ثابتة، لا تقبل التجزؤ أو الجدل أو الحوار، وهو أمر يكاد يكون مستحيلاً في ظل عولمة تفكك الهويات أو تقدم تعريفات جديدة لها، العولمة بما هي تفكيك وهويات متداخلة ومتعددة ومتقاطعة، وبما هي قدرة على التكيف و التسوية والابتكار والبحث عن الربح والمتعة والتخلص من سلطات متراكمة وقديمة، تبدو للشخص المكفر باعتبارها الشر كله، ولهذا فإن التمسك بهوية أصلية، مختلفة أو حقيقية، أشبه بدخول الجنة، وهذا يفسر حماسة المكفر وتقشفه وقدرته على أن يضحي بنفسه من اجل اهدافه أو قدرته على احتمال العزلة ومشاعر الاغتراب(٩). وعليه، فإن من الممكن ايراد اسباب محتملة للظاهرة التكفيرية الناتجة اصلاً عن أزمة تاريخية عميقة، وذلك على النحو الآتي:

التكفير بوجه من الوجوه تعبير عن ازمة في الهوية وخاصة بعد فشل التيارات القومية وتدرجاتها، الناصرية والبعثية، والتيارات الماركسية بألوانها اللينينية والماوية والتيارت الليبرالية الوطنية والبرجوازية، وفشل الدولة الوطنية ودولة العشيرة ودولة الاسرة والحزب الواحد والعسكرتاريا، وكذلك فشل التيارات الاسلامية الاصلاحية والسلفية والصوفية. هذا التمزق والفشل والفوضى والهزيمة، يقود فيما يقود الى الازمة التاريخية التي نتحدث عنها والتي تنتج الشخصية العصابية(١٠).

التكفير تعبير عن أزمة تطال الشرعيات جميعاً، وهو أمر مرتبط بأزمة الهوية اصلاً، اذ ان هذه الأزمة تؤدي الى انهيار الشرعيات جميعاً، مما يقود الى شعور حاد بالاغتراب وعدم السوية والعجز وانعدام الأمن وغربة النفس. وانهيار الشرعيات يعني الفشل في معظم المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية،

مما يحول الشرعيات الى شرعيات مشكوك في تمثيلها وصدقيتها، مما يوفر الارضية الخصبة لظهور التكفير، فكراً وجماعة وسلوكاً (١١).

التكفير تعبير عن شيوع الفساد والقهر وهو امر معتاد عندما تغيب شرعية النظام أو لضعفه أو لقصوره عن توفير شروط الحكم المقبول والمستقر، فالأنظمة غير المستقرة وغير المقبولة، هي غير شرعية، ولأنها كذلك، فانها تقوم بفرض شرعيتها عن طريق القوة وافساد الناس واسكاتهم واشغالهم، ولهذا يتحول التكفير الى حل يائس وانتحاري(١٢).

التكفير تعبير عن الهزائم العسكرية والاحتلالات المختلفة، اذ ظلت الدول العربية في معظمها مرتبطة بعلاقات وثيقة مع المستعمر، هذا فضلاً عن احتلال فلسطين على دفعتين خلال هزيمتين مدويتين شكلتا جرحاً جمعياً يغوص عميقاً في الثقافة والوجدان، وعلى مدى مئة عام تقريباً، فإن العالم العربي والاسلامي وقع وما يزال تحت وطأة التنافس الدولي الحاد. الهزيمة العسكرية والاحتلالات للاراضي العربية والفشل في التحكم بالثروات الوطنية والتحالفات مع اعداء الأمة، كل ذلك يدفع الى ردود افعال عنيفة وحادة وصلت عميقاً الى التكفير.(١٣)

التكفير تعبير عن صدمة الحداثة، حيث انقسمت النخب العربية في مواجهتها ما بين منبهر تماماً ومستسلم لها بالكامل، وما بين تيار يرفضها بحجة الأصالة والاصولية، كل ذلك على خلفية من العجز والفساد والقهر والفشل. هذه الأزمة عززت شعور النقص تجاه الغرب ومنجزاته من جهة، كما عززت الشعور بالاغتراب والانفصام عن الواقع من جهة ثانية، وقد وجدت هذه الفجوة ترجمتها سياسياً واجتماعياً، الامر الذي أدى الى صدام بين الحاكم والمحكوم، وبين التيارات الفكرية والعقائدية، وقد اضطرت النخب الحاكمة لمواجهة مثل هذه المواجهات الى ان تنشئ مؤسساتها ورموزها الدينية التي أوّلت النص القرآني بما يخدم مصالحها وبقائها وتحالفاتها، وهو امر سهل لجماعات التكفير ان تقوم بذلك ايضاً، وهكذا، تحول النص الالهي مرة اخرى الى أداة سياسية (كما حالة الخوارج) تبرر لكل فريق ادعاءاته(١٤).

اي أن النظام الحاكم- وهو عادة ما يكون في وطننا العربي عاجزاً وفاشلاً ومرتهناً- اضطر الى ان يواجه الجماعات التكفيرية بتأويلات للنص المقدس من خلال المؤسسات الدينية الحكومية، وهو بذلك يمنح الجماعات التكفيرية الحافز الكامل لأن تفعل ذات الأمر. وبدلاً من أن يقوم النظام باصلاح ذاته وتقديم مقترح عملي لتغيير الأوضاع، فإنه يقوم بمحاوله بائسة ويائسة لتاويل كلام رب العالمين، الذي يرفض الظلم والقهر والذل والفساد والتبعية والاحتلال. وهذا يقود الى القول ان الأنظمة الحاكمة في معظمها تتقاسم العطب والمسؤولية مع الجماعات التكفيرية في توتير الأوضاع وتسريع الاصطدام وتدمير كل ما تبقى من هياكل قديمة. وكما قيل، فإنه من الطبيعي أن تتغير الجغرافية اذا تحرك التاريخ، ولهذا، نحن على أبواب تغيرات عميقة سنشهدها قريباً في عالمنا العربي والاسلامي.

التكفير على أيامنا هذه ياتي على خلفية تعمق الاحتلالات وهدم الأنظمة والاضطراب الطائفي وانتهاء دعاوى الاستقلال بالقرار أو الثورة أو حتى خطة التنمية، وكذلك على خلفية الفشل الذريع في المشاريع النهضوية وارتكاس المجتمعات والأنظمة وتجردها من القدرة على المنافسة أو المقاومة الا فيما ندر. التكفير يبدو وكأنه رغبة بالموت أكثر منه رغبة بالحياة.

سيكولوجية المكفر:

انشغل باحثون كثر في رصد شخصية المكفر وطرق تفكيره واتجاهات سلوكه، من منطلق أن المكفر شخصية عصابية تتميز بالرغبة في الانعزال والانكفاء والتوهم والشدة والتشدد في السلوك، ورغم التغيرات التي طرأت على شخصية المكفر الا انها تظل تتميز بملامح عامة نؤطرها كما يلي(١٥) :

هناك اضطرابات في آليات التفكير التي يعتمدها المكفر، اذ ان طريقة تفكير المكفر لا تتدفق بشكل هادف وموجه للأفكار والرموز والتداعيات، اذ سرعان ما ينحرف هذا التدفق في شكله أو مجراه، لقصور في الادراك أو افتقار للمعرفة أو في قصور الطريقة التي تستخدمها للوصول الى المعرفة.

المكفر عادة ما يكون متحيزاً وصاحب نظرة جزئية في التفكير وهو ما يسميه علماء النفس خطأ المسار الواحد حيث يميل الفرد الى تجاهل عوامل هامة في عملية الحكم النهائي، ويعود ذلك الى ما يسميه علماء النفس ايضاً الى "السمات الانسحابية" في التفكير لقلة مصادر المعرفة أو بسبب الخوف المترسخ في اللاشعور، أما التحيز فيعود الى التعصب. ان ذلك كله يقود الى الاهتمام بصغائر الامور وعدم القدرة على الاستماع وكثرة المقاطعة والانشغال بالدفاع عن النفس.

المكفر يميل الى العجرفة والغرور وذلك بسبب قلة العلم والمعرفة، ومن مظاهر ذلك العجب بالنفس والتهجم واتهام الآخرين بالجهل والاحساس بالرضى الذاتي.

المكفر يعتمد على الحكم الأولي كأساس للتفكير، ومن سمات ذلك عدم استخدام التفكير للوصول الى الحكم وانما استخدامه من أجل الدفاع عن حكم تم اصداره سلفاً على اساس التحيز أو العاطفة أو الاعتقاد او الاعتماد على التكتل الاجتماعي.

المكفر عادة ما يعتمد الحكم النقيض أساساً للتفكير، وهو التأكيد على صدق الحجة بابراز خطأ منطقي في الحجة المعارضة، ليصل المكفر الى القول "انت على خطأ ومن ثم فاني على صواب".

المكفر عادة ما يضمن ذاته في اصدار الحكم، ومن سمات ذلك ان يتحول الموقف الفكري جزءاً من ذات المكفر وشخصيته، وهو ما يفسد التفكير المتزن والموضوعي(١٦).

طرائق التفكير هذه تقتضي بالضرورة شخصية محددة للمكفر تتميز بالآتية:

المكفر يميل الى العزلة، وهي عزلة شعورية وعزلة جسدية وعزلة اجتماعية وفي حالة الظاهرة التكفيرية الحالية، فهي عزلة مكانية ايضاً (الدولة الاسلامية الحالية وبعد سيطرتها على مساحات واسعة من الاراضي جعلت من ذلك خطوة أولى نحو ما تسميه ادارة التوحش)(١٧).

المكفر عادة ما يكتمل قبل الأوان وذلك بسبب العزلة حيث يلتزم بالعقيدة الجديدة التزاماً كاملاً وحاداً مما يدفعه الى مرحلة الاكتمال قبل الأوان في سن مبكرة.

المكفر عادة ما يعيش ما بين قطبي معادلة تقوم على "الدونية والاستعلاء" فهو يشعر بدونية وعجز بسبب عزلته، وسرعان ما تتغير هذه المشاعر الى استعلاء اذا انضم الى جماعة متشددة تمنحه احساساً بالتفوق(١٨).

المكفر عادة ما يُظهر ميلاً الى العدوانية وحماساً في عمليات الدعوة والنشر والترويج.

المكفر عادة ما يبحث عن أدوات السيطرة والقوة للتغيير السياسي والاجتماعي.

المكفر عادة ما يظهر ميلاً كبيراً نحو عدم التسامح مع المخالفين.

المكفر شخصية ارتيابية تميل الى الايمان بوجود مؤامرة دائمة ومستمرة ولذلك يميل عادة الى تقسيمات حادة ونهائية، وهذا ما يفسر سرعة تشكيل التنظيم السري.

المكفر يتميز بتقديم نماذج رفيعة للمثالية والاخلاص للقضية التي يدافع عنها، وهذا ما يفسر الحماسة والقدرة على التضحية بالنفس والعائلة و المستقبل.

المكفر عادة ما يظهر طاعة واذعاناً شديداً لأوامر جماعته وتعليمات قائده(١٩).

التكفير والفقه:

ربط الفقه الاسلامي التكفير بالظاهر من القول، اي القول الواضح الذي لا لبس فيه ولا مواربة أو تورية أو يحتمل المعاني المتعددة. لأن الفقه الاسلامي علق تهمة التكفير بالنص الشرعي الواضح الصريح الذي لا لبس فيه والذي حدد من هو الكافر ومن هو المؤمن، اي ان الفقه الاسلامي لم يربط مسألة التكفير لا بالاستهجان العقلي، ولا يحدده الا ذوو الاختصاص المخلصون من الهوى والمصلحة. فالتكفير أولاً وأخيراً، حكم شرعي، ذلك ان التكفير دعوة للقتل، قتل جسدي ومعنوي وتجريد من الهوية الكلية

والفرعية، ولهذا تشدد الفقهاء المسلمون في مسألة التكفير هذه، وحددوا شروطاً اربعة لها هي: ثبوت الكفر بالقول أو الفعل أو الترك بشكل واضح، وثبوت قيامه بالمكلف حتى ينتفي الظن أو الشبهة أو الخبر الكاذب أو الاشاعة، وبلوغ الحجة، واخيراً انتفاء مانع التكفير في حق المرء، أي أن لا يكون صغيراً أو مجنوناً أو مجبراً(٢٠).

اما على ايامنا هذه، فقد اختلط الحابل بالنابل وتوسعت دائرة التكفير وتحلل المكفرون من شروط أهل السنة والجماعة في ذلك. فصار التكفير لمجرد ارتكاب معصية، وكُفّر الحاكم واتباعه بغير ما انزل الله، وكُفّر المقيم الذي لم يهاجر في المجتمعات المسلمة المعاصرة وكَفّر المعين دون اعتبار للضوابط الشرعية، وكُفّر من لم يكفرهم. و كُفّرت المجتمعات الاسلامية بحجة الجاهلية، وكُفِّر من مات وليس في عنقه بيعه..الخ..(٢١).ان التوسع في دائرة التكفير وضم اناس وجماعات لها يعني وجود احتقان وتطرف وغلو في قراءة النصوص الدينية وتأويلها وتوظيفها لخدمة الأهداف التي تضعها تلك الجماعات، ولاننسى هنا ان بعض الأنظمة الحاكمة انما تقوم بذات الفعل من أجل شرعنة وجودها وبقائها.

التكفيريون والأنظمة الحاكمة:

كما ذكر آنفاً، فإن معظم الأنظمة، وبغض النظر عن مضامين ومقولات تلك الأنظمة، يسارية أم قومية أم قبائلية، تقدمية أم رجعية، فقد تعاملت مع الحركات التكفيرية خلال القرن الماضي وحتى الآن اما بالقهر والقمع، كالملاحقة والقتل والسجن والمحاصرة وتكميم الأفواه والمنع من العمل أو السفر، وقد شهدت سنوات السبعينات والتسعينات من القرن الماضي مواجهات عسكرية حادة بين تلك الأنظمة والجماعات التكفيرية كما رأينا ذلك في مصر والجزائر والسعودية والعراق وسوريا، وهي مواجهات لم تحسم المواقف ولم تقض على الظاهرة التكفيرية لأن أسباب ظهورها ظلت كامنة. أما الاسلوب الثاني الذي اتبعته بعض الأنظمة الحاكمة فقد تمثل في الاحتواء والاقناع والمهادنة من خلال الحوارات والمراجعات واستخدام البدائل والاغراء والدمج وحملات الاعلام والتثقيف، وهو اسلوب ادى الى بعض النتائج المرحلية كما في سوريا ومصر و حتى الجزائر بشكل أو بآخر. وبرأيي فإن أساليب الأنظمة الحاكمة، العنيفة منها واللطيفة لم تؤد الى النتائج المرجوة، اذ كان من الاجدى ان تقوم تلك الأنظمة بتغيير اتجاهاتها ومقولاتها وسياساتها وتجفف منابع التشدد والغلو من خلال السياسات الفاعلة والناجعة، وكم نتمنى الآن ونحن نكتب هذا الكلام في بداية ٢٠١٦ ان تعتبر الأنظمة الحالية من تجارب السبعينات والتسعينات.

موجات التكفير الثلاثة:

كما ذكر آنفاً، فقد شهد العالم العربي والاسلامي ثلاث موجات تكفيرية، في سبعينات القرن الماضي ثم في تسعيناته، وأخيراً في السنين الاولى من الألفية الثالثة، ويمكن القول ان كل موجة كانت أوسع وأعمق وابعد أثراً من الموجة التي سبقتها، ويمكن القول أيضاً ان كل موجة كانت تتضمن الموجة التي تليها، الى ان استطاعت الموجة الأخيرة ان تمتلك الحيز المكاني الى درجة انشاء "دولة" وهو تطور جديد لم تحلم به الخوارج في القرن السابع الميلادي. وهذه مقارنة أولية بين الموجات الثلاثة بشكل أولي. (انظر الشكل).

الموجة	الزمان	المكان	الدعوة/الهدف	الصراع مع الدولة	النتيجة
الأولى (التكفير والهجرة) مصر	من الستينات حتى الثمانينات	مصر،سوريا،العراق، الجزائر السعودية	تكفير المجتمع،الانقلاب على السلطة أو على كليهما	بؤر مواجهة متفرقة، اغتيالات،تفجيرات الدولة كانت اقوى في المواجهات العسكرية و الاعلامية.	القضاء على معظم تلك الحركات أو احتوائها.
الثانية (الأفغان العرب)	من الثمانينات وحتى بداية الألفية الثالثة	أفغانستان، الجزائر، مصر، سوريا، لبنان، دول افريقية، السعودية	مواجهة السلطة الحاكمة، اغتيالات، تفجيرات، نشر الدعوة	قلة الحركات التكفيرية، محدودية ساحات المواجهة. الدولة كانت قوية و كذلك تلك الحركات.	لم يتم الحسم العسكري و لا الاعلامي مع تلك الحركات.
الثالثة (القاعدة والداعش)	بدأت بسقوط بغداد عام ٢٠٠٣	الاقليم العربي والاسلامي و بعض دول افريقيا و آسيا	اقامة الدولة الاسلامية، اعادة الخلافة ، تكفير الانظمة و من يدعمها.	المواجهة العسكرية الشاملة، الدولة فقدت قوتها الاستعانة بالاحلاف	الصراع ما يزال مستمراً.

وحسب منهج هذا البحث، فإن كل موجة من الموجات الآنفة الذكر كانت تعبيراً عن انسداد الأفاق وظهور أزمة تاريخية عميقة، فالموجة الأولى شهدت فيما شهدت هزيمة ١٩٦٧ وما آلت إليه الأوضاع في العالم العربي، اما الموجة الثانية فقد شهدت اصطفاف العرب مع امريكا في حربها ضد روسيا على الأراضي الافغانية و انهيار العالم ذي القطبين واستفحال الاستيطان واندلاع الانتفاضة وتراجع النفط كسلاح أو كتنمية واشتداد القبضة الأمنية لمعظم الأنظمة واشتداد الأزمة الاقتصادية، أما الموجة الثالثة، فقد ترافقت مع سقوط بغداد وبدء التنافس الدولي على منطقتنا وقدرة اسرائيل ان تجد لها مواقع اقدام عديدة في نسيج هذا الاقليم تحت مسميات كثيرة. ولكن الملاحظ، وهذا امتداد وتأكيد على ما نقول انه ومنذ خمسين عاماً فقد فشلت الأنظمة الحاكمة في ان تقدم نموذجاً للحكم الرشيد الذي يكبح ظهور المكفر ودعاواه التي تتحول الى ان تكون جاذبة لأجيال يائسة وغاضبة ومحبطة(٢٢). كما ان من الملاحظ

ان الموجة الثالثة حققت ما عجزت عنه الموجتان السابقتان، اي قويت تيارات التكفير وضعفت الدولة القطرية أو القومية أو الوطنية، وهذا مؤشر خطير،لأن حركة التاريخ يتبعها تغير في الجغرافيا، وهذا يعني اننا مقبلون على تغيرات جيو سياسية، وبغض النظر عن كون التيارات التكفيرية اداة غربية أو انها خرجت عن السيناريو أو انها تخلت عن الأدوار المرسومة، أو انها صاحبة رسالة حقيقية، الا ان من الواجب القول ان هناك خطراً حقيقياً يتهدد هذه المنطقة، فإما الغياب عن المشهد الحضاري والأنساني وأما الحضور، وهذا يعتمد على النخب التي عليها أن تكتشف حجم وعمق الهوة التي كنا فيها أو التي نندفع نحوها.

التكفير في الحالة الفلسطينية:

نعتقد بعدم وجود حاضنة للفكر التكفيري في فلسطين عامة، ذلك ان الفلسطيني بحاجة الى توحيد الجهود لا تفريقها بسبب من ضياع الارض والسيادة والكرامة، حتى الفصائل والحركات ذات التوجه الاسلامي كالجهاد وحماس لم تخف رفضها لفكرة التكفير او حتى التنديد به، هذا فضلاً عن باقي الحركات و الاحزاب الفلسطينية التي لا تخفي توجهاتها العلمانية، ولكن هذا الكلام لا يجب ان يكون مطمئناً ابداً، ذلك ان الفكر التكفيري والحركات التكفيرية الآن تلوح بما هو جاذب ومنافس وخاصة للشباب وربما غير الشباب، ففشل التنظيمات الفلسطينية وتدهور المشروع الوطني وانعدام الأفق السياسي وشيوع البطالة والفقر والعنف وسيادة الشعارات الدينية وتوحش الطغمة الحاكمة الاسرائيلية واتحاد التيارين القومي والديني المتطرف في اسرائيل والموت المجاني وعمليات الاذلال والأهانة والاستيطان، كل ذلك قد يدفع الى وجود أنوية أو خلايا قد لا تكون جماهيرية، ولكنها ترحب بفكر التكفيرين وتنفذ اجنداته. و برأينا فإن برنامجاً للمناعة الوطنية المرتكزة على
بديلاً عن تغلغل الفكر التكفيري في الأرض الفلسطينية.

المراجع:

١. د.أحمد رفيق عوض، د.محمد المصري، رؤية جديدة للظاهرة التكفيرية، المركز الفلسطيني للبحوث والدراسات الاستراتيجية، رام الله،٢٠١٥، ص ٢٢ وما بعدها.

٢. د.عماد الدين خليل، التفسير الاسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت،١٩٨١، ص٦٠ وما بعدها.

٣. د.ناصر عبد الكريم، الخوارج أول الفرق في تاريخ الاسلام، الرياض، دار اشبيلية، ط١،١٤١٩هـ، ص ٤٠ وما بعدها.

٤. المصدر السابق.

٥. د. فهمي جدعان؛ المحنة:بحث في جدلية الديني والسياسي في الاسلام، وكذلك،الطريق الى المستقبل؛ أفكار وقوى للأزمنة العربية المنظورة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١،١٩٩٤، ص٧٠ وما بعدها.

٦. الشيخ محمد ابو زهرة، تاريخ المذاهب الاسلامية، ص٤٩٣ وما بعدها.

٧. المصدر السابق.

٨. د.أحمد رفيق عوض، مصدر سابق، ص٥٠.

٩. د.محمد بن جماعة، التكفير دائرة في تصوير الهوية في الخطاب الاسلامي المعاصر، بحث مقدم الى مؤتمر "ظاهرة التكفير:الأسباب والأوتار والعلاج" الذي عقد في جامعة الملك بن عبد العزيز بمدينة الرياض،سنة ٢٠١٢،ص١٥.

١٠. للمزيد حول ذلك، مالك البدري؛ التكفير من المشاهدة الى الشهود، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الاسلامي،ط١، ١٩٩٥.

١١. ريتشارد هرير دكمجيان، الأصولية في العالم العربي، ترجمة وتعليق عبد الوارث سعيد، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة،١٩٨٩، ص٣٢ وما بعدها.

١٢. د.مصطفى حجازي،الانسان المهدور، دراسة نفسية واجتماعية، المركز الثقافي العربي،ط٢، الدار البيضاء، المغرب،ص١٩٨ وما بعدها.

١٣. المصدر السابق، ص٢٠٥ وما بعدها

١٤. المصدر السابق، ص ٢١٠ ومابعدها.

١٥. نور كينحيا، الأسباب النفسية لانتشار ظارهة التكفير، اخطاء التكفير ومشكلاته من منظور علم النفس العيادي، بحث مقدم الى مؤتمر التكفير الآنف الذكر.

١٦. ادوارد دبيونو، قبعات التكفير الست، ترجمة خليل الجيوسي، مراجعة عبد الله البيلي، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ص١٤١-١٥٩.

١٧. أبو بكر ناجي، ادارة التوحش، دار التمرد، دمشق،٢٠١٤، ص٢٠ وما بعدها.

١٨. دكمجيان، مصدر سابق، ص٥٦ وما بعدها.

١٩. المصدر نفسه، ص٥٧ وما بعدها.

٢٠. د.عبد الله القرني، ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة، مؤسسة الرسالة،ط١٤١٣،١ ه.

٢١. المصدر السابق

٢٢. دكمجيان، مصدر سابق،ص١١٥ وما بعدها.

أوراق ثقافية

عن الفدائيين وعرفات و"أبو جهاد" ودرويش

الروائي إلياس خوري: أنا لا أحب فلسطين أنا أحب الشعب الفلسطيني.. ولن أزورها وهي محتلة

حوار بديعة زيدان:

حين تقرر سفري إلى بيروت، وبالتحديد إلى حيث معرض بيروت العربي الدولي للكتاب في دورته التاسعة والخمسين، ومنذ كنت في رام الله، وضعت نصب عينيّ أن أجري حواراً مع الروائي إلياس خوري، الذي كنت ألمس فلسطينيته الطاغية في كتاباته ومقابلاته، وأجد في موقفه ما هو متقدم على الكثير من الفلسطينيين.

ما إن وطأت قدماي أرض بيروت، حتى بدأت الاتصال بعدد من صديقاتي العاملات في وسائل إعلام لبنانية، أو عربية في لبنان، وتلقيت أكثر من وعد بالعثور على وسيلة اتصال به... في اليوم التالي لوصولي، توجهت إلى معرض الكتاب، وبينما كنت أتجول فيه، وأبحث عن عدة روايات، من بينها روايته الجديدة "أولاد الغيتو" أو "اسمي آدم" في زاوية دار الآداب، وإذ به هناك.

كان منهمكاً في ملاحقة طفل يتجول في المكان بعبثية ممتطياً الـ"سكيت بورد"، أعتقد أنه قد يكون حفيده.. كان مشغولاً بملاحقته، حتى عندما اقتحمت لحظته حينها، عرفته بنفسي، وأخبرته أنني أبحث عنه، فأخبرني، دون أن يغفل استراق النظر لمراقبة الطفل المشاكس، أن أسهل طرق للوصول إليه هي السؤال عنه في زاوية دار الآداب.. التقطت صورة "سلفي" معه، واتفقنا على إجراء حوار، وزودني برقم هاتفه النقال، فكتبته على دفتر يرافقني، بعد أن طلب مني قراءة الرواية الجديدة، أو على أقل تقدير تصفحها لأخذ فكرة عنها، وهذا ما كان.

قبل مغادرتي بيروت بيوم، توجهت للقائه في مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بناء على رغبته .. حين

وصلت إلى مكتبه، وجدت أمامه "غلاية قهوة" مغطاه بطبق صغير.. وبينما كان منهمكاً بإنهاء عمل ما على كمبيوتره، طلب من أحد العاملين في المركز أن يصب لي فنجان قهوة من ذات الغلاية، فكنت سعيدة بأنه قاسمني قهوته الخاصة، والمعدة سلفاً، قبل أن نتقاسم أطراف الكلام.

وللحديث بقية في حكايتي مع إلياس خوري، الذي كان مهتماً بنشر الحوار في جريدة فلسطينية، إضافة إلى نشره بالأساس في فصلية "أوراق فلسطينية" الصادرة عن مؤسسة ياسر عرفات، خاصة حين علم أنني أكتب في جريدة "الأيام" أيضاً، ولكن...

كان اكتشافاً سيئاً ومحبطاً، حين قررت تفريغ الحوار، حيث اكتشفت أن تحديثاً أوتوماتيكياً على هاتفي النقال، تسبب في فقدان جزء منه .. بقيت مكتئبة لساعات، حتى أنني بكيت .. إنه من أهم الحوارات التي أجريتها .. إنه الحوار الحلم منذ كنت في رام الله، وحتى خروجي من بيروت، مسلحة بكلماته المدهشة عن الشعب الفلسطيني، وبحميمية كبيرة، ولعل هذا ما جعلني أتماسك من جديد، وأشحن ذاكرتي، التي تفاجأت بأنها استطاعت، على عكس العادة، تذكر الكثير من تفاصيل الحوار المفقودة ... مع إلياس خوري، الذي تواصلت معه مجدداً، وأرسلت له ما أسعفتني ذاكرتي فيه، ليزيد أو يقص أو ينقح، كان الحوار التالي:

• قلت مؤخراً في مقال لك أننا نعيش زمن الحضيض.. لن أخالفك الرأي، لكن السؤال يبقى ما هو دور المثقف عموماً، والروائي على وجه الخصوص في زمن الحضيض، هذا إن كان له دور بالأساس؟

نعم نحن في زمن الحضيض، فما يجري حولنا، وخاصة في الشرق الأوسط، يؤكد ذلك.. لقد كانت بعض العواصم العربية منارات للثقافة على المستوى العالمي، وخاصة بغداد، والقاهرة، وبيروت، ودمشق.. ويكفي أن ننظر ما حلّ ويحلّ بهذه العواصم لنتأكد مما وصلنا إليه.. هناك حالة من العنف الوحشي تجتاح الوطن العربي، فبلادنا صارت ساحات صراع بين همجيات متعددة، وشعوب هذه المنطقة تعيش حالة غير مسبوقة من الذل والهوان.

ما يعنيني، في جوابي على سؤالك، هو دوري أنا، وما أقوم به... بالنسبة لي أحاول أن أقاوم هذا الانهيار، من خلال كتاباتي سواء على مستوى الرواية، أو المقال، وسأواصل هذه المقاومة الكتابية ما بقيت حيّاً.. ليس عليّ أن أنتظر ما يقوم به الآخرون.. أنا أقوم بما أراه واجباً عليّ في مثل هذا الزمن، فها هو الشعب الفلسطيني يقاوم وحده دون مساندة من أي أحد، فالجميع تركه في الميدان يعارك الاحتلال وحده.

• هل نحن فعلاً نعيش حالة غيبوبة ثقافية؟

علينا ألا نكون متشائمين إلى هذا الحد، هناك من لا يزال يحاول ألا نصل إلى هذه الحالة، مع أنني

أقر أننا الآن، نعيش واقعا وجدت فيه الثقافة العربية الديموقراطية والعلمانية نفسها مطرودة من المعادلة، خاصة مع انهيار الاحزاب الشيوعية واليسارية العربية، حيث فرغت الساحة وصارت ملعبا لسلطتين متخاصمتين ومتواطئتين: الديكتاتور ومعارضته الاصولية.

لكن المفاجأة جاءت من حيث كان على الثقافة العربية، التي انهكها القمع واستولى على منابرها المال الخليجي، ان تستعيد نفسها، خاصة بعد أن اعتقدت هذه الممالك أنها بأموالها تستطيع أن تكون عواصم ثقافية، في ظل التوترات الحاصلة في العواصم الثقافية الأصيلة، وأبرزها بغداد، والقاهرة، وبيروت، ودمشق، كما أسلفت.

رغم ما نعيشه من وضع سبق أن وصفناه بالحضيض، إلا أن المثقف الحر لا يزال يحقق حضوره في المشهد، حيث استطاع عدد كبير من الكتاب والشعراء والروائيين خاصة الشباب منهم صياغة عوالم خاصة بهم، تؤسس لواقع ثقافي أفضل مما نعايشه على ساحات المعارك الحربية والسياسية والفكرية.

لا أحب فلسطين.. أحب شعبها

• علمت جيلاً أكمل في لبنان والوطن العربي حب فلسطين في "باب الشمس"، و"مملكة الغرباء"، و"غاندي الصغير".. حتى إن البعض يصفك بإلياس الفلسطيني.. ما كل هذا الحب؟

أنا لا أحب فلسطين!... فأغلب الذين أحبوا فلسطين أو ادعوا حبها قاموا بقتلها. يحبون فيه الاسطورة والوهم، ويطردون شعبها من وعيهم. انظري إلى الغزوات الهمجية التي جاءتنا باسم حب فلسطين من الفرنجة الصليبيين إلى الصهاينة... الفرنجة جاءوا من أجل "الأرض المقدسة" مثلما ادعوا، واليهود الصهاينة جاءوا باسم "أرض الميعاد"، وماذا كانت النتيجة، حروب وابادات ومذابح وتهجير للشعب الذي يقيم فوق الأرض. هذه الأرض تقدست بدماء الناس، وهي ليست أرض ميعاد، بل هي موعد شعبها مع الحرية. وفي هذا الزمن العربي، تأملوا ماذا فعلت بفلسطين الأنظمة الاستبدادية العربية، يتغنون بحبهم لفلسطين ويقتلون اللاجئين الفلسطينيين من تل الزعتر إلى اليرموك.

أنا لا أحب فلسطين، هذه الفلسطين التي يحاول بعض العرب والفلسطينيين اسطرتها على غرار ما قام بها الغزاة لا تعنييني في شيء. أنا أحب الشعب الفلسطيني، هذا الشعب الذي ظلم في كل مكان، حتى هنا في بيروت، أنا منحاز لهذا الشعب، وليس إلى فلسطين الجغرافيا، التي يتغنى بها الجميع، بل ويتجارون بقضيتها .. الجميع يحب فلسطين، أما أنا فأحب الشعب الفلسطيني. وإذا كنت أحب

الأرض وزيتها وزيتونها فلأن الزيت الذي يضيء فلسطين هو عيون أطفالها.

• لعل من الحب ما قتل، فإجراؤك حوارا مع صحيفة "هآرتس" الإسرائيلية، أثار موجة عاصفة ضدك، حتى إن البعض لم يقتنع بمبررات أنك هاجمت العدو في إعلامه، بل إن البعض وصف هذا الهجوم كمن "يخانق حبيبته في غرفة نومها".. ما ظروف هذا الحوار، وهل ترى أن الهجوم عليك مبرر؟

مقتنع تماماً بما فعلت، ولا أراها جريمة، ولينتقدني من ينتقدني، ومن أراد الهجوم عليّ فليفعل .. أنا أرى أنه من المهم أن يتعرف الإسرائيلي على روايتنا نحن، ولذلك، لم أتردد في إجراء الحوار، لأنني قلت ما أريد قوله، بل أنني رحبت سابقاً، وأرحب بترجمة أي من أعمالي إلى العبرية.

ما أريده أن تصل روايتي لهم، فعوام الإسرائيليين مغيبون عن روايتنا، فكثير منهم يعتقدون أن الفلسطينيين، كما غرس في أذهانهم، تركوا منازلهم بمحض إرادتهم .. ويكفيني أن رواياتي التي تناقش الهم الفلسطيني تناقض مقولات تروج الصهيونية لها، ويتبناها المتطرفون، ففي "باب الشمس"، و"يالو"، وحتى في روايتي الأخيرة "باب الغيتو: اسمي آدم"، أرصد المجازر التي ارتكبها الصهاينة بحق أصحاب الأرض الأصليين أي الفلسطينيين، وترجمة هذا، وهذا ما قلته في الحوار أيضاً، كفيل بأن يعرف ولو شريحة منهم برواية مغايرة للسائد لديهم.

وكما نقوم بترجمة كتاباتهم في الصحافة، والدراسات الإسرائيلية المتعددة، بل وننشئ مراكز متخصصة في ذلك، بهدف التعرف على ما يقولون، وكيف يفكرون، أرى أنه من المهم أن يتعرفوا على روايتنا، ومقولاتنا، لعلها تصحح شيئاً من الأخطاء الكارثية في رواياتهم حول مفاصل تاريخية مهمة، وخاصة النكبة، وما يتعلق بالقضية الفلسطينية.

ثم إنه ليس كل الإسرائيليين سواء، فهناك، ولو كانوا قلة، من يناصرون الشعب الفلسطيني، سواء على الميدان، حيث نرى العديد منهم يتظاهر إلى جانب الفلسطينيين، أو في مجالات الإبداع الأكاديمي، أو الروائي، أو السينمائي، أو الإعلامي.

• صحيح.. البعض اتهمك بالتطبيع بعد هذا الحوار.. وهي التهمة الجاهزة لكل من يزور فلسطين.. كيف تنظر إلى التطبيع، وهل أنت على استعداد لزيارة فلسطين لو وجهت لك الدعوة لمثل هذه الزيارة؟

لا.. لن أزور فلسطين ما دامت تحت الاحتلال، سازورها، لو كتب لي، عندما تتحرر.. لا أريد إذناً، ولا أقبله، لأزور فلسطين، ولا أريد أن يدمغ جواز سفري بختم إسرائيلي.. هذا موقف مبدئي بالنسبة

لي، بغض النظر عما يقوله الآخرون حول التطبيع وغيره.

من ناحية ثانية أنا مؤيد للـ (BDS).. أنا مع المقاطعة، لكنني أكرر هنا أن المقاطعة يجب ألا تشمل الأفراد أو الاعلام.

ليست انتفاضة سكاكين

• لم تغب الهبة الجماهيرية الفلسطينية المتواصلة منذ شهرين عن كتاباتك ففي مقالك ليس دفاعا عن السكاكين، وصفت إسرائيل بالعمياء.. ولكن كيف تنظر بعين الإعلامي وبعين الروائي لما يحدث في فلسطين الآن.. وماذا عن سكاكين الرعب والذريعة في آن..؟

إسرائيل مصابة بالعماء، لاشك في ذلك، وقلتها مراراً، فهي لا تريد أن ترى، وهذا العماء هو جزء تكويني من الرؤية الصهيونية لفلسطين... المسألة ليست السكاكين، التي انتهت إلى إلصاق تهمة السكاكين بالضحايا الفلسطينيات والفلسطينيين حتى لو لم يحملوها، وتحولت إلى قتل لليهود الشرقيين من ذوي الملامح العربية، بل المسألة تكمن في المرض الصهيوني، الذي هو أحد أصول بلاء المنطقة بالانحطاط والأصولية، وهو مرض لا علاج له.

قلتها، وأكررها، الصهيوني مريض مدجج بالسلاح النووي ويصرخ خوفاً من رماة الحجارة.. معتوه يحتل بلاد الآخرين، وهو يحمل يقيناً دينياً بأن هذه الأرض بما عليها من زرع وضرع وبيوت، هي ملك له، ورثها عن كتاب عتيق، فسّره بصفته مسوغاً للجريمة، ودليلاً للقتل.

جاءت هذه الهبّة الشعبية الفلسطينية الكبرى تعبيراً عن نهاية مرحلة الاستسلام ... هذه الهبّة ليست دفاعاً عن القدس أو الأقصى فقط، بل هي دفاع عن كل الأرض المحتلة، فالذي اجتاح دوما بالنار وأحرق أفراد عائلة الدوابشة وهم نائمون في منزلهم، أعلن أن اللغة الوحيدة التي يعرف أن يخاطب بها الفلسطينيين هي لغة النار.

هذه ليست انتفاضة سكاكين، مثلما يُشاع، فالسكاكين لا تستطيع أن تكون بديلا عن سلاح التنظيم الشعبي، انها يقظة وعي وكرامة بدأت بأفراد أرادوا التعبير عن غضبهم، وأعلنوا أن الضحية تستطيع أن تدافع عن نفسها حتى في لحظة موتها... انها هبّة كل فلسطين، وهدفها ليس الوصول إلى تسوية مع من لا يريد تسوية ومن الحمق الكلام معه عن تسوية، بل هدفها استعادة فكرة فلسطين، بصفتها فكرة حق وعدالة وحرية.

حكايات مع الفدائيين

• حدثنا عن انضمامك للفدائيين في الأردن، ولقائك بـ "أبو جهاد"؟ .. وكيف تحول الفدائي اللبناني الفلسطيني إلى واحد من أبرز الكتاب والصحافيين والروائيين في العالم؟

عقب هزيمة ١٩٦٧، وعندما كنت في سن التاسعة عشر، اتخذت قراراً بالذهاب إلى الأردن، والإلتحاق بصفوف الفدائيين في حركة فتح، فأخذت "سرفيس" من بيروت إلى دمشق، وآخر من دمشق إلى وسط مدينة عمان، وبت في أحد الفنادق الفقيرة في وسطها، حيث لم أكن أملك المال الكافي.

في اليوم التالي، استقليت "تاكسي" وطلبت من السائق أن ياخذني إلى إحدى قواعد الفدائيين.. ذهل السائق من طلبي، وصودف أنه كان فلسطينياً، وأحمد الله أنه كان كذلك وإلاّ لتغير مصيري تماماً، وربما كانت وجهتي حينها إلى المخابرات.

أخذني السائق إلى منزل ما بين السلط وعمّان، وقال لي "هنا الفدائيين".. لو رأيت هذا المنزل الآن سأعرفه جيداً، فصورته مطبوعة في ذاكرتي.

طرقت الباب، ففتح لي شخصٌ. عرّفته بنفسي، وشرحت له الغاية من قدومي فاستغرب، إلا أنه أدخلني إلى المنزل.. كان هذا الشخص هو خليل الوزير (أبو جهاد).. وبعدما استمع إليّ، حاول ثنيي عن قراري واقناعي بالعودة إلى لبنان، خاصةً بعدما عرف مني أنني بعيدٌ كلّ البعد عن كلّ ما له علاقة بالسلاح وأمور السلاح.. قال لي "خليك في دراستك"، لكنني أصريت على طلبي.

أتذكر أنني مكثت ليومين مع مجموعة من الفدائيين القادمين من قطاع غزة، وأكرموني بالمزيد والمزيد من "الشطة"، طوال تلك الفترة، و"الحمد لله، أنني طلبت إلى التدريب في أحد المعسكرات، لأتخلص من عقاب الشطة".

• ماذا عنك وياسر عرفات؟.. وهل صحيح أنه حاول اعتقالك يوماً مع أنك من أشد مؤيديه؟

حدث ذلك في العام ١٩٧٩، على خلفية مقال نشر في مجلة "شؤون فلسطينية" لم يعجب ياسر عرفات، فأمر باعتقالي، وأرسل قوة حاصرت منزلي، إلا أنني لم أكن فيه، وبقيت مطارداً لعدة أيام، ولكن لحساسية موقفي كوني لبنانيا ونصرانيا انضممت بإرادتي إلى صفوف الفدائين، كان عليّ أن أحل الموضوع، وهذا ما حدث.

رد فعلي على هذه الحادثة كان تقديم استقالتي من "مركز الأبحاث الفلسطينية"، وبعد تقديمي لهذه الاستقالة، ذهبت لمقابلة ياسر عرفات بناءً على طلبه.. لم يكن مسروراً من هذه الاستقالة، وطلب مني التراجع عنها، ولكنني رفضت وقلت له: "أنا لا أستطيع أن أكون معك لأنه ليس

بمقدوري معارضتك"، تضامن مع موقفي هذا محمود درويش، الذي قام بدوره بتقديم استقالته من "مركز الأبحاث الفلسطينية"، وسافر إلى تونس بعدها.

لكني بقيت مع الثورة والفدائيين، بشكل أو بآخر، حتى أجبروا على الرحيل من بيروت العام ١٩٨٢، لكني بقيت لأن لبنان وطني، ولم أواصل رحلتي معهم.. لا تعنيني فلسطين الجغرافيا، كما قلت، ولا القيادات الفلسطينية، ما يعنيني، وأكررها، هو الشعب الفلسطيني.

محمود درويش

• كتب ذات نص، أو في كثير من النصوص بمعنى أدق، عن الغائب الحاضر محمود درويش.. ماذا يعني درويش لإلياس خوري ؟

هو أكثر من مجرد صديق، هو رفيق درب.. قطعنا الكثير من محطات هذه الحياة الصعبة سوياً، كانت البداية حين حضر محمود درويش إلى بيروت، واستقر فيها، وانضم إلى أسرة "مركز الدراسات الفلسطينية"، ومن ثم إلى اسرة تحرير مجلة "مواقف".

مع الوقت، تحولت علاقتي بمحمود إلى صداقة عميقة، وترافقنا في الكثير من المواقف والاحداث، ولاسيما في الفترة التي كان فيها محمود رئيساً لتحرير مجلة "شؤون فلسطينية" وأنا سكرتيراً لتحريرها.. في هذا المناخ، كتبت روايتي "الجبل الصغير" في العام ١٩٧٨، وموضوعها الحرب اللبنانية، وهي الرواية الأولى التي تحكي عن الحرب اللبنانية، وقد ترجمت إلى عدّة لغات، ومنذ ذلك التاريخ، دخلت فعلياً في عالم كتابة الروايات.

وأذكر أني قلت في أحد مقالاتي أن محمود درويش هو "شاعري الشخصي"، وبالمناسبة هنا، فقد كنت حافظاً لأشعاره أكثر منه.

• هل توافق على أن لا شعراء فلسطينيين بعد رحيل درويش .. هذا جدل الآن في فلسطين، البعض يرى أن فلسطين تيتمت بعد رحيل رمزها الثقافي، لكن الغالبية يرون بأن الشعر في فلسطين لم يمت بالموت الجسدي لدرويش .. أين أنت من هذه الجدلية؟

بداية محمود درويش لم يرحل إلا جسداً، فأعماله باقية، وستبقيه حيّاً على الدوام .. لم تتيتم فلسطين بعد رحيل محمود درويش، ففي كل جيل لابد أن يبرز اسم أو أكثر، ولا أعتقد بأن الشعر الفلسطيني رحل برحيل درويش، فقبل درويش كان هناك رموز ثقافية في فلسطين، ومعه كان هناك شعراء كبار وبعده بالتأكيد برز شعراء لهم وزنهم وقيمتهم.

• وما هي حكاية مرضه العام ١٩٩٨ وحكايتك معه؟

هذه من الحكايات الطريفة، فقد أجرى درويش عملية جراحية خطيرة لا تقل صعوبة عن تلك التي أجراها، وتوفي على إثرها في الولايات المتحدة الأميركية .. كانت فرص نجاح العملية ليست كبيرة، لكنه نجا منه.

قمت بزيارته، وكان لا يزال تحت تأثير "البنج"، فيغفو تارة، ويصحو تارة، والطريف أنه عندما يصحو كان يناقشني في روايتي، فيلومني أحياناً وينتقد ما يراه محل نقد، ويثني على ما يراه محل ثناء .. كان حوارنا مدهشا، لأنه كان يقع في مكان خفي بين الحياة والموت وبين المنام واليقظة.

أليس هذا هو سر الأدب، انه المكان الوحيد الذي يستطيع فيه الموتى والأحياء التحاور، والأرض التي تجعل من الحقيقة مناما ومن المنام حقيقة.

حكاية الكتابة

• كثيرون لا يعرفون حكايتك مع الكتابة .. كيف كانت البداية، وكيف تطورت؟ وما علاقة الفدائي بالكاتب؟

بعد عودتي من فرنسا، بدأت العمل في مركز الأبحاث الفلسطينية، تحديداً في العام ١٩٧١، وهناك بدأت علاقتي الجديّة بعالم الأدب بشكل عام.. ولكن، قبل ذلك، لا أبد أشير أنني قد نشأت في بيت المطالعة شغف بالنسبة لساكينه... أتذكر، أنني شخصياً، ومنذ أن كنت طفلاً في الثامنة من عمري، كان يروادني شعور بأنني سأكون كاتباً أو روائياً، حيث كنت كلما قرأت رواية يتراءى لي أنني كاتبها.

عندما كنت أذهب إلى قواعد الفدائيين في كفر شوبا، وهي على بعد رمية حجر من مواقع جنود الاحتلال في فلسطين، كنت آخذ معي كتباً لأقرأها، فكان بعض المقاتلين يتعجبون مني، ويعلقون أحياناً على الموضوع بسخرية.

خلال عملي في المركز، بدأت بتأليف روايتي الأولى،"عن علاقات دائرة"، أتذكر حين ذهبت بها إلى "دار الآداب" لصاحبها الأديب الكبير سهيل ادريس.. لم يكن سهيل قد سمع بي من قبل أو قرأ شيئاً من كتاباتي، فوعدني بالاتصال بي بعد أن يقرأ الرواية، ولكن الوقت طال ولم يتصل، فاعتقدت بأنه لن يفعل.

بعد فترة، فوجئت به يتصل، ويطلب مني الحضور لمقابلته ... وقّعت عقداً معه لنشر الرواية، وبعد توقيع العقد، اعطاني خمسين ليرة لبنانية بدل حقوقي المادية من نشر الرواية، شكرته وطلبت

منه أن يعطيني ليرة واحدة إضافية، استهجن طلبي، وكنت صريحاً معه، حين أخبرته بأنني "أريد الذهاب إلى متجر شهير في شارع الحمرا لشراع حذاء أعجبني، وأن ثمنه خمسين ليرة، وأنني بحاجة إلى ليرة إضافية أجرة السرفيس"، فاستغرب مقايضة الأدب بالأحذية، لكنه أعطاني الليرة .. ما لفتني أن سهيل إدريس قالها بصراحة لي ذات يوم، أنه قبل نشر الرواية ليس لأنها أعجبته، بل لأنه كان يتوقع أن أكون كاتباً ذا شأن في المستقبل !

روايات .. ونكبة

• في روايتك الأخيرة أولاد الغيتو تعود إلى فلسطين مجدداً، وتطرح جدلية الغيتو، وحالة التشابك الجغرافي والتاريخي والثقافي والفكري ما بين الفلسطيني واليهودي .. هل هو الصراع أم المصالحة ؟

من الصعب الحديث عن الرواية، ولم يقرأها أحد بعد في فلسطين، لكن يمكن اعتبارها كجزء ثان من رواية "باب الشمس"، حيث أظهرت "باب الشمس" كرواية وبعض شخوصها في "أولا الغيتو"، أو "اسمي آدم"، وهي تأتي كجزء من ثلاثية في هذا الإطار.

"اولاد الغيتو" هي الرواية التي كنت أحلم بكتابتها منذ صدور رواية "باب الشمس"، عام ١٩٩٨، انها حكاية حبي للفلسطينيات والفلسطينيين، وقصة البعد الانساني الذي يجعلنا نتجاوز الهويات المغلقة، ونتماهى مع المهمشين والمضطهدين في كل مكان. وهي بهذا المعنى ايضا رواية عن اليهود لأن الفلسطينيين صاروا اليوم يهود اليهود.

• رائعتك "باب الشمس" باتت فيلما للمبدع يسري نصر الله ... وهذا يدخلنا في جدلية الرواية والسينما، فوفق نقاد السينما، غالبية الأفلام المبنية على روايات لا ترقى لمستوى الرواية، وإن كان هناك استثناءات قليلة على المستويين العربي والعالمي .. كيف تقيم هذه التجربة (الفيلم)؟ .. وماذا عن أفلام الروايات إن جاز التعبير.

راض تماماً عن الكيفية التي خرج بها الفيلم في جزئين، حيث كنت على تنسيق كامل مع المخرج يسري نصر الله، وهو صديق مقرب لي، وبالتالي لا أرى أنه يجب مقارنة ما بين رواية باب الشمس والفيلم المبني عليها.

إذا ما أردنا الحديث بشكل عام عن جدلية الرواية والفيلم، فيمكنني القول بأن الفيلم يؤطر المشاهد بشخوص مرسومة في تكوينات جسدية وطباع معينة وفق ما يراه المخرج، أما الرواية فهي تمنح القارئ المساحة الكبرى لإطلاق العنان لخياله، ورسم الشخوص كما يقرأها ويشعر بها، ومن

ثم يشكلها، كل وفق رؤيته، وطريقته في التأويل.

• ولدت عام النكبة .. هل يعني لك ذلك شيئاً .. وهل للمصادفات انعكاسات على إلياس خوري؟

(ضحك) .. هي مجرد مصادفة، ولا أرى أن لها أية انعاكاسات عليّ. ومع ذلك فانها من دون ان أدري صارت مصيري.

روائيون جدد

• نحن الآن نعيش ما يمكن وصفه بالرواية الجديدة .. والروائيون الجدد في العالم العربي باتوا نجوماً، ولهم قوالب تختلف عن جيل الرواد إن جاز التعبير .. كيف تنظر إلى الإبداعات الروائية الشبابية عربياً، ومن يلفت من الروائيين العرب والفلسطينيين الشباب؟ .. وكيف يمكنك جذب الشباب الذين هم النسبة الأكبر في مجتمعاتنا الفتية؟

حين أكتب عملاً روائياً، لا أفكر بأعمار قرائي ، فأنا أكتب ما أريد، وما أفكر فيه، وأصيغه بطريقتي بغض النظر عن أعمار القراء.. ليس ثمة خلطة ما، ولا يعنيني جذب جيل من القراء بعينه .. أكتب منذ زمن طويل، ولرواياتي جمهور من مختلف الأجيال، والأهم أنني أكتب نفسي.

فيما يتعلق بالجيل الجديد من الروائيين، فيلفتني جيل جديد في فلسطين من كتاب الرواية، ومن بينهم أكرم مسلم، الذي لفتتني طريقته في الكتابة، فهو يكتب بأسلوب لافت ومتميز، وكذلك عدنية شبلي.

• أخيراً .. ما رأي إلياس خوري بالجوائز الأدبية وخاصة "البوكر" التي اشتهرت بشكل لافت مؤخراً، وفاز في السنوات الأخيرة فيها روائيون شباب؟

الجوائز محفز للكتاب ودور النشر، وهي بالتالي ظاهرة ايجابية بصرف النظر عن رأينا في الفائزين او لجان التحكيم.. لكن يجب أن نتذكر دائما أن جائزة الكاتب الكبرى هي القراء.

التنافُذ تشكيليّاً

شاكر لعيبي

ما المقصود بمفهوم التنافذ؟. في دراسة سابقة لنا عنوانها (شعرية التنافذ)، وبمناسبة ترجمتنا لقصيدة ريلكه (الشبابيك) ومقارنتها بقصيدة بدر شاكر السياب (شبّاك وفيقة)، تناولنا بتوسُّعٍ هذا المفهوم الذي سنحاول تقديم تلخيص له بما يفيد مدخلاً لمفهوم التنافذ على المستوى التشكيليّ.

قصيدة ريلكه (ترجمناها "النافذة") ما هي إلا استعارة مطوَّلة، ممطوطة ومدهشة، لا تغترف سوى من طاقتها الداخلية لكي تلقي أمامنا بالمعاني الغامضة. عندما نقرأ:

"المرأة التي نحبها ليست أكثر جمالاً

إلا حين نراها تطلع مُؤطَّرَةً بكِ

أنتِ، أيتها النافذة من يوشك على تأبيدها"

تصير نافذة ريلكه مناسبة لشدّ القارئ إلى جملة أشياء في آن واحد: إلى مفهومة الزمن، إلى فعل الذاكرة، إلى كل ما هو مخفيٌ في العتمة، إلى كل ما لا نستطيع مسّه بأيدينا مثل هذا المستحيل المتقنع بقناع الممكن..الخ.

تُعَرِّف اللغة الفرنسية التنافذ fenestration، بمعناه الحرفيّ، بأنه فتحة، حقيقية أو صمّاء، في جدار. غير أن المفردة قد استخدمت لاحقاً للتعبير عن إطلالة مجازية.

إذا ما منح ريلكه عنوان (النوافذ) للنص، فإن نصه لم يكن يخاطب إلا (نافذة واحدة) في الحقيقة، وذلك من أجل المزيد من الحنان والحرارة والحميمية التي تبوح بها كلمة النافذة بالمفرد. لكن كذلك لكي ينقل النافذة، بالحميمية تلك، من سياق العنصر الجامد، الآلة، إلى مصاف (الحيّ): العين الحيّة الكبيرة. وبالمقابل كان السيّاب يُعالج منذ البدء نافذةً واحدةً وحيدةً لسيدة اسمها وفيقة،

وليس نوافذَ عدّة لها. يتكرّر فعل الأنسنة في جميع مقاطع قصيدة ريلكه بإلحاح:

لو استقصينا مفهوم التنافذ هذا على المستوى التشكيليّ الآن لوجدنا تقاطعات مفيدة- تضيء لنا، من زاوية بصرية محض، إشكاليات الخارج – الداخل.

١ – منذ عصر النهضة ظهرت النافذة بصفتها ذريعة لإظهار المنظر الطبيعيّ. هذا الأخير (والطبيعة كلها) كان مثقلاً بدلالات رمزية ومفهومية، ومحمّلة بمعانٍ دينية، مسيحية، أكثر مما هي مُسْتلهَمة لذاتها، ولجمالها الخاص بها وتناسقها الداخليّ وسلامها الروحيّ. المنظر الطبيعيّ (بالفرنسية paysage وبالإنكليزية Landscape) بصفته نوعاً فنياً هو اختراع متأخر نسبياً، فقد استغرق وقتاً قبل أن يستطيع أن يصير موضوعاً تصويرياً مستقلاً، وذلك عندما رسم جورجونيه Giorgione لوحته "العاصفة" في عام ١٥٠٧، ثم صار موضوعاً جمالياً مكتفياً بنفسه في فن التصوير الأوروبيّ.

قبل جورجونيه لا يمكن الحديث عن منظر طبيعيّ حتى لو رأينا الطبيعة (nature) عبر نافذة ما، فالفارق كبير في اللغات الأوروبية بين (المنظر الطبيعيّ) و(الطبيعة). لنأخذ لوحة رسّام متقدّم من عصر النهضة وأقل شهرة من أقرانه، لورنزا كوستا الأب (١٤٦٠- ١٥٣٥)، المعنونة "ولادة السيد المسيح La Nativité" المرسومة نحو العام ١٤٩٠ والمحفوظة اليوم في متحف الفنون الجميلة في مدينة ليون الفرنسية. وفيها تظهر هذه الدلالة الرمزية للطبيعة التي لا يبدو أن الفنان كان يستهدف عامداً، عبر عرضها لنا عبر النافذة التي وضعها في مكان مركزيّ من اللوحة، أن تكون موصولة بولادة المسيح المبعوث إليها من قلبها. إنها رمز للسلام الربانيّ والسكينة. المنظر الطبيعيّ هنا متخيَّل إذ أنه يحاول تقديم بيت لحم بالأحرى، وليس الطبيعة.

ها هنا تصير النافذة تنافذاً بين الواقعيّ والرمزيّ، بين الطبيعيّ والمتخيّل. ألا يقع في هذا التنافذ أيضاً بعض ما كانت تتلمّسه قصيدة ريلكه "النوافذ" وقصيدة السيّاب "شبّاك وفيقة"؟.

٢ - تسعى النافذة مرات أخرى إلى تقديم (نظام العالم) المرئيّ عبر ضلفتيها وتُرِيْنا تناسقه وترتيبه.

لو تقدّمنا في الزمن قليلاً، نحو عام ١٦١٨ الذي رسم فيه بروغل الأب ١٥٦٨-١٦٢٥ لوحته (حاسة السمع) أو (مرموزة السمع) المحفوظة في متحف البرادو، مدريد، وهي من مجموعة لوحات مُكرّسة للحواس الخمس، لتوقفنا أمام هذا السؤال: ما علاقة حاسة السمع بالنافذة وبالمنظر الخارجيّ المرئيّ عبرها؟. السمع هو ترميز للهارمونية التي وقع دائماً الاعتقاد أنها تتجلى أول ما تتجلى في الطبيعة. الآلات الموسيقية المتنوّعة في داخل البناية هي رديف للأصوات المتنوعة خارجها. عري السيدة والطفل الذي يُصغي إليها رديف للعري الطبيعيّ الذي يصغي لنفسه، لهفيفه ومياهه. النافذة تنافُذٌ صريح بين هارمونيتين وعُرْيين مجازيين. من هنا اعتبرت اللوحة عن

جدارة مرموزة allégorie = حكاية رمزية بالمعنى البلاغيّ، الشعريّ والتصويريّ. وقد قيل غالباً إن وظيفة النافذة في هذه اللوحة ليس سوى تنظيم بناء اللوحة عمودياً وأفقياً لكي تستقرّ المرموزة وتتضح بأعلى أشكالها.

عبر اتساع وكِبَر نافذة الرسّام بروغل يدخل العالم الخارجيّ إلى دواخلنا، ويصير جزءاً من المشهد الداخليّ فينا، ممتداً إليه متحداً به مندغماً به.

في سلسلة الأعمال التي كرّسها بروغل للحواس يكمن إدراك أوروبيّ عام مستجدّ بالعالم الموضوعيّ في عصره، إذ جرى تقسيمه إلى مجالات وظيفية متعددة تُعبّر الحواس عنها. وفيها كلها تظهر نزعة استهلاك جنينية للسلع الكمالية، وبالتالي ظهور مفهوم الاستمتاع بملذات الطبيعة، وكلها تَظْهر عبر لذة العُري ونشوته، لتكتمل أبعاد المرموزة من جميع الجوانب. كما أن الصور المعلقة على جدار الغرفة تشير إلى لذة الموسيقى، أي السمع المتناغم، فهي تصوّر حفل الأرباب وترينا خاصة الربّ أورفيوس وهو يروّض الحيوانات البرية بموسيقاه.

النافذة تُماهِي هذا العالم الجديد مع الطبيعة التي تبدو خلفية لهذه المفاهيم.

٣ - العالم الخارجيّ يُضيء، حرفياً ومجازياً، العالم الداخليّ، عبر النافذة. وهذه، حسب رأيي، فكرة رئيسية في الكثير من أعمال الهولندي فيرمير. لنأخذ لوحته المحفوظة في (رواق الأساتذة القدامى) بمدينة درسدن "قارئة عند الشبّاك" التي رسمها نحو العام ١٦٥٧ وتُعتبر من أعمال شبابه.

رغم أن فيرمير يرسم فضاءً داخل منزل، فإنه يضعه بعلاقة حيوية قلقة مع الفضاء الخارجيّ. الحميمية الداخلية وقغ تشفيرها عبر اختيار المكان واختيار شخصية وحيدة موضوعة في مركز اللوحة بخلفية فارغة. وقد عَمَّق هذه العزلة الداخلية التكوين العموديّ العالي للوحة وتوازي قامة المرأة مع النافذة.

الرسالة المقروءة في الداخل كانت قد وصلت من الخارج، وجميع مشاعر المرأة الداخلية، النفسية، وهي تقرأ الرسالة موصولة لذلك بهذا الخارج. لقد أُقْتُرِح بأن تُفسّر الرسالة على أنها تعبير عن أفكار المتلقي والمُشاهِد للوحة، وهذا أيضاً يقف في الخارج. كما فُسّر انفتاح النافذة أشدّ الانفتاح على مصراعيها بأنه ترميز لمحاولة هروب هذه الشابة من الداخل الضيّق المُحاصِر إلى الخارج الرحب الحرّ، حيث يَعتقد مؤرخو الفن بأن الأمر قد يتعلق برسالة حب وصلتها من حبيبها أو زوجها الغائب في حروب هولندا يومها وتجاراتها مع جزر الهند الشرقية.

هذه اللوحة هي استعارة صارخة لقطبي الحضور – الغياب الذي تلعب النافذة، عن جدارة، دوراً أساسياً بإبرازه بل تصعيده.

في لوحات كثيرة أخرى للهولنديّ فيرمير نرى تكويناً مشابها لهذا: النافذة يساراً تضيء حرفياً المشهد الداخليّ بتلك الظلال واللوينات الفاتنة التي يبرع فيها الرسّام الهولنديّ، مثل لوحته "شابّة مع إبريق الماء" المرسومة بين ١٦٦٢ – ١٦٦٥ والمحفوظة في متحف المتروبوليتان في نيويورك. ولوحته "سيدة مع عقد من اللؤلؤ" المرسومة عام ١٦٦٤ والمحفوظة في متاحف الإرث الثقافيّ البروسيّ في برلين Museen Preussischer Kulturbesitz. ولوحته "امرأة باللون الأزرق تقرأ رسالة" المرسومة بين ١٦٦٢ – ١٦٦٥ والمحفوظة في ريكسموزيوم Rijksmuseum في أمستردام، وهي بوضعية وتكوين اللوحتين أعلاه لكننا لا نرى فقط النافذة مع أننا نعرف أن المرأة تقابلها كما في المرات السابقة.

٤- نصل في تاريخ الفن إلى الرومانتيكية. هل يُشكّل الرومانتيكيون استثناءً في تعاطيهم مع مفهوم التنافذ؟.

كان غاسبار دافيد فريديريش Caspar David Friedrich (١٧٧٤-١٨٤٠) واحداً من أهم الرسّامين الألمان الرومانتيكيين، وأحد أشهر أعماله لوحته "امرأة عند النافذة" المرسومة عام ١٨٢٢ والمحفوظة في الغاليري الوطنيّ Nationalgalerie في برلين. اللوحة صغيرة الحجم ٤٤ x٣٧سم مما يُضَيِّق من مساحة رؤيتنا نحن المشاهدين نظراً لصغر الشبّاك فيها وامتلائه بجزء من جسد المرأة. لعلّ هذا الحجم الضيّق وذاك الشباك الصغير المحتشد يعبّران عن موقف الرسّام من العالم الخارجيّ ونزعة غاسبار المتشائمة المتديّـنة في آن واحد.

ربما كانت الفتاة في النافذة هي كارولين بومر، زوجة الفنان. والفضاء هو ورشة عمل غاسبار في درسدن. كارولين تتطلع في الخارج وتتأمل نهر الألب المتدفق بالسفن، لكنها في الحقيقة تتأمل في داخلها.

لقد جرى تقديم التفسير التالي الذي قد لا يوافق عليه الجميع لهذه اللوحة: أن الرسّام، عَبْرَ هذه الوضعية، يدعو المتلقي أن يحلّ محلّ المرأة ويتواصل مع الطبيعة التي يمكن حتى لفتحة الرؤية الضيقة من الشبّاك أن تُظْهر عظمتها.

لكننا في الحقيقة لا نرى شيئاً مهماً من الطبيعة عبر النافذة. وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الصليب المرسوم أعلى المرأة، لأُبيح لنا الاعتقاد أنها هي، تنظر إلى عظمة الربّ التي لا نراها نحن المشاهدين كما تراها هي، فهي بالتالي مهمومة بالحياة الأبدية. ما نراه بالأحرى هو المشهد الداخليّ الكئيب الذي تشخص المرأة به بشكل بارز ونراها من الخلف. هي ترى عظمة الربّ والحياة الأبدية بينما نرى نحن قامتها. أفليس في ذلك خلط بين المقدّس والجسديّ، حتى لا نقول الجنسانيّ؟. هذا الموضوع سيستعيره سلفادور دالي في لوحة مشابهة لغرض آخر حيث رسم الوضعية نفسها للمرأة

لكن بردفين مثيرين. ليكون التفسير المُحتمَل للوحة غاسبار هو: أن من يَعتقد أنه يُراقِب العالم، مهما كان نوع ما يراقبه: عظمة الطبيعة، تجليات الربّ، المارة في الشارع، إنما هو مُراقَب هو أيضاً بدوره. ألسنا نحن من يقوم بالمُراقَبة في لوحة غاسبار فتصير نافذتنا امرأةً تُراقِب عبر نافذتها؟.

٥- بعد العديد المتنوّع من اللوحات التي كانت النافذة فيها تحتل الصدارة لغرض ما، جماليّ أو مفهوميّ، سوف يطالعنا ماتيس ١٨٦٩ - ١٩٥٤ بلوحة تتموضع في سجل مختلف تماماً، وتتفارَق مع مزاج ومعاني لوحة غاسبار دافيد فريديريش على سبيل المثال. إنها لوحته "نافذة مفتوحة على [بلدية] كوليور" من عام ١٩٠٥ المحفوظة في الناشيونال غاليري للفن في واشنطن.

النافذة في لوحة ماتيس الوحشية هذه هي كناية عن فن الرسم الذي ليس سوى انفتاح على عالم آخر، عالم الرسّام الداخليّ الغامض الذي تُطِلّ عليه اللوحة وتجعلنا نطِلّ عليه. إطلالة النافذة على ميناء كوليور الفرنسيّ تمثل دون شك (لوحة داخل اللوحة)، وهذا هو التنافذ بأكثر أشكاله جلاءً وشعرية. يمتزج العالمان ها هنا تماما، الداخليّ والخارجيّ ولا يبق من فاصل قط بينهما، حتى أن كاتباً فرنسيا يقول بشأنها إن الإطار فيها أكثر أهمية من النظر أي المشهد المرئيّ. الناحية اللونية تُوطّن هذا الاندغام، فقد استخدم ماتيس تضاد الألوان التكميلية (أزرق - برتقالي، أخضر - أحمر)، وهي تنتشر (وهنا أستعير من ناقد آخر) في موجات كبيرة مجزأة، درجاتها النقية تتناقض وتتعارض من دون تحوّلات، لذا فإن خيار الألوان المُتقارِبة، من أجل معالجة الداخل والخارج، يُشتت عيوننا بين فضاءين، ومما يعزّز الأمر أن جدار النافذة يقع في الفضاء نفسه الذي تقع فيه القوارب.

النافذة مرئية بشكل متواتر في أعمال ماتيس وكان يستهدف عبرها التقليل من البعد المنظوريّ، أو إلغاءه نهائياً (وهو ما لم يتحقق قط)، لصالح ما سيبلوره ويسميه فيما بعد "جمالية تزيينية".

من بين لوحات ماتيس التي يجري الحديث عنها قليلاً لوحة عنوانها "الباب - النافذة في كوليور" مرسومة عام ١٩١٤ ومحفوظة في متحف الفن الحديث، بوبورغ في باريس. وهو عمل ليس تجريدياً ولكنه قد يذكّرنا ببعض أعمال روتكو التجريدية اللاحقة. على ماذا تنفتح نافذة ماتيس؟. على العَدَم، على المجهول الذي تجعلنا النوافذ نُطِلّ عليه. هذا المجهول دون أبعاد ثلاثية أيضاً وسيء التأطير مثل نافذة ماتيس هذه بالضبط.

٦- أحسب أن النوافذ عند بيكاسو لا تقوم بالوظائف عينها ولا تمنح الدلالات نفسها دائماً. سنأخذ عملاً من فترته التكعيبية ولنقترح الوظيفة التي تقوم بها النافذة في هذه الفترة حصراً. إنها لوحته "طاولة أمام نافذة" عام ١٩١٩، كولاج، المحفوظة في متحف ساملونغ روزنغارت Museum Sammlung Rosengart, Luzern ، سويسرا.

لقد أنجز بيكاسو سلسلة لوحات تُقارِب العشرين يتماثل فيها التكوين: طبيعة صامتة أمام نافذة مفتوحة، شرع بها في شقته الباريسية ثم في إجازاته في الريفييرا وسان-رافائيل صيف عام ١٩١٩. دفعت هذه السلسلة بيكاسو إلى الانسلال البطيء من التكعيبية الأكثر تجريدية نحو تكوينات نيوكلاسيكية سنوات العشرينات.

في جميع لوحات تلك السلسلة، وفيها أعمال مائية وغواش، ثمة مسعى لتمثيل الأحجام في الفضاء، من الأشكال المُسطَّحَة إلى الأشكال المستديرة، وبعبارة أخرى كان بعض همّه التشكيليّ المقيم هو إدانة الإيهام بالحجم في فضاء اللوحة ثنائيّ الأبعاد في حقيقة الأمر. إن انطواء جميع هذه الأعمال على عناصر تشخيصية مألوفة للمتلقين كالغيتار والقناني كان يستهدف إيصال رسالة مفادها إمكانية تقديمها بطريقة أخرى ينقصها البعد الإيهاميّ. لكن تقديمها أمام نافذة كان يستهدف في اعتقادنا وضع مفارقة المنظور، وإذْ ننتظر عمقاً (بعدا ثالثاً) في المنظر خارج النافذة، يقُدّم الرسّام في هذه اللوحة فضاءً مسطحاً تقريباً ودون نقطة التقاء في المدى كما يقترح المنظور الهندسيّ (محض سطح أزرق من المياه)، ومن جهة أخرى كان بيكاسو يستهدف رفع العناصر التشخيصية إلى مصاف المَسْرَحَة. وهنا يقع إيهام جديد وترويض لرؤية المشاهد على قبول هذه الطريقة في المعالجة: إنه يرسم عناصره دون التقيُّد بالمنظور ثم يضع بعدها نافذة توحي بالمنظور. تأطير النافذة يستدعي المنظور من أجل تحطيمه. التنافذ في هذه الأعمال واقع بين عالمين ثنائيّ الأبعاد، لكن لم يصلا بعد إلى مستوى التجريد.

٧ – ما هي النافذة في لوحة سلفادور دالي الشهيرة المعنونة "فتاة تقف عند النافذة" المرسومة على ورق مقوّى عام ١٩٢٥. وتمثل شقيقة الرسّام، آنا ماريا، مرئية من الخلف، والمحفوظة في متحف الملكة صوفيا. مدريد؟ لنقل منذ البدء أن دالي رسم شقيقته في العديد من لوحاته حتى يوم لقائه بزوجته غالا، فقدّم رسومات لشعرها وكتفها المُعرّاة.

قيل غالباً إن فتاة دالي تقودنا إلى المنظر الطبيعيّ الذي تتطلع إليه، وأن دالي يستخدم لوحة داخل اللوحة، فالنافذة تلعب دور إطار ثانٍ مُدْمَج في الإطار الأول، وأن الفتاة تدعونا لاستحسان المشهد، وأن المنظر الطبيعيّ ليس مفصولاً عن بقية أجزاء اللوحة، ولكنه مربوط بالشخص الذي ينظر إليه.

هل يكتفي المرء بهكذا تأويل للوحةٍ طالما أحبّها جمهور عريض لم يتطلع، ببساطة، إلى الطبيعة التي كانت تتطلع إليها الفتاة، بل كان ينظر إلى ردفيها المثيرين؟

دالي السوريالّي لم يكن من المتولّهين العشّاق للطبيعة التي وجد فيها روحاً رومانسية هشة انتقدها مثلما فعل أقرانه السورياليون، ولم يكن من أنصار عظمة الرب المتجلية في الطبيعة كما كان يفعل

الألمانيّ الرومانتيكيّ غاسبار دافيد فريديريش. دالي لا يدفعنا لرؤية الطبيعة عبر الفتاة، إنما، وبكل وضوح، رؤية ردفي الفتاة بهذه الذريعة الطبيعية الممتازة، لذا قد تكون اللوحة رداً ساخراً متأخراً على لوحة غاسبار دافيد فريديريش. أن تكون الفتاة شقيقته، سؤال آخر لا نستطيع الإجابة عليه.

في هذه القراءة تغدو لوحة دالي تهكّماً وطرفة بشأن من تتأمل الطبيعة، عبر نافذتها، حالمةً على طريقته الخاصة، بينما نحن نتأمل مفاتنها الجسدية عبر نافذتنا على طريقتنا. الجميع يتأمل الجميع عبر نافذة ما.

٨ – لو انحنى أحد على نوافذ رينيه ماغريت ١٨٩٨-١٩٦٧، لكتب أغلب الظنّ عملاً واسعاً. سنتناول لوحة واحدة تمسّ من قريب، كما نعتقد، مقاربة التنافذ وفق رؤيته الذاتية، هي لوحته "مفتاح المغاليق La clef des Champs" عام ١٩٣٦، المحفوظة في مدريد (متحف ثياسين- بورنيميزا Madrid, Museo Thyssen-Bornemisza).

تختلف مخيَّلة السورياليّ ماغريت عن السورياليّ دالي بأنها أكثر انتباهاً إلى الطبيعة التي ستدخل من أوسع الأبواب عالمه الغرائبيّ لكن بأقلّ العناصر منها وأكثرها تقشُّفاً: حديقة بسيطة، غيمة، طائر... الخ. النافذة التي تنفتح على الحقل في هذه اللوحة، لكن الزجاج المتكسر الساقط في الداخل ما زال يحمل آثار مشهد الحقل عينه في الخارج، فهل كانت النافذة تُطِلّ على المشهد أم أنها كانت تخفيه؟

يعارض ماغريت التقاليد التشكيلية السائدة منذ عصر النهضة التي تعتبر الفن "نافذة على الطبيعة"، وأن على الفن محاكاتها بأمانة. وقد شكّك بهذه الفكرة، ولعله من أوائل من سعى، في الرسم الحديث، لتأويل فكرة التمثيل représentationعلى أنها نسخة من طبيعة أخرى غير طبيعة الأشياء الموضوعية، وأن الأشياء المرسومة ليست حقيقة الأشياء الموجودة في الواقع الموضوعيّ، عبر لوحته الشهيرة "هذا ليس غليوناً"، وكان يريد القول إنه محض رسْمٍ إيهاميّ للغليون الحقيقيّ. ثمة في تقديره استحالة لرؤية العالم عبر قماش النافذة – اللوحة ثنائية الأبعاد لتلمُّس العالم الحقيقي ثلاثيّ الأبعاد.

في هذه اللوحة كان يودّ البرهان أن الفن لا يستطيع أن يُرينا حقاً جمال الطبيعة. لقد استخدم ماغريت على الدوام إطار النافذة كإشارة إلى (وَهْمِ الحواس)، بل سنقول إلى الوَهْمِ الشامل بين الداخل والخارج. النافذة موضع مناسب لإظهار هذا التوهُّم، وزجاج النافذة وليس القماش هو الحامل المثاليّ للأوهام.

التنافذ والحالة هذه مستحيل تقريباً، أو أنه يتمّ على مستوى مُتوهَّم. لذا أليس من المعقول القول إن رينيه ماغريت أقرب للوجودية مما إلى أي تيّار فكريّ آخر، ولو كان هناك مذهب وجوديّ في فن الرسم لكان ماغريت في طليعته.

٩- نجد غريباً عدم وجود حركة تشكيلية عالمية تحت اسم (الوجودية) رغم التأثير الطاغي للفكر الوجوديّ على مجموعة كبيرة من الفنانين الأوروبيين، في الفضاء الثقافي الجرماني (خذ مثلاً انشغالات مدرسة التعبيرية الألمانية) والأنكلوسكسوني والفرنسيّ. على المستوى الفكريّ والفلسفيّ نلحظ تنافذاً بين غرابة الوجود وعبثيته وتجليات هذه الفكرة وتغلغلها في ثنايا فن الرسم منذ مونخ مرورا بالبلجيكيّ أنسور وليس انتهاءً بماغريت.

لعل السبب في غياب (وجودية تشكيلية)، خلافاً للرمزية مثلاً، تنوّع المعالجات والأساليب وتفارُقها عند معالجة الفكر الوجوديّ، لكنه سبب لن يبقى مقنعاً عند التوقف أمام إطلاق مصطلح (السوريالية) على تنوُّعٍ وتفارُقٍ مماثِلٍ من الأساليب والفنانين.

سنبقى أمام ماغريت الذي لم يتوقف فقط عند الوَهْمِ الشامل بين الداخل والخارج، وذهب في لوحته (مديح للديالكتيك عام ١٩٣٧، متحف أكسيل) إلى أن الداخليّ يُدمّر ويَسْحق الخارجيّ، حيث شعورنا طاغٍ بالانغلاق وبأننا نسقط في هوّة وجودية لا قرار لها. الداخل المُمثَّل له بنافذة في بنايةٍ، ينطوي، حرفياً، على البناية نفسها أي الخارج، الخارج والداخل كلاهما يبدوان من طبيعة واحدة. المقطع الخارجيّ الذي نراه في اللوحة للمنزل يبدو وكأنه مقطع مُكبَّر لذاك المرئيّ في الداخل، لكن إذا تأملنا المنزلين بدقة سنعرف أنهما ليسا مُتماثِلين تماماً، فالحوافّ الموجودة في المنزل الداخليّ غير موجودة على جزء من المنزل الخارجيّ. كذلك فإن ألوان الخارجيّ أكثر إشراقاً، وتمنح إحساساً بالبهجة، على عكس ألوان الغرفة الداخلية المعتمة التي تمنح انطباعاً بالكآبة.

في فرضية ماغريت الجديدة القائلة إن الداخل يُحطِّم الخارج بالأحرى، ثمة قلب راديكاليّ للمفهوم المعهود الزاعم أن: العناصر الخارجيّة تسوّي وتروّض أو تسحق الداخليّ. هذه هي نافذة المستحيل - الممكن.

١٠- الفنان الآخر الذي سنضعه في (الحركة التشكيلية الوجودية) المُقترَحة هو الأميركي إدوارد هوبير. فقد اتخذ من عزلة الكائن الآدميّ في المدن الصناعية الجديدة موضوعه الأثير، وقد اتخذ من النافذة منطلقاً للتعبير عن صعوبة التنافذ بين الكائن البشريّ في الداخل والحياة في الخارج. عبّر عن ذلك في لوحات عديدة منها لوحته "شمس الصباح" عام ١٩٥٢ المحفوظة في متحف كولومبوس للفن، أوهايو، الولايات المتحدة.

لن يشفع لهذه العزلة الحجم المفرط للنافذة المنفتحة على الخارج، ولا الاسترخاء الظاهريّ للشخصيات الموجودة في غرفها الوثيرة (الكائن في لوحتنا الحالية هي زوجته جوزفين المُستخدَمة كموديل) ولا ذاك التدفق السخيّ للضوء في الحجرات وعلى الجدران. الكآبة تضرب بأطنابها رغم

ارتفاع النافذة وعرضها وسطوع الضوء المبهر. لعل المرأة في هذه اللوحة تمثل الوساطة اللذيذة المُخدِّرة بين الواقع الداخليّ والعالم الخارجيّ.

النافذة كناية عن العزلة المفروضة على الإنسان في العالم الصناعيّ شديد التنظيم، مُسْتَلِب البشر. النافذة تلخيص للعلاقة المستحيلة بين داخل وخارج رغم توفّر جميع ظروف الترف الماديّ والشروط الجغرافية الملائمة.

١١- ماذا يا تُرى عن النافذة في الفن الأوربيّ المعاصر؟. المثال الذي نختاره هنا هو الأكثر وضوحاً وانسياقاً إلى أنماط تمثيل النوافذ المعروفة في تاريخ الفن. وهو للفنانة الفرنسية المعاصرة ستيفاني ماجورال Stéphanie Majoral بعنوان "العين في النافذة"، تصوير فوتوغرافيّ يعود لعام ١٩٩٨. عُرض مرة في (المركز الجهويّ للفن المعاصر لمدينة سيت Centre Régional d'art contemporain de Sète) في جنوب فرنسا وعُرض عام ٢٠٠٢ في مارسيليا، بحجم كبير (٢٧٦ x ٦٠٠ سم).

يُمثّل العمل صورة كبيرة لعين واحدة منفردة، انعكست على بؤبؤها نافذة مستطيلة الشكل مرئية عليه بوضوح شديد.

بعيداً عن دلالة العين في الثقافات المختلفة، فإن عين ستيفاني هي عين نسوية. لقد فُسّرتِ العين أوروبياً على أنها استعارة لمطلق السلطة والقوة، لكن عين الفنّانة في هذا العمل فُسّرتْ، عبر النافذة المرئية فيها، على أنها دعوة للترحال، وفي ذلك مفارقة صغيرة هي التي دفعت مشاهدي العمل للاقتراب من العمل حثيثاً لرؤيته عن كثب. الناقدة ساندرا باترون كتبتْ تقول عن هذا العمل: "كلما اقترب المتلقي كلما صارت الصورة مبهمة مستترة وعصيّة على فهم مُوحَّد: تتوجب الاستدارة لاكتشاف صورة ليست "تماماً نفسها وليست تماماً غيرها"، والإحالة الأخيرة على [شِعْر] فرلين ليست صدفوية هنا: لأن عمل ستيفاني ماجورال يقدم أولاً علاقة حسيّة مع المتلقي، وفي الثنائية بين داخل – خارج تقدّم الصورة إدراكاً من مرحلتين، كل واحدة منهما تصير، نوعاً ما، إدراكاً للأخرى". وتَذْكر كذلك أن "العين في النافذة هي في الحقيقة باب، هي ممرّ بصريّ يقودنا إلى جولة في عمل الفنانة. لو كان الباب مغلقاً، مرّوا إذنْ من الشباك أيها السادة والسيدات..".

جوهر عمل ماجورال يكمن في مقاربة النافذة بالعين، والتنافُذ المتكاثر المُشعّ من دلالاتيهما كليهما. فالعين نافذة، والنافذة عين على الحقيقة والمجاز بالتناوب. كلاهما يُطِلّان على آخر.

أليس غريباً غياب تأملات تشكيلية عربية في مسألة العين، على نمط تأملات ستيفاني ماجورال، رغم انتشار دلالتها وتنوّعها في القاموس والاستخدام العربيين؟ فالعين في لسان العرب تتضمن معانٍ واسعة متباينة أحياناً: فالعين الباصرة قد تعني أهل البلد وأهل الدار، وثمة الإصابة بالعين، وقولهم

ما بها عَيْنٌ أي أحدٌ، والعين تعني الجاسوس وجَرَيان الماء والجِلْدَة التي يَقَعُ فيها البُنْدُقُ من القوس والجماعة والحاضر من كلِّ شيءٍ وحَقيقَة القِبلَةَ وخِيار الشيء ودَوائِر رقيقة على الجِلْد والدَّيْدَبان والدينارُ والذَّهَب وذات الشيء والرِّبا والسَّيِّد والسَّحاب من ناحية القِبْلَةِ. ويقال هو صَديقُ عَيْنٍ أي ما دمتَ تراه، والعين طائرٌ والعَتيدُ من المال، وكبيرُ القوم والعين المال ومَصَبُّ ماءِ القناة ومطرُ أيامٍ لا يُقْلِعُ ومَفْجَرُ ماءِ الرَّكِيّةِ ومنظر الرّجُل والمَيَلُ في المِيزانِ والناحية ونصف دانقٍ من سبعة دنانيرَ والنَّظَر ونَفْس الشيء ونُقْرَةُ الرُّكْبَةِ وينبوع الماء. وواحد الأعْيان للإِخْوة من أب وأُمٍّ. (والمُعَيَّنُ) كمُعَظَّم ثوب في وشيِه ترابيع صِغارٌ كعيون الوحش وثَوْر بين عينيه سواد وفحل من الثيران...الخ. مما يجدر ذكره أن بعض تعابيرنا المحلية موصولة بالفصيح، جاء في القاموس المحيط أن قولهم (أنتَ على عَيْنِي) أي في الإِكْرامِ والحِفظِ جميعاً.

ما عدا الرسوم الشعبية التي تعود تكراراً إلى "عين الحسود"، تختفي تقريباً الأعمال التشكيلية العربية المعاصرة التي تعالج العين، رغم توفّرها على ثراء دلاليّ وطبيعة بصرية مُعقّدة بالضرورة.

فما السبب في نسيان العين في تشكيلنا المعاصر بصفتها خاصةً موضوعاً صالحاً لتقديم العلاقة بين خارجٍ وداخل، بين ظاهريّ وباطنيّ؟.

١٢- وبمعنى ودلالات التنافُذ الرصينة المذكورة فيما سبق، أين هذا المفهوم في التشكيل العربيّ المعاصر، أين النافذة وفق هذا المفهوم، أين العين النافذة؟.

قد لا نكون مُطّلعين بما فيه الكفاية لمعرفة "بحث تشكيليّ عربيّ" ينحني على النافذة وفق مفهوم التعالق المعقّد بين الداخل والخارج، الظاهر والباطن، المرئيّ والمرئي، بين الجوانيّ والظاهريّ وبين تداخُل العوالم النفسية والواقع الموضوعيّ عبر تنافُذ مركّب كالذي بحثه الفنانون الأوروبيون في لوحاتهم التي تتمسك بالنافذة كتعلّةٍ لذاك التداخُل مُولِّد المعاني المتكاثرة.

لعلنا نجد النافذة كثيراً في التشكيل العربيّ الحديث، رغم ذلك، منذ بداياته وحتى اليوم، خاصةً في البلدان العربية حديثة النشوء، لكن بوصفها مفردة تراثية، محلية، فلكلورية، تزيينية، دالّة على الهوية المعمارية، مفردة مُبْهِجة في المقام الأول، لا عيناً عميقة تُطِلّ، ولا شُباكاً بوّاحاً يَهْذي، ولا اختصاراً لتشابك الداخليّ والخارجيّ أو التباسهما.

يختصر عرض صحافيّ مصريّ كُتِبَ بمناسبة معرض لأربع فتيات مصريات قررن أن يقمن معرضاً، بداية عام ٢٠١٥، عن فكرة الشبابيك في المجتمع المصرىّ وما تثيره من ذكريات، مجمل تصورات التشكيل العربي الحديث والمعاصر عن الموضوع. يبدأ العرض بالاستشهاد بكلمات أغنيةٍ لمحمد منير تقول "شبابيك.. دنيا كلها شبابيك، والحكاية والسهر والحواديت». يبدو أن الفتيات يختصرن مجمل

الموقف من النافذة في تشكيلنا بصفتها "وسيلة لتمثيل تفاصيل الحياة اليومية" أو أنها "لا تقل عن الهندسة المعمارية لمناطق تاريخية كخان الخليلي"، وفي أحسن الحالات " محاولة لرؤية الجمال الكامن داخل القبح المنتشر حولنا، والذي صار واقعاً لا يمكن إنكاره".

العودة في هذا المقام، إلى مفردات أغنية محمد منير الجميلة، وليس إلى قصيدة السيّاب مثلاً (شبّاك وفيقة) ذات دلالة لجهة التناوُل الخارجيّ للشباك في الأغنية، والتداعيات الروحيّة والنفسيّة لقصيدة السياب بشأن الموضوع نفسه. ولن نتحدث عن قصيدة ريلكه الشهيرة (نوافذ) فهي تتماس مع قصيدة السياب، ويُظْهران كلاهما بوناً شاسعاً بين تناول التشكيل العربيّ ثيمة النافذة ومفهوم التنافذ، ومعالجتيهما.

لا نستطيع التعميم المطلق عن غياب معالجة للتنافذ في تشكيلنا العربي، وفي الأقلّ يتوجب الانتباه لفنانة مثل الفلسطينية منى حاطوم التي قدّمتْ مثلاً في عملها (١٢ نافذة)، أنستليشن من عام ٢٠١٣- ٢٠١٤ تصوراً مغايراً. لا أثر للنافذة المعروفة، وبدلها نجد اثنتي عشرة قطعة نسيج فلسطينيّ مُعلّقة على التوالي وسط الصالة، كل قطعة بمقاس متر مربع تحمل تطريزاً فلسطينياً تقليدياً. لا أثر للانطباع الفلكلوريّ المألوف رغم أنها تستدعيه بقوة، لا نافذة حقيقة، إذ تتحول كل قطعة إلى مجاز قويّ ندرك مغزاه منذ الوهلة الأولى. نافذة مجازية محض، تُطِلّ على إرثٍ وثقافةٍ معروفين بأسلوب ملتوٍ، يكاد يكون طرفوياً قدر ما هو مأساويّ. إعادة استشهاد بالأمرين: النافذة الغائبة إلا بالحجم المربع للقطع المزركشة، والهمّ الوجوديّ المتعلّق بالأرض الغائب بدوره إلا بدلالة التطريز الذي يُحيل طرفوياً إلى بلد نعرفه.

قبل ذلك قدّمتْ حاطوم (بين ١٩٩٣-١٩٩٩) حرفياً الكوفية الفلسطينية، بطريقة يمكن أن تُقرأ على أنها نافذة. لقد عَلّقتْ الكوفية على الحائط، وفق تنويعات عدة مبتكرة، حتى بدتْ في أكثر من واحد منها وكأنها نافذة ذات إطار مزدوج محدّد بوضوح شديد، وأحاطتها في تنويع آخر بخصلات شعر آدمية مرهفة أضفتْ بدورها على العمل المزيد من التوتر البلاستيكيّ. هذه الكوفية – النافذة تنغمر برؤية عالمٍ ما عبر الأشكال الهندسية المكررة المعروفة على الكوفية التقليدية: ما نراه عبر التشبيكات تلك ليس العالم الجميل قطّ، لأنها قد تحولت بالأحرى إلى نوع من موانع للرؤية إذا لم نقل إنها تحولت إلى قضبان.

نوافذ منى حاطوم ليست من طبيعة النوافذ المحلية التي تُشبع فضولاً "أكزوتيكياً عربياً"، كأن بعض العرب يتحوّل إلى مستشرِق مبهور حال رؤيته إرثه البصريّ مرسوماً على لوحة. نوافذها بحث جماليّ في معنى التنافذ.

السيرة الذاتية والشِّعر
فيليب لوجون

تقديم وترجمة: عبد اللطيف الوراري

لم تلْقَ السيرة الذاتية الاهتمام من قبل النقد الأدبي إلا في النصف الثاني من القرن العشرين. وكان بادياً العمل التأسيسي المتواصل الذي بذله مُنظّرو نوع السيرة الذاتية، فأرسوا قواعده وحلّلوا بنياته وحقل إمكاناته الشكلية. لكن، في خضمّ النقاش النظري والمعرفي، قلَّ أن طُرِح سؤال العلاقة بين السيرة الذاتية والشعر بشكل جِدّي وواضح.

كانت السيرة الذاتية أو المذكّرات، طوال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، لم تفتأ تنزلق نحو الشعر، فيتداخل السيرذاتي مع صوت الأنا الغنائي وقد يلتبس أحياناً مع ما يحيل صراحةً على المعيش؛ إلا أنّ واقع الحال قد تغيّر مع صعود قصيدة النثر التي ردمت الهوة بين ما هو شعري ونثري، فوجدنا شعراء الحداثة (أبولينير، بول فاليري، إليوت، رامبو، مالارميه..) لا يكفُّون عن تضمين كتاباتهم نُبذاً وأمشاجاً من سيرهم الذاتية، ولعلّ أشهر هؤلاء على الإطلاق ميشيل ليريس.

ولقد صار الحدّ الشعري جزءاً أساسيّاً في إعادة تحديد السيرة الذاتية، وإقرار قيمة النزوع المتسم بالمرونة عوضاً عن الطابع الدوغمائي الذي طبع مفهومها وربطها بخلوص النثر. فلم يعد النثر قَيْداً في تحديد نوع السيرة الذاتية، وهو ما أقرّ به فيليب لوجون نفسه في نبرة دالّة: «في الميثاق السيرذاتي، قلتُ – يا للبدعة !- أنّ السيرة الذاتية تكون «نَثْراً»، إذ أنّ نحو ٩٩ في المئة من الحالات جرت على ذلك، غير أنّ ذلك بالطبع لم يكن صحيحاً»، مؤكّداً أنّه ليس هناك أيّ تعارض بين البنية الشعرية والسيرة الذاتية.

في هذا النص(١) الذي نقترح ترجمته، يردّ فيليب لوجون على الندوة النقدية التي انعقدت بمرسيليا (جنوب فرنسا) يومي ١٧ و١٨ نونبر من عام ٢٠٠٠، تحت عنوان: «حصّة السيرة الذاتية داخل

الشعر المعاصر: أيّ تجديد؟»، وعلى عرّابها دومينيك راباتي الذي استغرب منه إقصاء الشعر من التعريف الذي كان اقترحه للسيرة الذاتية في «الميثاق السيرذاتي» (١٩٧٥)، مُبرّراً ذلك بقوله أنّه «في عصرنا يُلْزمنا الشعر على التفكير في الوشائج التي تجمع ذات الكتابة والذات الواقعية». لذلك، يؤكد لوجون، في لهجة صريحة دالّة، أن النثر لم يعد قَيْداً في تحديد نوع السيرة الذاتية، وأن الشعر بات يُشكّل – بطريقته الخاصة- محفلاً رئيساً داخل الفضاء السيرذاتي، بل «أخذ الشعر يضرب الباب على السيرة الذاتية» بتعبيره. يتناول لوجون، بشكل ودّي وحميمي، طبيعة إشكالات العلاقة بين الشعري والسيرذاتي، عبر مقاطع شعرية من ستة كتب لشعراء معاصرين تعرّضوا لحياة شِعْراً (٢)، ويصفها بـ»الكتب الجريئة» التي «رُبّما حكم عشاق الشعر بأنّها ليست إلا نَثْراً مُوقَّعاً، وعشاق السيرة الذاتية بأنّها ليست إلا مجرد تمارين مصطنعة». إنّـها «بمثابة محكيّات سيرذاتية، محكيّات جميلة وحقيقية متواصلة، تشرع في البدء بولادة المؤلف، وتستكشف على مراحل تكوينه، تاريخ شخصيته، مثلما تدمج هذا التاريخ في سياق مضبوط بأسماء وتواريخ، إلخ. وهي مكتوبة في أبيات شعرية». كما يعود إلى العصر الرومانسي فيتناول الـ»أنا « الغنائي من خلال سوناتة أرفيرس ذائعة الصيت لم يقرأها أحدٌ قطّ (ينشدها !)، ويفترض بأنّه عانى في حياته الحقيقية من سرّ غامض، غير أنّه أفلح، بحسرته العظيمة بلا شكّ، في أن يتجاوز كلّ توقُّع، فلا نعرف شيئاً عنه، أيّ شيء آخر غير «أنا»ه .

كما يقترب من القصيدة عندما تحكي حياتَها أو سرَّها وهي في طور التكوُّن، كما صنع مع بعض نصوص لامارتين، وإدغار آلان بون، وبول فاليري، وأندري جيد، وفرانسيس بونج. ويذهب إلى أن هؤلاء الشعراء متنبّهون لعملهم وهم أنفسهم يعلمون، بطريقة أو بأخرى، «مضايق الإبداع؛ وأنّه يوجد الكثير من الناس يتحلقون حول الشعر لكي يخبرهم بقصّته، ويعبر بهم إلى الاعترافات، لكن الشعر يتفلّت من السيرة الذاتية وينجو بنفسه على أصابع قدميه. علاوة على ذلك، يحاور لوجون مقاطع من أعمال ميشيل ليريس، مكتشفًا أنّه يصهر الشعر والسيرة الذاتية في الفعل نفسه، ويقودهما معاً حتى النهاية.

النصّ المترجم:

في الميثاق السيرذاتي (١٩٧٥)، قلتُ – يا للبدعة !- أنّ السيرة الذاتية تكون «نَثْرًا»، إذ أنّ نحو ٩٩ في المئة من الحالات جرت على ذلك، غير أنّ ذلك بالطبع لم يكن صحيحًا. ولم يعد مجديًا، بعد ذلك، أن نشرحه مطولًا داخل الجزء نفسه (في الفصل المعنون بـ»ميشال ليريس. السيرة الذاتية والشعر»)، أو أن نعود إليه لتهدئة الأمور في كتاب «أنا أيضًا» (١٩٨٦). وآمل أن يكون من الأفضل للفهم أن

نجمع هنا خمسة نصوص صغيرة كُتبت لملفّ كُرّس للمسألة في مجلة (Faute à Rousseau ، عدد ٢٩، شباط/ فبراير ٢٠٠٢)، وهو الملف الذي أوصي بصراحة أن يُقرأ قراءة كاملة.

هل قلت: سيرة ذاتية؟

لا تعرفون، بلا شك، مارغريت غريبون (١٨٩٧-١٩٨٠) M. Grépon، الأديبة والشاعرة. ورُبّما كانت ستبقى في التاريخ الأدبي حتى تؤسس مجلة (أريان) التي أطلقتها مينو دروي M. Drouet في عام ١٩٥٤، وحتى تخلق جائزة الأدب الحميمي التي كانت تُمنح سنويًّا من عام ١٩٥٧ إلى عام ١٩٧٠. وقالت إنّها ظلّتْ طوال فترة حياتها تكتب اليوميات (مقتطفات منها نشرتها سوبير في ثلاثة مجلدات بين عامي ١٩٦٠ و١٩٦٦)، وتمارس الشعر بكامل نكهته، الشعر القريب من الحياة.

وأما برنامجها فهو مثلما نجده في مقدمة ديوانها «سجلّ مُؤجَّر الغرفة»(٣) (١٩٥٦):

«في ساعة تثبت فيها تعمية الشعر، أسحب إليّ بشجاعة هذه المقطوعات من الشعر الحر أو المرسل المتعلق بالحدث، وغير قابل للانفصال بالتالي عن مغامرة الحياة. لكن رأيي المشهور فيما أزعم أنّه لا يمكن أن نصنع شعرًا جميلًا إلا مع اللا شعر. ولست أعرف إن كانت الحياة هي اللا شعر أو كان الشاعر يمجّدها؛ وكلُّ ما أعرفه أنّي لا أعرف أن أفعل شيئًا آخر».

يُقدّم الديوان نفسه باعتباره قصّةً (قصة في شكل شعري)، وهو مُقطّع إلى عناوين فرعية ترشد القارئ إلى مراحل من حياتها: العودة من سايغون، سنوات مارسيليا، سنوات ريفيرا، سنوات باريس؛ ويعكس إحساسات، انتظارات، عواطف وخيبات أمل... هذا الشعر الذي يأخذ مصدره من الحياة ويدعو إليها، ألا يكون سيرة ذاتية؟

رعب، ما تقوله هنا! تلمح إلى أنّها شاعرة (السيرة الذاتية، إنما هي حياة غُفْل ومتروكة بلا عمل)، وأنّها تستثمر فضولًا غير صحّي. كسلى وميّالة إلى الاستعراء، في المجمل. لا، لا، اِسحبْ هذه الكلمة، وإلا تلقّيتم هذه الرسالة مثل التي تلقّاها صديقها الشاعر الكبير جان فولان J. Follain، الذي طلبت منه أن يقدم الديوان، ويا لهول التقديم أن يباشره هكذا، بقوله: «ثمّة تدفّق الحياة في هذه الصفحات المدهشة حيث تصرح مارغريت غريبون بأن تكون قصّةً في شكل شعري، وتُصرّ أن تعلنه سفرًا سيرذاتيًّا».

جون الصديق الفقير، كان يعتقد نفس الشيء الذي كانت تعتقده. ورغم المثل المعروف «أتستعطي وتشترط»(٤)، فإنّ لم تتردّد مارغريت غريبون في أن تطلب منه مراجعة نسخته، وهو ما لم يفعله:

«الكُتيّب (مُؤجّر الغرفة) هو شبه جاهز، لكن لم أشأ إخراجه إلا في أكتوبر... بهذا الخصوص، أريد أن أخبرك بأنّه في التقديم مع ما فيه من ممالأة لشخصي و»توافر الحماسة» كما أشرت إلى ذلك بالطبع، توجد كلمة (هل لي الجرأة على أن أخبرك بها؛ أجل، يمكن أن نجرؤ على كل شيء عندما يكون لنا قلْبٌ نقيٌّ) توجد كلمة لا أتهيّبها لا بالنسبة لي، ولا بالنسبة لك (لأنّي أعرف جيّدًا ما تريد الإشارة إليه، بالنظر في مجمل القصائد الحالية التي هي مجرد ألعاب، ألغاز أو ذكريات صدرت من القلب ومن الحشا)، إنّها الكلمة السيرذاتية، ومن الناس من قد يأخذها بمعنى إفشاء السرّ؟ نافيًا عنها التغيُّر في الشعر؟ لا أعرف ما بوسعي وضعه، الطابع المعيش (لكن توجد كلمة «حياة» في البداية، وهي تؤدي أحسن ما يمكن قوله، ووضع ‹معيش› ثلاثة أسطر في الأسفل ليس أمرًا فنّيًا للغاية)، الطابع... شبه سيري، الطابع... لا أعرف ! على أيّ حال هذا ليس مدعاة للخطر، سأهاتفك صباحًا لنعرف إن كانت لك فكرة !... انظر كما قلت لك ذلك، عزيزي جون، بكل بساطة ودقّة لأنّي سعيدة جدًّا بسطورك، ومرادي أن أكون سعيدة للغاية. أضمّك إليّ مثل ضرب من الحلوى لذيذ.

مارغريت غريبون

إني لأعرف طبعًا مقدار ما أقول بأنّ ذلك غير قابل للانفصال عن مغامرة الحياة، بيد أنّ السيرذاتي رُبّما يجعل التفكير في مغامرات بصيغة الجمع، بالنسبة لأناس لا يريدون أن يفهموا قطّ. ما الذي تقولين لهم؟»

لقد مرّ ما ينوف عن خمسين سنة (١٧-١٨ نوفمبر ٢٠٠٠) قبل تاريخ لقاء «السيرة الذاتية والشعر» الذي انعقد في مارسيليا (جنوب فرنسا). كان السؤال الذي اقترح على الندوة المستديرة يدور حول: «حصة السيرة الذاتية داخل الشعر المعاصر: أي تجديد؟». وكان دومينيك راباتي Dominique Rabaté، العرّاب، باشر النقاش كما يلي: «وهو يُسْتبعد بغرابة من التعريف الذي كان اقترحه فيليب لوجون Philippe Lejeune في «الميثاق السيرذاتي» (١٩٧٥)، يلزمنا الشعر في عصرنا مع ذلك على التفكير في الوشائج التي تجمع ذات الكتابة والذات الواقعية». انظروا الآن، لقد أخذ الشعر يضرب الباب على السيرة الذاتية، ويبدو أنّه يشكو من كونه «مُبْعدًا»... ماذا حدث؟ هل غدت الكلمة القبيحة كلمة مرور؟ إنّا بمنأى عنه- يكاد جميع الكتاب الفرنسيين، حتى عندما يحكون حياتهم مباشرةً- يبدون بوجه عبوس إذا جاز لنا أن نُسمّي مثل ما يفعلون، لكن الأمر غدا أقلّ بكثير من ذي قبل.

ينبغي أن نتجاوز هذه المناقشات. أن نبعد السيرة الذاتية أو أن نريدها أن تكون، فإنّ الأمر يمنع

التفكير في ما هي عليه، والذي لا هو سيء ولا هو جيد. الشعر لا يوجد في كل مكان، والسيرة الذاتية ليست بأكثر من ذلك. وكلٌّ منهما يمكن أن يكون وسيلةً للآخر. وليس معيبًا أن نطرح أنّهما شيئان مختلفان، وأن نحاول تعريفهما، ونُعرض عن القبول بأنّ بينهما نُقَط تقاطع عديدة. ويمكن أن تُؤخذ السيرة الذاتية بالمعنى الواسع والغامض، أو بالمعنى الضيق والدقيق. وكذلك الشعر.

وهكذا، سنتناول بشكل ودّي في موضوع ملفّنا ما نوقش في مرسيليا: «حصة الشعر في السيرة الذاتية المعاصرة: أي تجديد؟». (٥)

كتبَ حياته شِعْـرًا

بحوزتي، على المائدة، ستة كتب هي بمثابة محكيّات سيرذاتية، محكيّات جميلة وحقيقية متواصلة، تشرع في البدء بولادة المؤلف، وتستكشف على مراحل تكوينه، تاريخ شخصيته، مثلما تدمج هذا التاريخ في سياق مضبوط بأسماء وتواريخ، إلخ. وهي مكتوبة في أبيات شعرية.

بي شوْقٌ إلى هذه الكتب الجريئة، والتي رُبّما حكم عشاق الشعر بأنّها ليست إلا نَثْرًا مُوقَّعًا، وعشاق السيرة الذاتية بأنّها ليست إلا مجرد تمارين مصطنعة. أغرم بها لأنّها تبحث طريقًا أصيلًا نحو صوتها. فهي ليست كتابات منظومة مُملّة، بل تجارب في القول. إنّه من الصعب على أحدهم أن يكتب حياته، الحياة الخاصة، داخل لغة مشتركة ينحلُّ فيها. ومن المرعب والمتكلّف أن يقدم نفسه للآخرين بأي حقّ، إذا لم يكن ثمة شيء ما يعرضه أو يستند عليه. قلبي يخفق، تنفُّسي يذهب ويجيء، ينبغي أن أعثر على إيقاعي. صوتي إذ لم يكن غريبًا، صوتي الذي لا يرغب في الاستماع، ينبغي ألا يكون هذه الجلبة التي تخونني، إنّما الموسيقى التي تحملني. وكتابتي ليست رسالةً تضيع من تلقاء نفسها في الصمت ولا تنتهي إلا بعينين، بل هي الكلام الذي يرنُّ في الأذن، الذي يجعل الآخر وهو يُفْصل، بحنجرته الخاصة، حياتي.

إنّ هذه الكتب تجعل القراءة الصامتة في حكم المستحيل. تتحرّك شفتاك. يجب أن تترسّم خطواتك خطى الشاعر. إذا فقدت الإيقاع، تفتقد المعنى. أمسكه مسبقًا باليد، تجِدْ أولًا هذا القيد غريبًا، والذي يبدو في بعض الأحيان هازئًا بالشعر بقدرما يهزأ بالسيرة الذاتية، موحيًا من أصبعيه بمفارقة ساخرة. ومن ثمّة تلاحظ أن هذه الغرابة موحية. وبعض الأمور لكي تُقال تستدعي التحايل عليها، وأخرى تصير أقرب لأنّ العَرُوض يجبر على تجديد المفردات. تخشى أنّه مع البحر الإسكندري، أو أي وزنٍ شعري آخر، يحدث مكان عامّ وأنت أمام لغة جديدة كلّيًا. تَنفّس الصعداء، ولا تُشدّد عليك. هل يمكن أن تُقرأ هذه القصائد الطوال تِباعًا مثل حكْيٍ نثري؟ أحيانًا نعم، إنّ لفي الأمر فتنةً.

وأحيانًا، يُفضَّل أن نشربها بجرعاتٍ صغيرة شأنها شأن أن تستقطر النبيذ، تاركاَ النّكهات «تنمو» من تلقاء نفسها.

أقدّم لكم الكتب التي بحوزتي: روبير بارات R. Baratte، في قعر طفولتي (الفكر الجامعي، ١٩٨١). طفولة قضاها بـ (تلال شومون) في بداية القرن العشرين، طفلٌ لنجّارٍ تحوّلَ إلى مصمم ديكورات، وفي السينما يومًا تفرّج على رسومات إباحية مصورة بالأبيض والأسود، وسمع المكلفة بإجلاس الجمهور، في فترة الاستراحة، تعرض عليه سكّرياتها ذات القطعات الست: «آخذ واحدة منها، آخذ اثنتين !». لم يفعل لا واحدة ولا اثنتين، وأتى البيت وشرع في كتابة سيرته الذاتية على هذا الإيقاع، في مئة وأربع وعشرين صفحة (١٢٤ صفحة). يقدم النص نفسه كنثْرٍ عادٍ، بيد أنّه غريب ومؤثّر تكتشف أنّه أسرع مما يجب قوله بصوت خافت، وعلى ترخيمات لازمة، وأنّ ذلك لا يأتي إلا من الشعر.

في المقابل، لا مشكلة لتحديد أوزان البحر الإسكندري لدى مارغريت داسي M. Dassé في ديوانها «مذكرات ابنة جيمور في بداية القرن العشرين داخل غابة لاند» (منشورات جاك بريمون، ١٩٩٩)، وهو محكيٌّ يبلبل طفولة أليمة وحياة مناضلة أعطتها مدرسة الجمهورية وسيلة تعبيرها وكرامتها. عدا أنّه، في شكله الفيزيقي، كتاب جميل يزدان غلافه بشريطين تتوسّطهما أشجار الصنوبر، هذا الصنوبر الذي منه يتدفّق، مثل عصير الراتنج، شعر الحياة.

كلام عن المدرسة كذلك، لكن بشكل أكثر حداثةً وتحرُّرًا ما تنقله أبياتٌ من الشعر الحر، أو بالأحرى أبيات شبيهة بأسلوب كلوديل، لصاحبها هوبير ليسيني H. Lesigne في «طفل شرقي» (هارتمان، ١٩٩٥) و«Les J Troyes» (منشور صوتيًا، ١٩٩٩)، وهو ابن جزّار أصبح، بفضل المدرسة العليا، مُدرّسًا يمتعنا وهو يقرأ مقتطفات من نصوصه بصوت عالٍ في الكثير من الموائد المستديرة التي تعقدها جمعية من أجل السيرة الذاتية والتراث السيرذاتي (APA).(٦)

وأمّا بقية «شعراء السيرة الذاتية» الثلاثة الآخرين فسأقدّمهم لكم بإيجاز: هم مؤلفون مُجرّبون تعثرون ببساطة على كتبهم في المكتبة أو الخزانة، مثلما تُقبلون، بعد أن تقرأوا مقالة لشانتال شافيريات- دومولين C. C. Dumoulin، على توطئة ووردزورث (أو لِمَ لا على «تأمُّلات» فيكتور هيغو التي هي «مذكّرات روح» تقع حقيقةً في منتصف الطريق بين ديوان غنائي وحكي سيرذاتي)، بحيث نقودكم في إثر ذلك إلى مصادر الشعر الرومانسي. لكن سأعطي عن كلّ واحد من هؤلاء الثلاثة مقتطفًا مائزًا.

بحوزتي نسخة من عمل ريمون كينو R. Queneau «بلوط وكلب» (رواية شعرية) (١٩٣٧)، من

سلسلة شعر دار غاليمار ذوات القطع الصغير، وهو محكيٌّ طفولي، ومن ثمّة محكي للعلاج بالتحليل النفسي الذي يتردد صداه منذ البدء كما في الأبيات أدناه:

ولدْتُ في هافر يوم الحادي والعشرين من فبراير

عام ألف وتسعمائة وثلاثة.

كانت أمي بائعة أقمشة وأبي بائع أقمشة:

يطآن الأرض فرحًا.

لسبب غير مفهوم أعرف الظلم

وأُودِع الصباح

عند امرأة جشعة وبلهاء، مرضعة

تلقمني حِجْرها.

عدا الحليب تعبتُ من الاعتقاد

بأنّي ظفرت منها بمأدبة

زامًّا بشفتيّ نوعًا من الإجّاص،

عضو أنثوي.

كما بحوزتي «الحياة العادية» (رواية قصيدة) لجورج بيرو G. Perros (غاليمار، ١٩٦٧)، التي أحببت أكثر أجزاءها الثلاثة المعنونة بـ»أوراق ملصقة»، ويمكنني أن أقرأ خاتمتها كالآتي:

أخيرًا

أتحدّث عن أشياء معيوشة

عن طريقي أنا طبعًا ورُبّما عبركم

بيد أنّكم لا تتصوّرون

واجب أن تضعوها على النافذة

حتى تيبس بمحض إرادتها

مثل كتّان مغسول جيّدًا

من كلّ قذارة

ذاتيّاتنا العفنة

التي ستضمحلّ

بإرادة الريح

لكن لا ينبغي إثارتها

فإذّاك تحدث دون أن تقول شيئًا

وتُعرّينا مُحدثةً صفيرًا

ليس أكثر من الجلد والعظام

لتقتفي أثرك مُغامرًا

آه، يا حياتنا الجميلة المقاتلة

ويا بنثيسليا (٧) وَحْشي

لن ألثم ثغرك أبدًا

لك لن أكون

سوى جسدٍ عصيٍّ على الانقياد

(٨)Vale Vale et me ama

سأُنْسى سريعًا وما

أكتبه عبر مساء خريفي جميل

بمقربة من كلبي الذي يعضُّ براغيثه

فتضيع في دمه

من السخف أن أرغب في القيام به كما

أسمع أطفالي وزوجتي

الذين يُغْفون جدار الليل

يحفظ ما أكتبه

الرُضّع الصغار من العدم

يتلمّظون شفاههم.

ثُمّ هناك شاعر معاصر هو وليام كليف W. Cliff الذي نشر عام ١٩٩٣، عن منشورات ديفيرانس، عمله «سيرة ذاتية» (هذا هو العنوان) بغلافه الأزرق.

يحكي على نحو مُنظّم طفولته ومراهقته وشبابه، وقد قسمها إلى ثلاث متتاليات، زيادة على فاصل موسيقي، تعذيب وخاتمة. وهي كلُّها تجري في شكل سلسلة من مئة سوناتة شعرية مركبة من ١٠، ١٢ أو ١٤ قدمًا، ويكسر إلقاؤها غير المُطّرد الإيقاعات المتوقعة ويشقُّ الطريق لكلامٍ مُؤْلم وصادق... هكذا تُثار بداية الحبّ في السوناتة ٦٤، بقدر ما تتلامح عبر رسم صغير للتحليل النفسي والتأمل الاسترجاعي، روائح ساخرة وسوداوية، حيث الكلمات (العبرات، الفتون والأسلحة larmes, charmes et armes) مُقفّاة كلاسيكيًّا، لكن مع شَوْكها أَيْضًا.

حصل أن ثارت حفيظتي بلا مشيئة

السحر من لدن أحدهم

يقتفي بخطواته خطواتي وبأعمدة

معبدي يعلق إيماني لكن داخل الأمل

وأن وجدت بسببي أنا بَلْسمًا لجراحاتي

أنا؟ إذ آتي لمساعدة أيّ شخص؟ أنا الذي

لا ألوك بأسناني سوى الشوك اليابس

فهذا ما يستهوي طبيعتي الواهنة؟

يتكرم عليّ بأن يزورني في كوخي؟

يتملّقني بنظراته البعيدة الملأى بالدموع؟

(في هذا العمر يبدو لنا الزمان لا نهائيًّا

علينا أن نحيا دائمًا معتقدين أنّ أسلحتنا

يمكنها دائمًا أن تسترجع الليالي وتخترقها)

هكذا أعيش مأخوذًا بشرك فتنة جديدة

الـ»أنا « الغنائي

لماذا نحن نحبُّ القصائد والأغاني؟ لاسيما عندما تقول "أنا"؟ لأنّها على حين غفلة تمنح التعبير "السليم" للعاطفة التي تبحثنا في كلماتها وموسيقاها. فجأةً، نتبنّاها. نتعرّف أنفسنا فيها. وهذه الكلمات التي تكسو تجربتنا، نخال أنّها تأتي مباشرة من التجربة، ومن قلب الشاعر. هناك رغبةٌ لتقاسم العاطفة، الإحساس بأنّ شخصًا ما فهمنا؛ وهناك علامة التواطؤ مع أولئك الذي يحبّون، ينشدون ويدندنون بالألحان نفسها التي نحبّها. ولذلك فإنّ السؤال الذي أريد طرحه ليس له، بالفعل، كبير أهمية. هل أحبّ رونسار هيلين؟ وهل دو بيلاي كان مستاء من أوفيد؟ هل ينبغي أن نؤمن بكلّ ما غنّاه براسينس؟ أيّ حصة للثقة، للتمرين الأدبي وللدور؟ ولكن ما الأكثر وضوحًا في حياتنا الخاصة؟ دعونا نعود إلى ما فيها من عذوبة الاعتقاد.

ماذا بقي على سبيل المثال، من الشاعر أرفيرسArvers ؟ الاسم (شخص لا يعرف لقبه: فيليكس)، العصر (إنّه «الرومانسي الصغير») والبيت الشعري الوحيد: «لروحي سِرُّهـا، لحياتي لُغْزها»، الذي نتعرّف عليه من بداية السوناتة، «سوناتة أرفيرس» الشهيرة حقًّا، السوناتة التي لم يقرأها أحدٌ قطّ (ينشدها !). ويبدو البيت عذبًا ومؤثّرًا في بساطته الشجيّة، وهو كذلك بحقّ. كما يظهر من مجموع السوناتة التي جاء فيها:

لروحي سِرُّها، لحياتي لُغْــزُها:

الحبُّ الأبدي في لحظة مدركة:

الألم ميؤوس منه، كذلك عليّ السكوت عنه،

وتلك التي جعلتني لا أعرف عنها شيئًا قطّ.

واحسرتاهُ ! أمضيتُ الوقت قريبًا منها غير مرئيٍّ،

ووحيدًا رغم أنّي بجوارها على الدوام،

وأظلّ إلى أن تكتب النهاية عمري على الأرض،

ليس لي الجرأة على أن ألتمس شيئًا ولا أن أطمع فيه.

وأما هي، رغم أن الله جعلها عذبة غضّة العود،

ستمضي في طريقها شاردةً تصمّ عن أن تسمع

همس الحبّ يعلو خطواتها؛

ومن تقشُّف الواجب الذي تخلص له بورع،

ستقول، وهي تقرأ هذه الأبيات التي تمتلئ بها كلّيًا:

«من تكون هذه المرأة إذن؟» ثُمّ لن تفهم.

وإذ سعيت إلى مزيد من المعلومات حول أرفيرس، وجدتُ أنّه كان كاتب عدل، وقد شرع في الحياة الأدبية فألّف في المسرحيات الكوميدية والهزلية الخفيفة بخاصّة. ويعتبر كتاب «ساعاتي الضائعة» (١٨٣٣) ديوانه الشعري الوحيد والرفيع جدًّا. ولدينا انطباع بأنّه قام بتجميعه، بحيث إن هناك مقطوعات ستة عشر متبعثرة، وبعضها في تكريم هيغو وموسيه، والآخر مقطوعات غنائية، عدا القصائد التاريخية. والسوناتة الشهيرة هي وحدها المعنونة بـ»سوناتة Sonnet»، لكن المفاجأة تأتي من عنوانها الفرعي: «تقليدًا عن الإيطالية». ماذا؟ كيف؟ ما الذي ينبغي فهمه؟... أيكون السرّ تقليدًا؟ أم يتعلّق فقط بالشكل المستعار من التقليد الإيطالي؟ «لروحي سوناتتُها...».

لسنا ندرك أكثر مما نعتقده. في نسخة ١٨٧٨ التي بين يديّ، ثمّة شاعر آخر هو ثيودور دو بانفيل .T de Banville، تضيع عنه لغته اللاتينية وهو يكتب المقدمة: يخلص إلى الافتراض بأنّ أرفيرس الذي عانى في حياته الحقيقية من سرّ غامض، قد وجد: «كل ما هو موضح في السوناتة باللغة الأجنبية فاضطرّ إلى ترجمته، لكن مع كلّ عبقريته ومع كلّ قلبه». ثُمّ وجد هذا التلاقي «مذهلًا ونادرًا». مهارة عجيبة ! سلامة نيّة دو بانفيل ! وإذا كان هذا صحيحًا، فمن تكون المرأة؟ جرى الحديث عن المدام هيغو، لكن الفكرة لم تأخذ طريقها. وإذ القصيدة مكتوبة على ألبوم ماري نوديي .M Nodier، فهل يعني أنها مُوجَّهة إلى هذه الأخيرة؟ قد يدّعي أرفيرس أنه «قلّد» بالفعل... لتضليل الشبهات! لغز. ونحن لا نعرف أبدًا ما إذا كان سرًّا أم لا، وأنّ ما قلّده ليس خطرًا. عدا أنّ حياته لا تتبيّن لنا، فهو يخبرنا بصريح القول في نهاية القصيدة الأولى من الديوان بأنّه «الشاعر». ورُبّما يكون كتمانُهُ قلّدَ مثل سرّه، غير أنّه أفلح، بحسرته العظيمة بلا شكّ، في أن يتجاوز كلّ توقُّع: لا نعرف شيئًا عنه، أيّ شيء آخر غير «أنا»ه.

داخل الصمت واللُّغز،

بمنأى عن العالم، بمنأى عن الأشرار،

إذ يتجاهلني، وإذ الأرض

لا تدرك منّي سوى أناشيدي:
بعين الحسد الفضولية
يحرص على أن يسرق حياتي
وأثرَ جميع خطواتي،
سأنجو بنفسي من الإعصار؛
مثل هذه العصافير في الظلّ،
حيث تُسمع ولا تُرى.

عندما تحكي القصيدة حياتَها

هل لنا أن نقترب بشكل أفضل من سرّ القصيدة إذا كان الشاعر يقولها في طور التكوُّن، وإذا كان يكتب السيرة الذاتية من وحي إلهامه، أو من وحي عمله؟

إنّ هذا لهو حلم بعض القرّاء: تلقي المسارّات، اقتحام ورشة الفنّان- كما لو أنّه لم يكن في نفوسهم، أي القراء، أنّه خيمياء يتمّ من تلقاء نفسه، وكما لو كان الشعر يمكن أن يُفسّر بالظروف أو يُفكّك في سلسلة من الأحداث أو الوصفات، وكما لو كان المزيد من الكلمات يمكن أن يعطي جوابًا عن كلمات القصيدة... إنّه بمثابة هديّة أتاحها بعض الشعراء لقرائهم. وقد نشر لامارتين Lamartine، بعد عام ١٨٤٨، طبعة لأشعاره في عدّة أجزاء «مع تعليقات». «يودّ الإنسان أن يرتقي إلى مصدره»، كما كتب في المقدمة. وهذا هو برنامجه:» انظروا كيف ولدت مع قطعة ما يُسمّى بالشعر داخل طبيعتي، وكيف أنّ هذه القطعة من النار الإلهية قد اتّقدت في نفسي بغير علْمٍ مني، وألقت بعض الضوء الهارب على شبابي، وتبخرت في وقت لاحق في الرياح العاتية من اعتدالي وفي دخان حياتي». ويلي ذلك حكْيٌ في عشرين صفحة يُطوّر هذا القماش: مشاعر الطفولة، قراءات، كتابات أولى، اتصالات حميمية في بادئ الأمر، ثُمّ النجاح... وبعد ذلك تتوالى القصائد، وكل قصيدة يعقبها إفادة تفسر ظروف تأليفها. قصيدة «الغدير»، هو وادٍ صغير يجري في دوفيني. قصيدة «الخلود»، أبيات شعرية موجّهة إلى امرأة شابة مريضة. بالنسبة لقصيدة «البحيرة»، انظروا رفائيل Raphaël (الرواية السيرذاتية المنشورة في عام ١٨٤٩ التي تصوغ هذه الواقعة الغرامية روائيًّا بكيفية أخرى). تتفتّت هذه القصائد، تِباعًا، إلى طُرَف. ويصير لامارتين هدّامُها السيري الخاص. وثمّة قصائد في حد ذاتها لا تقول شيئًا. والمنهج غير مدينٍ بأن يكون جيّدًا. فهذا ليس تاريخ الشاعر الذي يجب أن

يصنع، وإنّما تاريخ القصيدة.

وهذا إدغار بو E. A. Poe. ربما تعرفون قصيدته التراجيدية، الغراب (١٨٤٥): الشابّ الذي فقد محبوبته يرى الغراب يدخل عليه مساءً، ويستقرّ فوق باب بيته، فيجيبه بهذه الكلمة الوحيدة على جميع ما يُقال له: «Nevermore» («هيهات»). وفي ١٨٤٦، بعد عام من ذلك، ينشر بو مقالة يكشف فيها كيف كتب هذا النص. ويبدأ بالاستهزاء من أسطورة الإلهام التي يخفي خلفها الشعراء أعمالهم الشاقة ومحاولاتهم المتعثرة وتردُّداتهم. وهو، نفسه، يقول بأنّه يعرف ما يفعل ولا شيء طارئًا عنده: «إنّ عزمي يكون بالبرهنة على أنّ أي نقطة في التأليف لا يمكن أن تُعزى إلى المصادفة أو إلى الحدس، وأنّ العمل سار، تدريجيًّا، نحو حلّه مع إتقان المشكل الرياضي ومنطقه الصارم». وهكذا يُطلعنا على الحكي السيرذاتي لعمله؛ وأوّل ما اختاره هو الأثر قيد إنتاجه، مستنبطًا منه الوضعية والشخصيات والإطار، بل كذلك الكلمة التي تخدم اللازمة، والإيقاع المتبنّى (البيت التفعيلي trochaïque)، ثُمّ شرع بترتيب النهاية، ليؤلّف بعد ذلك القصيدة عكسيًّا في تناقص لارتفاع الصوت بالتدريج، وهو ما يرسل للقارئ معنى معكوسًا يتمثّل في التصعيد الأخاذ والتشويق والارتقاء بقوّة، على نحو هيتشكوكي!

يقوم بو Poe بتفسير رائع للنصّ، يعرض مبادئه في «فلسفة التأليف» لصالح الحكي السيرذاتي الذي لا يمكن أن يُؤخذ بمحمل الجد إلا من الوسط، لكنّما هو حكي ساحر. وأنا أعيد قراءته، أخذت أحلم: لماذا لا أكتب، في مكان لامارتين، البرهنة الرياضية بالطريقة التي كتب بها قصيدة (البحيرة)؟ لأنّي أشاهد عن كثب «ميكانيك» تشظيّاته، أصدائه وانعكاساته، إيقاعاته وتجانساته، المضبوطة بالميليمتر تقريبًا. لا، إنّه لا تكفي جولةٌ بالقارب مع المدام شارل، المُسمّاة أولفيرا؛ فإنّ ثمة، لو أيقنتم، ساعاتٍ وساعاتٍ من العمل في الورشة.

يذهب إدغار بو أبعد، ونحن قلّما نفكر في ذلك، ولكن هناك شَيْئًا من الصّحة في هذا الخطاب الذي يُذكّر بأنّ الشعر صنعة، وأنّ لعمل الشاعر تاريخًا، وأنّ كل هذا يمكن أن يُحكى، حتى ولو كان الحكي الذي نقوم به لا يستنفد معنى ما أبدعناه، وقلّ أن يستبدله. وتحت هذا العنوان «تكوُّن القصيدة»، ترجم بودلير Baudelaire نصّ بو؛ وتحت هذا العنوان «مقاطع من مذكّرات القصيدة»، أعطى بول فاليري P. Valéry سلسلةً من التأمُّلات حول عمله الشعري. نذكر من ذلك: «دائمًا ما صنعت أبياتي وأنا مُراقبٌ لما أصنعه»، أو: «أعترف أكثر من مرة أن العمل يَهمُّني بشكل لا نهائي بقدرما يهمّني منتوج العمل». يُقيّد ملاحظات في دفاتره، لكن لا يرعى نسق يوميات إبداعه. ويستحضر اللحظات المحدِّدة لكتابته «بارك الشابة» و«المقبرة البحرية»، لكن دون أن يصنع منها مَحكيًّا بوليسيًّا على شاكلة بو. رغم كلّ شيء يحلم بالسيرة الذاتية لإبداعه...

وقلّةٌ هم من في مثل جيد Gide الذي كان يُدوّن، في العصر نفسه، يوميات روايته «مزيّفو النقود» في أثناء تحريره إيّاها. وتحت هذا العنوان «مصنع المرج»، يقترح علينا فرانسيس بونج F. Ponge بدوره طريقًا مختلفةً تمامًا للولوج إلى كواليس الإبداع، وخلق العمل نفسه من هذه الكواليس. وبعد ذلك، يعرض علينا ببساطة أن نقرأ النسخ المتعاقبة للنصّ ذاته، وصف المرج، مرج اللغة الذي يُصنع من الكلمات. وعلينا أن نكشف ما يحدث من مصنع إلى آخر...

إنّ هؤلاء الشعراء المُتنبّهين لعملهم هم أنفسهم يعلمون، بطريقة أو بأخرى، «مضايق الإبداع»- لأجل أن نستعيد عنوان المجموعة الشهيرة التي أطلقتها دار النشر سكيرا Skira، التي قدّمت العديد من الكتاب، بمن فيهم الشعراء، لمناسبة التأمُّل في تاريخ عملهم... ألا يُدْرج ما يقترحه الصحافيون والنقاد على المبدعين من «حوارات» تحت الشكل المتدهور؟ وتحت الشكل العالم، هل يدخل ما ترصده فرق «علماء الأدب» في المركز الوطني للبحث العلمي (CNRS)، وهم يستقصون «ما قبل النص» ومسودات بعض الشعراء؟ يوجد الكثير من الناس يتحلقون حول الشعر لكي يخبرهم بقصّته، ويعبر بهم إلى الاعترافات: أحيانًا الشاعر نفسه، قراؤه، شُـرّاحه في الغالب. لكن الشعر يتفلّت من السيرة الذاتية وينجو بنفسه على أصابع قدميه.

«ما تقوله لي الكلمات...»

"بعد أن كنتُ شاعرًا (وهو يحلم بالعيش كواحد من أبطال الأسطورة) سأصير مؤلف محاولات سيرذاتية أمينة رُبّما مثّلت وجهًا للدفاع عن هذا الجنس الأدبي وإشاعته.»

هذا الكلام هو لميشيل ليريس M. Leiris كان قد كتبه في العام ١٩٦٦ (Fibrilles, p. ٢٥٦) ، ولا أتفق معه فيه. فهو يقيم هنا بين الشعر والسيرة الذاتية، داخل تاريخ كتابته الخاصة، علاقة تتابع (الواحد تلو الآخر) وتعارض. إنما العكس، فقد صهر الشعر والسيرة الذاتية في الفعل نفسه وقادهما معًا حتى النهاية. ضربة عبقرية لا تزال إلى اليوم، وبالفعل لم تستخلص النتائج بعد. «دفاع وإشاعة»، شبيهًا بما قال دو بيلاي du Bellay وأصحابه عام ١٥٤٩: كفى من الشعر باللاتينية، اللغة الميتة؛ ولنكتب الشعر باللغة التي نتكلّمها، لغتنا في جميع الأيام، فهي لغة جميلة، غنية ولذيذة ! والتخييل la fiction الذي قد يتظاهر في المكتبة بكونه اليوم لغة ميتة، هل هو النثر الحقيقي لحيواتنا الذي يمكن أن يقودنا إلى الشِّعر؟

«لا تنتج كذبة جميلة، بل حقيقة تكون جميلةً من كذبة أجمل. حاوِلْ أن تصل بواسطة الكتابة إلى شيء حقيقي يغدو مفعمًا باعتباره تَخْييلًا مدهشًا.»

هذه الأسطر القليلة التي كتبها ليريس تذهب أبعد وهي ترفع الحجاب عن لعبته. كيف فعل؟ يحسن أن نماثله بروسو Rousseau الذي قال بأنّه وجب ابتكار «لغة جديدة تبعًا لمشروعها». كلُّ شيء بدأ بالألعاب الشعرية على الكلمات التي اكتشفها وهو في عامه الرابع والعشرين، عندما كان سوريياليًّا رفقة ديسنوس Desnos وكلِّ العصابة. خُذْ كلمةً وعرّفها بطريقتك مع كلمات أخرى تعيد ترتيب الأصوات والحروف التي تتشكّل منها. تخلق الكلمة استدارة، وتسقط ثانية على قدميها، إن كانت هي نفسها أو مُتحوّلةً.

«الشعر: اختزْتُه لعروسٍ، أو لتحليلٍ نفسيٍّ بالأحرى: هفوات تجمّعتْ بواسطة الأريكة- السرير.»

هذا دورك، حاوِلْ. اِختَرْ كثيرًا من الكلمات التي تحبّها (أو التي تمقتها، وتنتقم منها). ستقودك إلى قلبك نفسه.

«وإذ نُشرّح الكلمات التي نُحبُّها، من غير أن نعبأ بمتابعة لا الإيثيمولوجيا، ولا الدلالة المُسلّم بها، سنكتشف قواها الأكثر خفاءً والتشعُّبات الغامضة التي تستشري عبر اللغة كلِّها، التي تُجمِّعها تداعيات الأصوات والأشكال والأفكار. وهكذا، تتحوّلُ اللغة إلى وسيط وحي، ويكون بحوزتنا (إذا ما اقتضى الأمر ذلك) خيْطٌ لكي يرشدنا داخل بابل روحنا.»

هذا التقديم الذي كتب عام ١٩٢٥ لديوانه: «الفهرس: حيث أضع ملاحظاتي اللغوية» (المجموعة التي تضمّ هذه الألعاب على الكلمات)، وهو بمثابة مفتاح لكل عمله السيرذاتي: «عصر الإنسان» (١٩٣٩)، الأجزاء الأربعة من «قاعدة اللعب»، «تشطيبات» (١٩٤٨)، «أمشاج» (١٩٥٥)، «ألياف» (١٩٦٦)، «جلبة واهية» (١٩٧٦)، ثمّ يليها: «شريط في جيد أولمبيا» (١٩٨١) و «من القرن الأفريقي يصرخ» (١٩٨٨).

يتمثل مبدأ هذه السيرة الذاتية الجديدة في إعادة وضع الحكي والحجاج في مرتبة ثانوية، واتخاذ تداعيات الأفكار والكلمات مُحرِّكًا رئيسيًّا. فقد جرّب ليريس تقنيات مختلفة: المونتاج (عبر تضافر بسيط إن أقل أو أكثر) في «عصر الإنسان» والأجزاء الأخيرة ابتداءً من «جلبة واهية»؛ التجديل (ربط سلسلة من «الجذاذات» بواسطة شبكات تداعيات الأفكار المسببة للدوار) في الأجزاء الثلاثة الأولى من «قاعدة اللعب». أي أن يخلق العمل الشعري نفسه من التفكُّك- إعادة التركيب بناءً على وحدات المعنى الأكبر بكثير من الكلمات، وهو العمل الذي يسمح بالتفتح والارتياد بلا اختزال أو حدّ. وذلك ما يثبت على ميدان الحقيقة الخطير، ويقصي التخييل. ويجب أن نكفّ عن الخلط بين الفنّ والتخييل، فإنّه يوجد فنٌّ الحقيقة.

«نوع من الرواية البوليسية هو بمثابة خزنة للذكريات. سوف ينصبّ التركيز ليس على الذكريات

نفسها، ولكن على بحثها. فالذي يجب أن نمرّ إليه في المقام الأول، ليس العاطفة القديمة التي أسعى لإعادة بنائها، ولكن العاطفة الحالية التي أشعر بها تشاركني في هذا البحث. هكذا فإن سبب هفوة كل المذكّرات يُعثر عليه مقصيًّا: ما أسعى إلى تثبيته ليس هو الواقعة مثلما حدثت، بل الواقعة مثلما تشوّهت الآن، باذلًا قصارى جهدي لقياس الهامش الذي يفصل بين الواقعة كما هي اليوم وأتخيّل بأنّها الواقعة الأصلية...» (الإنسان بلا شرف، ١٩٣٧).

وضع التلفُّظ في المركز. التخلُّص من الطابع النهائي (والميّت بالتالي) للحكي أو للحجاج عبر تبنّي شكل التنويع الموسيقي على سبيل التمثيل...

«بما أنّه قد يكون هناك نقصانٌ (قطْعٌ يحول دون أن تُخلق الفكرة التي يمكن أن يكون عليها المجموع)، يتمُّ الشروع بعرض الـ»ثيمة»- أي سرد الطرفة الصرف والبسيط-، ثُمّ يكون في شكل تنويعات (انظر: «فنّ الهروب» لباخ Bach ، و»تمارين أسلوبية» لكينو Queneau) يتمّ إعداد متوالية من التعليقات والاستطرادات، الوثائقية أو التأملية حينًا، والغنائية حينًا آخر. ومثل هذه المتوالية التي توجد متقطّعة هنا أو هناك فليس لها إلا أهمية ثانوية، بحيث لا يوجد طريق نحو «النهاية» وإنّما انتشار بسيط» (يومية، ٢٦ سبتمبر ١٩٦٦).

بيد أنّ هذه التنظيمات يمكن أن تأخذ أشكالًا أخرى، بما في ذلك شكل الباقة اليابانية، المؤلَّفة بأناة مثل دانتيل أزهار، حيث لا يبدو الفضاء مُشْبعًا:

«... لكن هل يحوز عَيْنًا أبدية وهو يمزج بين الأزمنة ويُكثّر وجهات النظر ويؤلف بين النغمات ويقابل بعضها ببعض كما تأملون ذلك؟

قضية الترتيب، إذا أردنا القول، إنّما تكون، بالطريقة التي نرتّب بها في اليابان عددًا صغيرًا من الأزهار بأناة من غير أن نذيبها في وفرة الباقة، من أجل بهجة النظر- أو من أجل سلامه-، مع بعض ما يحدث أدناه (جلبة واهية، ص ٣٩٩).

كتابة شذرية، مونتاج، بحث عن الحقيقة التي تتفلّت من قبضة المحكيات العادية، مكانة محفوظة بسخاء لتعاون القارئ: إنّ هذا ما نجده كذلك لدى شعراء السيرة الذاتية الآخرين من أمثال كلود موریاك في «الزمن الثابت»، بيريك Perec، روبو Roubaud... إنَّهم مُلْهِمون كما الشعراء الحقيقيّون، وعملهم هو بمثابة الورشة التي تُرغّبك في أن تكون طيّ العمل وأن تبتكر السبيل الخاصة بك داخل اللغة. في أحد دواوين ليريس الأخيرة يُسمّى «اللغة الهزّازة أو ما تقوله لي الكلمات» (١٩٨٥)، نقرأ: فَلْنَدَعِ الكلماتِ تتماوجُ بنا.

إحالات المترجم:

١)- نُشِر النص لأول مرة بمجلة (Faute à Rousseau) عدد ٢٩، شباط/ فبراير ٢٠٠٢)، وأعيد نشره في نسخة «الميثاق السيرذاتي» المُنقّحة (٢٠٠٥)، في فصل بعنوان: «السيرة الذاتية والشعر. وبقدرما يمثل النص فهمًا جديدًا لعلاقة السيرة الذاتية بالشعر لدى لوجون، بعد أن تناولها لأول مرة في دراسته «ميشال ليريس. السيرة الذاتية والشعر» (١٩٧٥)، بقدرما يحمل الكتاب برمته مراجعاته عن جنس السيرة الذاتية، وتعريفها بالأخصّ. انظر:

- Philippe Lejeune, « Autobiographie et poésie », in : Signes de vie, Le Pacte autobiographique 2, Seuil, 2005, p. 45.

٢)- هذه الكتب الخمسة بعناوينها الأصلية، هي:

Robert Baratte, Au creux de mon enfance (La Pensée universelle, 1981). Marguerite Dassé, Mémoires d'une enfant de gemmeur au début du vingtième siècle dans la forêt landaise (Éd. Jacques Brémond, 1999). Hubert Lesigne, Un garçon d'Est (L'Harmattan, 1995) et Les J Troyes (autoédité en 1999, APA 1164). William Cliff, le volume bleu de son Autobiographie (Éd. de la Différence,1993).

3)- GREPON (Marguerite), Registre du logeur - Histoire en forme de poésie, Edité par Ed. Janus Paris 1956.

٤)- هذا المثل المستوحى من المثل العربي المعروف «أحشفًا وسوء كيلة» الذي يُضرب لمن يَجمع بين خَصْلتَيْن ذميمتَيْن، رادفنا به المثل الفرنسي الشهير الذي أورده في الأصل، وهو:

« À cheval donné, on ne regarde pas les dents ».

٥)- في الندوة النقدية التي انعقدت بمرسيليا (جنوب فرنسا) يومي ١٧ و١٨ نونبر من عام ٢٠٠٠، تحت عنوان: «حصّة السيرة الذاتية داخل الشعر المعاصر: أيّ تجديد؟»، سعى المتدخّلون فيها من نقاد وشعراء، هم: إيف شارني، إيمانويل لوجيي، جان ميشيل مولبوا، جان دايف، ليليان جيرودون، شارل جوليي، باتريك كيشيشيان، هوبير لوكو، ناتالي كانتان، أوليفيي باربان، ميشيل ديغي، هيدي قدور، جان-فرانسوا بوري، إلى بحث مسألة العلاقة بين الشعر والسيرة الذاتية اليوم، والتفكير في الوشائج التي تجمع بين ذات الكتابة والذات الواقعية، ومسألة المسافات بكلّ معاني الكلمة: المسافة بين الممارسات الكتابية والأوضاع النظرية، بين الذات ونفسها، بين الذات واللغة. وقد حملت الندوة في موائدها المستديرة التي افتتحها وأدارها إريك أوديني ودومينيك راباتي، العناوين التالية: حصة السيرة الذاتية في الشعر المعاصر: تجديد؛ النثر/ الشعر: أي تقاسم؟؛ موضوعات السيرة الذاتية؛ السيرة الذاتية باعتبارها فخًّا. وقد نُشرت وقائع الندوة في كتاب صدر عام ٢٠٠٤، انظر:

Éric Audinet, Dominique Rabaté , Poésie & Autobiographie,éd. cipM, juin 2004.

٦)- الجمعية من أجل السيرة الذاتية والإرث السيرذاتي (L'association pour l'autobiographie et le patrimoine autobiographique, APA)، جمعية ذات نفع، أنشئت في العام ١٩٩٢، وأسسها فيليب لوجون. ويوجد مقرها في مدينة أمبيريو- أون-بيغي (شرق فرنسا). وتتلقى الجمعية كل كتابات السيرة الذاتية غير المنشورة، وتعقد مرة في العام «أيام السيرة الذاتية»، كما لها إصدارات مكرسة لحقل السيرة الذاتية.

٧)- بنثيسليا (Penthésilée): في الأسطورة الإغريقية، هي ملكة الأمازون.

٨)- (Vale Vale et me ama).. عبارة لاتينية تعني: إلى أن نلتقي أحبّيني.

حين تعود الرواية العربية إلى الشكل البدئي
ـ أدول ويخلف أمام اختبار ـ

أحمد المديني

تحظى الرواية الآن بموقع الصدارة في الأدب العربي، منتزعة قصب السبق من جميع الأجناس الأدبية التي جاورتها في النشأة حديثا، كالقصة القصيرة، أو فن المسرحية، وما سبقها، في أساس تراثنا، أعني الشعر، ما فتئ يتطور ويتبدل لبوسا وحِلية و إيقاعا، إلى أن صار ما هو عليه، مستحسنا أو مقبولا، أو إلى بوار بلا قراء. بينما سوق الرواية نافقة، وهي تحفل بالغثّ والسمين، وغلبةُ البضاعة الأولى لا تمنع من تراكمها، وتَسيُّدها أيّ حد.

من اللافت للنظر- نقديا وإعلاميا، أيضا- أن الانتباه للكثرة كتابةً وإقبالَ دور نشر على تداول هذه البضاعة غطى ويتفوق بكثير على ما ينبغي أن يحوز الاهتمام، محطّه الأنساقُ الفنيةُ والقيمُ الدلاليةُ التي تنتظم وتعمل داخل هذا الجنس بتعالق مع الأوضاع السوسيو تاريخية، حيث يُنتج ويتشكل ويُستهلك، طبعا. من نافل القول أن عامل الجوائز(الأدبية) ساعد على هذه الفورة، لكن تأثيره يبقى في العمق محصورا غالبا في سياق استهلاكي، ظرفي، ولا يُنظر إليه، أو يُستثمر نقديا لمعرفة أسباب" الإنتاج" الأدبي، بمصطلح ماشيري، وما ينبثق عنه من نسق ناظم للعملية، بمفهوم بورديوو، ما همّ هنا التصريحات الجزافية لبعض الكتاب، خاصة من يتنطعون بشهرة طارئة وبنوع من الابتزاز الخادع لما يُسمى هموم القارئ (كذا).

العبرة والصيد الحقيقي في جوف الفرا (النقدي) بات من أسف كأنه بعيد المنال ـ خارج المدرّج والبحث الجامعيين ـ وإليه ينبغي في النهاية الاحتكام، وبواسطته يلزم تتبع حال/ أحوال الرواية العربية، أصنافا وأشكالا ومدارات، إذا كنا نريد حقا معرفة وضع وقيمة هذه الرواية، خارج، وأبعد من ضجة زفاف الجوائز، ولا التقريض والإطراء، من وجه وآخر. في هذا الصدد تحديدا يمكن رصد

وترتيب الثيمات الكبرى التي انشغلت بها الكتابة السردية العربية، الحديثة، لنراها في تبلورها الناضج قد انضوت، أولا، ضمن التاريخ الاجتماعي، الجيلي والطبقي، في إطار وفضاء المدينة، المثال الساطع لها عند نجيب محفوظ وتلامذته، استغرق وقتا طويلا، يتناسب مع بطء وتيرة التطور العربي. وثانيا، نزوع الثيمة الفردية بين تبعثر اللُّحمة الاجتماعية وتصاعد الأزمات الذاتية، يوازيهما انقلاب في البناء واللغة والشكل، لنعتبر التجريب مُسمّاه العام، ضمن التجديد والقطيعة. وثالثا وبتساوق مع تحولات العالم وانعكاساتها على محيطاتنا، نزوع الانكباب على موضوع الهويات والقوميات الصغرى (الأقليات المضطهدة أو المهمّشة من قِبل القوى المهيمنة في العالم العربي بذريعة إيديولوجيات مختلفة) حظي بتزكية (نقدية) من محافل (أدبية) بصرف النظر عن القيمة الفنية. يليها رابعا، في المحفل الثيمي هذا التكالب العشوائي، نوعا ما على ما تسمّى(الربيع العربي) وانقلب ويتقلب بين الأقلام مناسبةً ومادةَ لسرد واصطناع محكيات وحوادث ونفث لمكبوتات من زمن القمع العربي الطويل، بمثابة نسج روائي يختلط فيه حابل بوح الذاتيات المتورمة، بنابل الغضب والشعارات والتقارير الفجّة بلغة عارية متهادية، بضاعة رائجة إلى حين.

والحاضر هو المحفل الأخير، الصاعد، بالأحرى العائد من زمن آخر، استعاده السرد الغربي، قبله التفكير الاستشراقي المحدث، مدارسُه شتى، العجائبي والنوستالجي، أقرب إلى الفولكلوري غالب فيه، ومهاد للسرد اللاحق عليه، ونحن العرب ـ كدأبنا ها نحن نلتحق به.

فإلى جانب السرد السِّيَري والتخييل الذاتي يلحظ المتتبع للرواية الغربية عامة، الفرنسية خاصة، أنها انصرفت إلى الحفور التاريخية في ذاكرة وثقافة ومخيال الشرق، منه العربي، أضحى منجما تُستنبتُ منه الحكايات، وأفقَ خيال لابتداع الأحلام والاستعارات، كأنه قصيد. وباقتضاب، فإن رواية ماتياس إينار "البوصلة" المتوجة بغونكور هذا العام، خير مثال. أصبح الشرق مضمارا للعب(السردي) وملاذا لنشاط التخييل، كأن الواقع عقيم، والماضي وحده ـ يا للمفارقة ـ هو رحم مستقبل الإنسان. وإذا كان هذا النشاط قد تجلى في عديد نصوص روائية، في العقد الأخير، عند كتاب مغاربيين أساسا(أحمد التوفيق؛ سعيد بنسعيد؛ واسيني الاعرج..) فإنه يزداد تبلورا، بالأحرى تحددا وتجنّسا، مُحدِثا خلخلة أو بلبلة في النوع الروائي الناهض على البنية التاريخية وبركوب موجتها حدثا أو قناعا(استعارة) تُحيل لما بعدها: ك"شوق الدرويش"، للسوداني زيادة، انتقالا لجعل(الحكاية) القالب الفني، والإبدال السردي الأول، عن نسق السرد ذي المرجعية التاريخية، أو المستثمر لفاعليتها بشكل من الأشكال.

القصد بالحكاية هنا، لا المادة الخبرية، ونظيرها مما لا غنى عنه في فن القصة، وإنما هذه المادة ذاتُها إذ تُروى وفق مقتضى مخصوص بها، أي خارج نطاق النسق والبناء السردي (الحديث) حتما، تتصل بنوعها(الشفوي) وعالمها(الرعوي، الريفي، الرومانسي والخرافي، الأسطوري) المحكوم بالفطرة لا

بالعقل، وصنعةً بإفراط الخيال، لا تقنية وجنس "التخييل". وهو ما نريد في هذه المقالة أن نمثل له، ونتخذ من نصه أداة استدلال، من خلال عملين حديثي الصدور، وجديرين بالقراءة والمتابعة، لا سيما أنهما لروائيين ذَوَيْ باع في هذا الفن فيأتي عملاهما ضربا من الانزياح وطريقة اجتهاد في كتابة الرواية العربية المعاصرة، تنقلها إلى صعيد انتقالي، يضاف إلى المراتب الأربعة المصنفة أعلاه ثيمة ورؤية أيضا. الأول:" كديسة" للمصري (النوبي) حجاج أدول (دار العين،٢٠١٥)، والثاني:" راكب الريح" للروائي للفلسطيني يحي يخلف (الشروق،٢٠١٦).

إن الروايتين كلتيهما ينظُمُهما جامع مشترك ثلاثي الأطراف، أوله، هو فضاء الشرق، وثانيه، محكيٌّ تاريخيٌّ مرجعُه وبطولته مشرقيةٌ أو امتداد لها، ثالثُه مبنَى، أو قالبُ (الحكاية) إذ ليس تجنيس الغلاف إلا تسويغا. جامعٌ ينسجم فيه الشكل حقا مع المضمون، وبهذا التكافل يتحقق التناغم المطلوب في مفهوم الجنس الأدبي. إن الروايتين معا تستمدان مادتهما من مخزن البطولة الفردية(الفروسية)؛ تغزل نسجهما خيوط تاريخ مضى هو موطن الصراع فيهما؛ وتتحركان في فضاء مطلق، بعضُه ممكن(واقعي خام) وكثيرٌ أسطوري، وهو حتما بعيد عن شرط واقعية الرواية الحديثة؛ والمعنى المبتغى فيهما يدور حول عالم مُثل(مفتقدة في الحاضر) والتطلع لاسترجاعها(نزعة مثالية) والحكائية الشفوية (الفطرية) هي مبناهما، نقيض السردية الكتابية (العقلانية) بنت عهد وجنس حديثين.

في " كديسة" نتتبع أسفار ومغامرات سلالة بن فكتور، من خلال أبنائها كلود، وكلود الثاني(السمين) والثالث(الفرنسيسي)، وانتقالهم من مرسيليا إلى الضفة الجنوبية للمتوسط، غُزاةً أولا، ثم تجارا ورحالة مكتشفين للشرق. ثلاثتُهم يمثلون سِيَرا ويخوضون تجارب، ويتقلبون في محن ومفاجآت، يتعرفون على وجوه ومعارف من ثقافة ومعيش مصر، شتى، انطلاقا من دمياط والإسكندرية، حيث يتبدى الاختلاف بين حضارتين، ويقع التركيز على العقيدة الدينية كمفترق طرق في الاقتناع والصراع بين الشعوب، وفي آن مجال تجاذب للحوار، بواسطة حبك العقدة الغرامية، محمولة على صهوة الفروسية والشطارية (البيكاريسك) المعهودة في الرواية التاريخية، بتقاليدها المتوارثة عن والتر سكوت (غربيا) وجورجي زيدان (عربيا). يفضي مسلسل المغامرات، من كل نوع، إلى(النهاية السعيدة) ليتوج الدلالة المركزية لهذا المحكي التاريخي، المستعاد في قالب حكاية، نزعتها الشفوية جليةٌ ويعنيها المؤلف لغةً وتراكيبَ وأسلوبَ سرد، فضلا عن تعدد الرواة والمتدخلين على رأسهم رئيس جوقة هو راوي الحلقة، يدشنها من الصفحة الأولى بعبارة:" من زمن مضى قامت بلاد الفرنجة بشنِّ حملات مسلحة على بلاد العرب في ضفة البحر الجنوبية"(٧) تنتهي بحميدو ابن كلود الآخر يخاطب إيفون:" بحبنا لبعضنا وتماسكنا، سنعمل على ترسيخ رسالة المحبة والسلام بين

شاطئي البحر الوسيط. سنعمل على بثِّ السماحة بين المسيحيين والمسلمين واليهود" (٢٨٨).

في " راكب الريح" يسرد علينا يحيى يخلف، بالأحرى يروي حكاية من يافا يرجع تاريخها، كما صنعها إلى سنة ١٧٩٥ حيث يعيش (البطل) يوسف مع والديه في هناء، ويترعرع في كنفهما يتعلم صنائع فيمْهَرُ في فن الخط بأنواع. فتىً مليحٌ وبعلامات ذكاء وشجاعة تبلغ حد الخارق، من قوة داخلية تحوله إلى نار وشهاب وقوة عاتية. بهذه الخصال يكبر في يافا موصوفة كجنة عدن، تعيش في دَعَة وسلام، إلى أن يتحرش الإنكشارية بأهلها فيتصدى لهم يوسف(الفارس) الذي كان قلبه تعلق سيدة ذات جاه وجمال لا يطال، واضطر للرحيل إلى دمشق بعيدا عن يافا، ليتقن فن العمارة والزينة، وفيها سيتقلب طبعا في مغامرات تجبل شخصيته ويتعرف على أشخاص ولغات تقوده للرحلة إلى آفاق بعيدة عن موطنه فيكتشف سحرا ولغات ويتفاعل معها بعطائه الخاص، بما يظهر تلاقح الثقافات، ودائما في جاذبية الغرام والحنين إلى معشوقته (العيطموس) تسهب القصة في عرض مشاهد الحسن والجمال للمخلوق والطبيعة بأبدع وصف من قاموس مسكوك وبلاغة تليدة، وبحنينية جارفة لا يخلفها حسّ التلقي، سيما من كاتب فلسطيني، نحو أرض فلسطين التي ضاعت، كما الأندلس أمس. فيما يبدو أن الأهم والأبقى في" راكب الريح" يكمن، كما عند أدّول، في الرسالة: الدعوة إلى حوار الشرق والغرب، ونشر التسامح والتعايش بين الحضارات والأديان،(كذا).

فإن ابتغينا الخلاصة، والاستخلاص، قلنا إننا مع هذين العملين، بتجنسهما الروائي المعلن، نرى الرواية العربية تتجه لتصبح مصبوبة في قالب الحكاية، النوع الشفوي القديم، كأنها تعود إلى النسغ الأول. ونراها انسجاما مع هذه العودة تقترن بالعبرة والتبشير، نصا تعليميا. ثم إن هذا الالتفات إلى التاريخ، في وجهه المشرق المنتصر، يطرح بديلا لحاضر مهزوم، منهار، وتأتي معه الدعوة إلى التسامح والتعايش خطابا مواجهةً لسلوك التعصب والتطرف في حاضر مشين. حين ظهر باولو كويلو وراح يعصر بقوة فاكهة حكايات ويؤسطر وقائع ومشاهد عادية، من روح الشرق وخيال ألف ليلة وليلة وما دونه بكثير، حصد نجاحا باهرا، لدى قطاع كبير من قراء عاديين، واجدين لديه ملاذا لخيبات وتعويضا عن خصاص. عاد كويللو إلى الأشكال البدئية ورؤاها، لا يبدو أنه يحفل بالروائية، ولا هي به، ما نرى أدول ويخلف يستأنفانه، فيما أحسبهما برصيدهما الروائي الثمين يعيان أنهما يكتبان اليوم، من حيث بدأت الرواية العربية أمس. أم أن الروائي العربي، في مسار تجربة لا تكف عن التبلور والنمو، يطرح صيغة الحكاية بما يتبعها ويوافقها ، إذ الشكل له مضمون، تمثل عنده الإبدال الممكن، كأنه استنفذ الجنس الأدبي العصري، في عصر الخراب والتعصب والتطرف، ولكي يبلغ رسالته لا يجد أفضل من اعتماد الفطرة طريقة و التبشير خطابا، بدل مواصلة نهج طريق الرواية(الفنية) الإشكالي، كم طويل وصعب سلمه دائما؟ ذا سؤال مفتوح على أسئلة.

فصل من رواية "الصخرة" *

فيصل حوراني **

يوم طويل, من غزّة إلى عمّان, من الوطن إلى المنفى مرة أخرى, المنفى الذي يبدو أنه لا مفرّ منه. امتطيت خيبة أملي, أو لأقل إن خيبة الأمل هي التي امتطتني فيما أنا راجع إلى حيث تنتظرني أمي. نقلتني سيارة أجرة فيها سبعة مقاعد من مدينة غزّة إلى المعبر الذي أقامه محتلو وطني على أرض بيت حنون وسموه معبر إيرز, ماسحين بالإسم العبري المختلق الإسمَ العربي الأصلي للمكان. ونقلتني قدماي داخل معسكر الجيش الإسرائيلي الفسيح الذي تتوسطه إدارة المعبر. وبعد عذاب الإنتظار وعذاب التفتيش والتدقيق في الأوراق, ومع المهانات التي خبرتموها, نقلتني سيارة أخرى إلى أريحا. فجور العدو لا يرسم حركة ناس وطننا وحدها, بل يرسم أيضاً حركة السيارات التي تنقلهم. وبين بيت حنون وأريحا, عبرت السيارة بركّابها السبعة ما يعدّه الإسرائيليون أرض دولة إسرائيل وما يسمونه أرض- إسرائيل, هم الذين يستخدمون التسميات المزوّرة ممحاة لشطب إسم فلسطين. ومن أريحا, في باص ركاب كبير هذه المرة, بلغتُ المعبر الإسرائيلي الذي سأجتازه لأصير خارج وطني. معسكر إسرائيلي آخر فسيح, وإدارة معبر, وعذاب, ومهانات, لم أنخلع منها إلا منذ وجدتني على أرض الأردن, حيث أمكن أن أتابع السفر دون مزيد من المنغّصات.

مع الوقع الثقيل للوقت الذي انقضى بين معبرين إسرائيليين, مع دبق العرق والغبار, أمكن أن أجتاز أخطار الحواجز العسكرية الثابتة والطارئة التي يتصيّد جنود الإحتلال بها الفرص لتشديد عذاب

* هذا مقطع من رواية للكاتب لم تنشر بعد، يليه في العدد القادم المقطع الثاني من الفصل ١ في الرواية. عنوان هذه الرواية: الصخرة.

** كاتب من فلسطين

ضحاياهم. ومع الهواجس التي ظلّت تفترسني منذ غادرت عمّان قبل شهرين, تكثّفتْ رغبتي في أمل محا الآمال كلّها: أن أبلغ منزلنا في المدينة التي نشأتُ فيها وأستريح؛ إراحة الجسد وتهدئة أوجاع الروح والنوم وإطالة النوم, هذا هو ما أملتُ فيه. موجوع الروح يغرق في نوم عميق إن كان مبعث الوجع هو الإحساس بالقهر والخذلان كما هو مبعث وجعي, وهذا هو ما عوّلت عليه. غير أن فضول أمي أرغمني إرغاماً على إطالة السهر, أنا الذي بلغتُ المنزل مع غياب الشمس.

لم تنتظر المفاجأةُ بعودتي أن أتحرّر من الدبق, بل بدأ صوتها مناوشتي بالأسئلة وأنا ما أزال في الحمّام, ولم ترحمني بعد ذلك, بل اتصل مطر الأسئلة بالصوت والنظرات. فحكيتُ, وواصلتُ الحكي إلى أن أوهنت طراوة الليل لساني وتغلّب عليّ سلطان النوم. وقبل أن تشرق الشمس, قبل أن أستوفي حاجتي إلى الراحة , بدأت أمي محاولتها حملي إلى الاستيقاظ؛ تعيدني حاجتي للراحة إلى النوم, فيشدّني منطق العجوز إلى الصحو. وفيما هي تمسِّد وجهي وتعتذر عن إزعاجي وتُذكّرني بأن نوم الضحى يقطع الرزق وأن لا بدّ مما ليس منه بدّ, ظللتُ أنوس بين لحظة إغفاء وبين لحظة صحو, وظلتْ هي تكرّر المحاولة دون كلل وتعيد تذكيري بالسبب الذي يُرغمها على إيقاظي, فتداهمني الذكريات التي أفرّ منها.

لعلّ من حق من لا يعرفوني منكم أن أعرِّفهم بنفسي قبل أن أوغل في الحكي. أنا سالم المؤتمن, إبن هذه الأم التي لم يبق لي من أعيش معه في هذا المنزل سواها. تستحوذ عليّ الرغبة في البوح، وتتدافع الوقائع والصور في مجرى ذكرياتي, ولديّ الكثير مما أحكيه. وإذا تردّدتُ, فلأني لا أملك ما أدهشكم به, أنتم الذين خبرتم المدهشات كلَّها فلم يعد من السهل إدهاشكم.

أدرك أنه إن كان عليكم أن تصغوا إلي فعليّ أن أجيء بجديد. فكيف أجيئكم بالجديد ما دامت حكايتي مماثلة للحكايات التي تتداولونها كلّ يوم. لن أخترع شخصاً غير شخصي. لن أختلق حكاية غير حكايتي, لن أهوّل أو أكذب, ليس لأني مختلف عن الذين يختلقون ويهوِّلون ويكذبون ليظفروا بإصغائكم، بل لأني انتهيتُ إلى الضيق بما يشوّه الحقائق, ولم أعد أملك إلا القدرة على الصدق, وحده.

وأعرف ولعكم بتلوين حكيكم وإخراجه عن النمط المكرّر. لكني لا أملك تلبية هذا الولع. ولنقرّ: إننا مستغرقون في التكرار. استنفدتم الحكي على ما كان جديداً، وتوقفتم عن إتيان أيّ جديد، فلمْ يبق إلا المكرّر من الفعل والقول. ومنذ فقدتُم القدرة على الإبتكار، صرتم بحاجة إلى التهويل حين تكرّرون الحكي على ما كان منكم أو كان لكم. وها إنكم، كما انتهى إليه حالكم، تسردون حكايات متماثلة مفتقرة إلى الإبتكار حتى في مجافاة الحقائق, ولا تتنافسون إلا في الاستئثار بالحكي, وأنْبهكم

هو من يسبق سواه إلى سرد ما سبق أن سمعه الجميع. هل صار التكرار يمتعكم, أو هل هي الحاجة لتزجية الوقت منذ صارت أوقاتكم فراغاً, أو هو الحرص على إدامة الإحساس بالأهمّية فيما أنتم عاجزون عن إثبات ما يُقنع بأنكم حقاً مهمّون؟

ولماذا لا نتكاشف, أليس صحيحاً, والحال هو ما آل إليه حالنا, أن عليكم الإصغاء إليّ حتى لو لم أُتحفكم بجديد. وإذا شئتم أن تعدُّوا إصغاءكم إليّ مهمّة جليلة, فليس في هذا ضرر لأيّ أحد. والذريعة حاضرة فما أسهل أن تتكئوا عليها: فأنا رفيقكم, ورفيقكم مأزوم, وهو بحاجة إلى إفراغ ما يثقل عليه, وأنتم لم تبتعدوا كثيراً عن الوقت الذي أَلِفتم أن تعدّوا كل ما تفعلون فيه جليلاً.

إذا سألتم لماذا أنا أو لماذا حكايتي أنا بالذات, فما أسهل أن أوضح الأمر, إن كنتم بحاجة إلى توضيح. حكايتي أنا, أعنى الحكاية التي لا يتوفر لكم إلا ما يماثلها, هي ما تحتاجون إليه كي يتّصل الحكي, كي يستمرّ بقاؤكم بدل أن يعنّيكم الإحساس بالغياب. وما دمنا نتكاشف فلنمض في البوح؛ فحتى حين يقع ما يلهب أدمغتكم بالأسئلة فإنكم تبحثون عن إجابات تطفئ اللهب بدل أن تؤجّجه. إنكم تطفئون ناركم, وغالباً ما تطفئونها بالترّهات. ما أعجب ما آل إليه أمركم! تخشون وقدة الأسئلة لأن نارها تُحمِّلكم مسؤوليات لم يعد لديكم جَلَدٌ على حملها.

ما وقع مؤخراً، أعنى الحدث الذي كان من شأنه أن يبدّل مألوفكم، أطلق أسراباً من الأسئلة، وأوقد نيراناً كان ينبغي ألا تنطفئ، غير أنكم لم تُبدّلوا عجيب أمركم حتى بعد هذا الحدث. وقد حاولتُ أنا الخروج على المألوف، حاولتُ، وأجهدت نفسي، لكني لم أظفر إلا بالحكاية التي أجيء بها إليكم، الحكاية التي ليس فيها جديد.

رُبّينا على الإيمان بأن كل ليل يعقبه نهار، لا محالة. قيل لنا إن الليل لا يدوم. وخُصَّ بالقول ليلُ الأسى والظلم، ليلُنا الذي ما أطول ما امتدّ وما أشدّ ما تراكم أساه. وركنتم أنتم إلى ما قيل وتواصيتم بالإيمان به والتعويل عليه. هدهد القول حاجتكم إلى التعلّل بالأمنيات فعلّقتم أمنياتكم عليه. لم تتهيّأوا لحالةٍ لا يطابق مجرى الحياة فيها قواعدَ الجغرافيا ووعودَ السياسة واستعارات الأدب. وحين بزغ نهارٌ بعد ليلكم الأول الطويل، لم تتصوروا أن يعقب هذا النهار ليل لا تبلغون نهايته. ومنذ أمضّكم التطلع إلى فجر لا يبزغ هلّلتم لكل فجر كاذب وأقنعتم أنفسكم بأنه أوّل النهار الجديد. وحين حُذِّرتم من زيف ما هلّلتم له، كنتم قد ألفتم التهليل للزائف واستمرأتم مخادعة النفس، وكنتم قد فقدتم ليس القدرة على التمييز وحدها، بل فقدتم أيضاً الرغبة في التمييز.

أنا واحدٌ منكم، انتشيتُ، مثلكم، بضوء الفجر الصادق الذي بزغ ذات مرّة. وسبحتُ مثلكم في ضوء النهار الذي غمر أرواحنا بأحلى الوعود. وبعدما وُئِدَ ذلك النهار، صار عليّ، مثلكم، أن أكابد

العتمات أو أتوسّم الضوء في بريق أيّ سراب. ألفتُ أن أُخدع، وصرت أُغالط نفسي بنفسي حين لا يخدعني سواي، وإذا لم يقترن السراب ببشائر خادعة، صرتُ أصطنع البشائر اصطناعاً. وانتهيتُ إلى ما انتهى اليه كلّ واحدٍ منكم، كففتُ عن التمييز بين الصدق وبين الخداع، وأدمنتُ صناعة الأوهام، وبمضيّ الوقت، غادرتْ أجنحتُنا منابتها، ولم يبقَ ما نحلق به إلا الأوهام، ونسينا أن الأوهام لا توقف الانحدار إلى القاع.

مع تفاقم المعاناة، غاضت الآمال الكبيرة الواحد تلو الآخر، فتشبّثنا بأمل السلامة وحده. حتى هذا الأمل لم يبقَ كما كان، بل تقلّص. كنا نبحث عن السلامة العامة، عن الحلّ الذي يعيد وطننا إلينا ويُمكّننا أن نعيش فيه أحراراً، فانتهينا إلى البحث عن السلامة الشخصية. وبإمكاني أن استبق سرد حكايتي وأُقرّ بأن أمل الظفر بالسلامة الشخصية بمعزل عن السلامة العامة هو أشدّ آمالنا شبهاً بالأوهام.

يجدر بي أن أروي الحكاية من أوّلها، بالرغم من أنها ليست فريدة. ولمَ لا أفعل، ألا تحكون أنتم وتكرّرون حكايات متماثلة! لو رأيتُ أنكم توّاقون حقاً إلى الجديد، لعددتُ هذا إشارة طيّبة، الإشارة التي تبشر بالتعافي وتخلّصني من الظنون التي افترست يقيني، ولمَا حلّ في جسدي وروحي الكلال الذي هدّهما معاً. ولو جئتم إلى الحق، إلى ما تعرفونه وتهملونه، لرأيتم في حالكم ما أراه أنا وقلتم ما أقوله. فحالكم فريد حتى وهو يماثل سواه، حالكم جماعة وحالكم فرداً فرداً. كيس بطاطا أنتم، كيسٌ طال احتشادكم فيه. أو، إن شئتم وإن جاريتُ ولعكم بتجميل ما ليس جميلاً، فأنتم كيس برتقال، كيس زيتون، أو كيس أيّ واحدة من الثمرات التي تتباهون بها وتعدّون التّباهي بها من سمات الوطنية. كل حبّة في الكيس تشبه الأخرى. وإن تمايزت حبّات عن سواها، فإن التشابه لا يُنتقص؛ حبّة صغيرة وأخرى كبيرة، واحدة ذابلة وأخرى عفيّة، واحدة معطوبة وأخرى سليمة، واحدة كامدة وأخرى لامعة، إلا أنها جميعها متماثلة. حالكم فريد حتى مع تكراره، تَماثُلُ تفاصيله فريد وكذلك اختلافها.

تقولون إن تميُّزكم سطع في تمكُّنكم من الاستمرار في الوجود بالرغم من جهود عدوّكم المتواصلة لإبادتكم، فيا له من قول! لكأن الذين شُرِّدوا من أوطانهم قبلكم أو بعدكم لم يستمرّوا في الوجود، أو لكأن الغجر أو اليهود الذين تعاقبت محاولات إلغاء وجودهم قد فنوا! تقولون إنكم قاومتم محاولات إبادتكم، لكأنكم لم تفعلوا طيلة حياتكم شيئاً سوى المقاومة، أو كأن غيركم أسلم رقبته طائعاً. نظّمتم حتى وأنتم في المنافي ثورة لم تكن أبداً مثل أيِّ ثورة. تتباهون بهذا كما لم تتباهوا بأيّ شيء سواه، فهو، إذاً، بيت قصيدكم، صدر هذا البيت وعجزه وإيقاعه المتميّز، الظاهر من معناه والمستبطن. الثورة التي أطلقتموها من منافيكم كانت مفخرتكم، فماذا بعد؟ هل تُحسبُ

الأمور ببداياتها أو بخواتيمها؟ بإطلاق شيء فاخر أو بالارتداد عنه؟ وماذا جنيتم من ثورتكم قبل أن توقفوها؟

أردتُ أن أبدأ الحكاية من أولها، فإذ بي قريبٌ من الخاتمة. وها هي ذي أسئلةٌ أملتها المرارات تعيدني إلى البداية. وفي بدايتي شيء ميّزني، شيء تذكّرته الآن فقط فوجدت ما ميّزني عن كثيرين منكم. فكلٌّ منكم ولد في مكان له إسم خاص به وسمات ينفرد بها. أما أنا فولدتُ في العراء، ولم يتحقق أحدٌ من اسم المكان الذي وُلدتُ فيه، ولم تحتفظ ذاكرة أحد بسماته. ولئن وُلد كل منكم قبل نكبة أهله أو بعدها، فأنا وُلدتُ في يوم نكبة أهلي بالذات. إنه اليوم الذي اقتلع الظلم فيه أهلي من يافا وأسلم الناجين منهم إلى دروب المنافي. وإذا توخّيتم الدقة، فإني ولدتُ في اليوم الذي اشتدّ فيه هجوم الهاغاناه اليهودية على مدينة أهلي، وكان مولدي على الطريق الواصل بين منزل الإقامة وبين خيمة اللجوء.

يومها، عزمتْ أمي على أن تنأى بجنينها وصغارها الذين وَلدتْهم قبلي عن الأخطار التي داهمت يافا. فغادرت أمي المدينة، فيما بقي أبي مع من بقوا ليدافعوا عن يافاهم. ولأن الأخطار اجتاحت الوطن بطوله وعرضه، فإن أمي اختارت أن تتوجه إلى عمّان لكي تلدني في مكان آمن. وعلى الطريق، في صندوق شاحنةٍ مكتظةٍ بأحمالها من البشر والحوائج، داهم الطلْقُ أمي، واشتدّ، فلم يبقَ إلا التوقف ما دام صندوق الشاحنة لا يوفّر متسعاً لقضاء أيّ حاجة. ولأن سائق الشاحنة رفض أن ينتظر أطول مما انتظر، فإن أمي وصغارها تُركوا في ذلك العراء لغموض العتمة التي استحكمت وهواجسها. وهناك وُلدتُ أنا. فلا تستغربوا أن المسكونة، في ساعة ولادتي، بالخوف والقلق والأوجاع لم تحتفظ في ذاكرتها بأيّ سمات للمكان ولا تيقنت مما إذا كان غربيّ النهر، أيْ في فلسطين، أو شرقيّة، أيْ في الأردن، ولا عرفت ما إذا كانت صرختي الأولى قد سُمعت قبل منتصف الليل أو بعده.

جئتُ إلى الدنيا أخاً لأربعة، صبيّ في الثانية عشرة وثلاث بنات أصغر منه. ومنذ ولادتي قُدّر عليّ أن أصير يتيم الأب؛ فأبي استشهد في ليلة مولدي قبل أن يعرف أن زوجته وضعت الصبيَّ المأمول بعد ثلاث بنات. وهكذا، لئن نشأتُ في ظروف قاسية، فإني ظفرت بما يتمتّع به آخر العنقود: حنان الأم الذي لا يوهنه شيء.

نشأتُ في مخيم للاجئين أنشأه طوفانهم الذي اشتدّ مع احتدام الصراع داخل وطنهم. نبت المخيم في عراءٍ في محيط عمّان، ونما، فنموتُ أنا مع نموِّه، وتدرجتْ أحوالي مع تدرج أحواله. أقمنا في البداية في خيمة. وحين بدأت أعي ما حولي، كنا ما نزال في هذه الخيمة. أما حين أُرسلت إلى المدرسة

الابتدائية، فإن الخيمة كانت قد استقرت صورة في ذاكرة الطفل وكان قد حلّ محلها البرّاكة المصنوعة من الخشب وألواح الزينكو. وحين انتقلتُ إلى الإعدادية، كان أخي الكبير قد وجد طريقه إلى الكويت وظفر بعمل في إمارة النفط هذه، ولم يبق عيش أسرتنا مرهوناً لما تُقدِّمه الأونروا وحده، وأنتم تعرفون ضآلة ما كانت تقدِّمه. انتقالي إلى الثانوية تمّ بعد أن كانت عمّان قد توسعت وصار مخيمنا واحداً من أحيائها الكبيرة وصار لنا فيه منزل هو بناء حلّ محلّ البرّاكة. منزل حقيقي، حجرة للزوار واثنتان للنوم وأخرى للمعيشة، ومطبخ وكذلك حمّام. وصار الواحد منا قادراً على التعّري في الحمّام أو التجول بين الحجرات دون أن يخشى عيون المتلصّصين أو آذانهم.

استمرت الحياة، إذاً، بعد النكبة. وللحياة منطقها الذي خبرتموه. فنوازع البقاء أقوى من محاولات الإبادة. تَثقلُ الأعباء إلى حدّ يصعب احتماله، تتراكم العقبات، وتنسدُّ السبل، إلا أن العازم على الاستمرار في البقاء لن يفقد القدرة على شقِّ المسارب. ولكَم كانت عزيمة أمي شديدة، الأم التي ترمّلتْ وهي في الثلاثين وأبت أن تتزوج ثانية، والتي خصّصت وقتها وجهدها وخبرتها لإخراج أسرتها من العوز. والحياة، حتى في أقسى الظروف، لا تخلو أبداً من فرص التمتع بالمسرّات. أختي الكبيرة تزوّجت ونحن ما نزال في الخيمة، فشهدت خيمتنا التماعات فرح، وشهد المخيم احتفالات. الأخت الثانية تزوّجت ونحن في البرّاكة، فشهدت البرّاكة وشهد المخيم فرحاً أدفأ واحتفالات أوسع. ولأن زوجيّ الأختين كليهما يعملان في الكويت، فإن أُختيّ انتقلتا إلى هذه الإمارة، فصار منامنا في الخيمة ثم في البرّاكة أرحب.

أما أصغر الأخوات، ساجية التي ما كان أشدّ تميزها واعتزازها بنفسها، فإنها تابعت الدراسة حتى أتمت الثانوية وتطلّعت إلى الجامعة. وما أكثر الخطّاب الذين أبت أختي هذه الاستجابة لهم إلى أن تقدم من وعد بتوفير فرصة الدراسة الجامعية. كان الذي قدّر ولع ساجية بالدراسة الجامعية مقيماً في الولايات المتحدة الأميركية فأغواها بالفرصة التي جزم أنها متوفرة هناك لكلّ طالب. وفي المنزل الذي كان بناؤه قد اكتمل، احتفلنا بزواج ساجية وتوديعها معاً.

منذ ذلك الوقت، بقينا في المنزل وحدنا، العجوز وأنا. ها أنا ذا قد سمّيتها العجوز مع أن هذه الصفة لم تكن لتنطبق على سيّدة الأسرة التي لم تهدّها كثرةُ الأعباء. غير أن المنزل كان يعمر بنزلائه الكثيرين في إجازة الصيف. أخي الكبير والأختان اللتان انتقلتا إلى الكويت وزوجاهما وأولادهم الذين يزيد عددهم واحداً أو إثنين كلّ سنة، أعضاء هذا الحشد العائلي ثابروا على زيارتنا في كلّ صيف، ومعهم كان يزورنا الصخبُ والأفراح والهدايا.

ساجية وحدها لم يصلنا بها في غربتها النائية إلا المكاتيب. غير أن غياب ساجية عن مواسم الصيف

لم يمنع تجدّد بهجة عجوزنا في كل موسم، هي التي كانت تشهد بأم العين كيف ينمو أحفادها وتتحسّن الأحوال، وكم ابتعدت الأسرة عن سنوات العوز المهين. ولكَم كان يفتنني مشهد أمي وهي تستعيد كلّ صيف دور ربّان السفينة وتحرص على أن يجري كل شيء بأتمّ ما يرام!

أستحضر احتفال الأسرة بنجاحي في الثانوية. أمي، ربّانَ السفينة، قرّرت: "لم نخصَّك، بعد، بأيّ احتفال، هذه المرة سنعوّض كلّ ما فات". أَستحضرُ صورة الأم، القامة المنتصبة وسط حشد أعضاء الأسرة، والوجه الذي اكتسى سمارُه رونق أيام فتوتها، والتماعة البهجة وهي تشعُّ من منبع روحها. أستحضر الزغرودة التي أطلقتها أُمُّ الجميع حين احتضنني أخي الكبير وقد برقت في عينيه طلائع دمعتين يغالب انبثاقهما.

في ذلك الصيف، أطال أخي زيارته. رجل الأسرة هو، صقلته الغربة، الغربة المضاعفة، وشحذ السعي المبكر في طلب الرزق همّته، وأكسبه شيلُ المسؤولية المبكّر حكمةً تميّز بها. فكيف لا يصير لهذا الأخ الشخصية الناضجة التي طالما فتنتني وبناؤها المتين!

شاء الأخ الكبير أن يُرتِّب أمر دراستي بعد الثانوية، أمر مستقبلي كما سمّاه: "العمل حرمني أنا من الجامعة، وأختانا الكبيرتان، أنت تعرف، وساجية لم تُحقِّق أُمنيتها حتى الآن بالرغمْ من وعود زوجها، وإذاً...". لم يحتج أخي إلى كلام كثير لحثّي على التوجه إلى الجامعة، فأنا لم أفتقر إلى الرغبة في متابعة التعليم. أما ما افتقرتُ إليه فكان وضوح الهدف، أيّ دراسة أختار، وهذا هو ما وجهني أخي إليه: "رغب أبونا في أن يراني أنا طبيباً. الفرصة التي فاتتني متاحة لك أنت، لكني لا أصرّ على الطبّ إن كانت لديك رغبة أخرى".

كنا في العام ١٩٦٥. وكان أمامي لدراسة الطبّ أن أختار، إمّا دمشق أو بغداد أو القاهرة. والعجوز هي التي أخرجتني من حيرتي: "دمشق هي الأقرب. حسمتُ الأمرين: التخصّص والمكان، وبقيتُ متهيباً إزاء النفقات، سبع سنين وأكلاف ثقيلة. لكن أخي صرفني عن الإنشغال بهذه المسألة: " حتى حين انحدر حالنا إلى ما دون الصفر، استطعنا أن نُدبّر أمورنا، حالنا الآن أفضل، فلا تقلق"! آه يا أخي، كم كنت كريماً!

هل ابتعدتُ كثيراً عن السبب الذي دفعني إلى الحكي. هل أمللتكم وأنا أستحضر وقائع مماثلة لما خبره كثيرون منكم. أعرف كم تماثلت خبرة الأسر اللاجئة. أعرف كيف كان في كل أسرة أخ كبير أو أخت كبيرة ضحّى الواحد منهما براحته وطموحاته الشخصية ليشقَّ الطريق لإخوته الصغار. أعرف أن معظم الأسر حظي بأمهات مثل أمي، رعين زغاليلهنّ وحرصن على أن يظلوا متضامنين. وإذا شئتم أن أرجع إلى أول حكايتي الذي يُبلغكم آخرها، فسأحدِّثكم عن حضور الوطن الذي نشأتُ

خارجه في ذهن الطفل الذي كنتُه. ولأقل قبل فيض التفاصيل إن هذا الحضور ظل قوياً منذ وعيت أن لي ذاكرة تختزن ليس ما أراه رؤية العين وحده، بل ما أسمعه أيضاً، وأن مخيِّلة الإنسان تحوّل الكلام إلى صور.

في البداية، كانت يافا هي الوطن. وإذا أردتم معرفة بداية هذه البداية، فإن صورة الوطن تجسّدت بدارنا في يافا. ففي الخيمة ثم في البرّاكة، في الذي حُشرنا فيه، امتلأت مخيِّلتي بوصف أمي لدارنا المتروكة في المدينة التي يحرمنا عدّونا من العودة إليها: طابق الدار الأرضي، والحديقة التي تكتنفُ الدار، ومنابت الزهور، والأشجار، والنافورة التي أقامها أبي وسط الحديقة وزوّقها على مزاجه، وحجرات هذا الطابق، ما خُصّص منها لاستقبال الزوار الغرباء، أو للطعام، أو للسمر. والطابق الثاني، عِلِّيةُ الدار التي تطلّ على الجهات الأربع، والشرفة الغربية المطلّة على البحر، والمكتبة التي عُني أبي بتنمية كنوزها وشجع أمي على الاغتراف منها ولم يبخل بها على الأصحاب، وحجراتُ النوم التي تنفتح نوافذها على البحر حيث يرى الناظر من أيّ نافذة، أو يسمع، أو يحسّ، الميناء وقوارب الصيادين، والسفن، والأمواج أبدية الحركة وهديرها الجليل أو هسيسها المؤنس، والعواصف أو النسائم، وكل ما هو من هذا القبيل الأخّاذ، أيْ كل ما تفتقده في المنفى.

المقتلع عنوة من وطنه لا يستحضر من حياته فيه إلا الصور البهية وأوقات الهناء. وأمي، وهي المحتاجة إلى التعويض عن بؤس حياتنا في مخيم اللجوء، زادت ما تستحضره بهاءً. وأخي الذي ورث الوطنية من مجالس أبينا ونمّاها كان حريصاً على تنمية حبّ الوطن في روحي وتمتين توقي للعودة إليه.

في المخيم الذي تضيق دروبه حتى بأجساد عابريها، حضرتْ شوارع يافا العريضة وساحاتها الفسيحة والبحر الذي لا حدّ لمداه، وحضرت السهول المتموجة على مدّ النظر بالألوان. وفي مقابل القذارات التي تملأ دروب المخيم ومجاريه المكشوفة، حضرت يافا النظيفة على الدوام. ولأن البراري المحيطة بالمخيم كانت جرداء، فإن السهول المحيطة بيافا انبسطت بما هي أخصب سهول وظلّت عامرة على الدوام بالزرع وبساتين الفاكهة وبيارات البرتقال. وفي مقابل سوافي الرمل الصحراوي التي تغمر المخيم، لم يرد ذكر الهواء في مدينة أهلي إلا بوصفه أنقى هواء. وإذا خالط شيء هواءَ يافا، فهو شذى الزهور وطراوة البحر وشميمهما الفتّان.

وعلى مقاعد الدراسة، اتسعت الرؤية بمضيّ الوقت، ومثُلَ الفردوس المفقود شاملاً فلسطين كلَّها؛ مثُلَ في أحاديث التلاميذ الذين جاء أهاليهم من قرى ومدن فلسطينية عديدة، ومثُلَ في كتب الدراسة وأحاديث المدرّسين، خصوصاً أحاديث المدرسين. هنا، رُسمت الجغرافيا الوطنية في مخيِّلتي بما يؤجج التعلق بالوطن المفقود، وأنشئ التاريخ بما يلائم الإفتخار بالماضي والتوق إلى استعادة ما

فُقد. ومن هو التلميذ الذي لا تؤثر فيه أحاديث مدرّسيه، خصوصاً حين يتحدى هؤلاء المحظورات ويخصّون تلاميذهم بمعلومات وأفكار لا يجدها التلميذ في كتب الدراسة. ومن جهتي، كنتُ أتصوَّر، كلّما حدّثنا مدرِّسٌ بشيء تُغفله كتب التدريس المقرَّرة، أن المدرِّس يرى فينا أنداداً له يُطلعهم على الأسرار. وكان هذا يبهجني.

الأونروا، وكالة غوث اللاجئين الدولية هذه، كان لها دورها من حيث لم يحتسب منشئوها: خدماتها، المطلوبة لأنها مسعفة للمحتاجين إليها، والمذمومة لأنها مهينة لهم، حاجةُ اللاجئ إلى الظفر بالمعونة، واعتياده الظفر بها حتى بعد تضاؤل الحاجة، وإحساسه بالهوان في الحالتين، وكلُّ هذا الذي خبرتموه وجعلكم تضيقون بالأونروا وتصبّون عليها شتّى اللعنات، حتى وأنتم تتسابقون للظفر بما تهبه لكم. وقد ينبغي أن أذكّركم بما أخشى أنكم نسيتموه: كيف أسهم الضيق بخدمات الأونروا في تمتين تعلُّقنا بالوطن. فإزاء مذلة الحصول على حليب الأونروا برائحته ومذاقه المقزّزين، ظلّت أمي تستحضر الحليب الذي كانت تحصل عليه في أيام العزّ: "في يافا، كنّا نشتري الحليب بحُرٍّ مالنا، الحليب الطازج الذي يجلبه الحلاب بنفسه إلى دارنا كلّ صباح، وليس حليب البودرة الزنخ الذي يجبرونا في مراكز الأونروا على الوقوف في الدور ساعة، وساعتين، كي نحصل عليه". وإزاء شح الموادِّ التي توزِّعها الأونروا ورداءتها، ظلّت المكتوية بذلِّ الحاجة تستحضر أيام الوفرة والجودة: "كنّا نأكل أجود خبز، الخبز المصنوع من قمح سهولنا الذي لا مثيل له في الكون. وكنّا نحصل على أكرم زيت، زيت زيتوننا الذي باركه ربّ العالمين. والصابون كنا نجلبه بالأرطال، صابون نابلس الذي ليس في الدنيا صابون أحسن منه". وما أشدّ ما كان أسى أمي يفيض: "في غربتنا الملعونة، صرنا نشتهي اللحم، وإذا اشترينا لحماً فبالأوقية. أما في يافا فكان اللحم بالرطل، أو بالشقة، أو الذبيحة الكاملة. السكّر والأرزّ والعدس والفول، هذه التي تعطينا الأونروا منها حفنات يسبح فيه السوس، كنّا في يافا نخزنها بالأكياس ويزيد الخزين عن حاجتنا فنجود به على المحتاجين". ويوم اشتكيت أنا الطعم المقزز لزيت السمك الذي تحضره الأونروا إلى المدارس ويجبرونا على ابتلاعه، حضرتْ ذكرياتُ ربيبة الشاطئ: "عشنا لنعرف على يد الأونروا أن السمك له زيت! في يافا، كان أبوك يجلب السمك بالمفارش، ليس أقلّ من مفرش كامل كل مرة، طازجاً وشهياً يفتح النفس. ولم يقل أحد وقتها إن للسمك زيتاً".

ثم كبرنا. ألا يكبر الصغار دوما. وانضاف تأثير السياسة فمتّن تطلُّعنا إلى استعادة الوطن.

فلسطين التي في حكي كل سياسي، في برامج كل حزب وكل حكومة، في أدبيات كل منظمة حتى لو كانت نادياً رياضياً أو جمعية خيرية. أنتم لم تنسوا كيف كان الحكي على فلسطين يفيض على مدار الساعة، في الإعلام، في الاجتماعات الصغيرة والكبيرة، في المجالس الخاصة والعامة، الحيوات التي أُفنيت، الجروح والاعاقات، الأملاك المنهوبة، الحقوق المنتهكة، والكرامات الممتهنة. معارضاتٌ

تنشط ضد حكومات، حكومات تلاحق معارضات، تُسقط معارضةٌ حكومة أو تفتك حكومةٌ بمعارضة، والجميع، المعارضين والموالين، الفاتك والمفتوك به، الجميع، دون استثناء، ينسبون ما يفعلونه إلى ما تتطلَّبه معركة تحرير فلسطين وإعادة اللاجئين إليها.

كبرنا، فكبر الوطن في المخيّلة، وزاد تباهينا بما كان لنا فيه. كنتُ أتباهى بأبي الذي لم أره أبداً، أروي ما ترويه أمي عنه وأزيّنه، وأدلُّ على أقراني بأني إبن شهيد. كنت أتباهى بدارنا في يافا، وبيافا، أتحدّث عنهما، أنا الذي لم يرهما رؤية العين، وأكرّر ما أسمعه، وأزيّنه. كبرتُ، فاتسعت الرؤية، فصرتُ أتباهى بكل شهيد وكل قرية وكل مدينة، وأنسب الأمجاد إلى الجميع. كان ناس وطني في ما أرويه عنهم أبطالاً جميعهم، لم يُقصّروا في جهد، لم يضنّوا بأيّ تضحية، لم يدخل الإسرائيليون قريْة أو مدينة إلا على جثث المقاومين الذين خفّوا للدفاع عنها. أما النكبة التي حلّت بوطني، فكنتُ أنسبها إلى خيانة الحكام العرب وعمالتهم للمستعمرين البريطانيين والفرنسيين والإسبانيين والايطاليين، أو للأميركيين.

ألم تفعلوا أنتم الأشياء ذاتها، المفاخرة، والتهويل في الحكي على الأمجاد، ورمي مسؤولية ما حلّ بشعبنا على سواه. ولم لا نعترف: كنّا بحاجة إلى هذا كلّه، فلبّينا حاجتنا. وهل كنّا سنطيق الحال الذي انحدرنا إليه لو لم نستعن عليه بأمجاد الماضي، الواقعيّ من هذه الأمجاد والمتخيّل!

ما أشدّ ما تُسيطر عليّ الرغبةُ في البوح، أهو تأثير ما كتمته عن أمي، أم هو وجع روحي من خيبة الأمل، أم هي نذر العلة التي في القلب، العلة التي داهمتني أولى نوباتها وأنا في غزّة وأنذرني تفاقمها بقرب النهاية! كيف أتخفّفُ من أثقال الروح والجسد إذا لم أحك حكايتي كلها؛ وكيف أبلغ نهاية حكايتي قبل أن يستأثر غيري بالحديث فيروي حكايته المماثلة وتضيع فرصتي؛ وهل أعرف حقاً نهاية ما بدأت به؛ هل ارتسمت نهاية حكايتي أو نهاية أي حكاية؛ وهل أنا على يقين من أن خيبة أملي هي النهاية التي لا تبديل لها، هل للحكاية نهاية، هل من اللازم أن تكون لكل حكاية نهاية؛ أليست حكايتنا جميعنا هي هذه الحكاية الواحدة التي تتوالى فصولها من قبل أن نولد دون أن تبلغ أيّ نهاية؟

ها هو ذا فصل آخر يحضرُ فيحثني على الرجوع إلى السياق الذي شرعت فيه. إنه جديد آخر يخصني، أنا الذي تعرفون أني شقيق قائدكم الشهيد فادي المؤتمن. هذا الفصل بدأ منذ انتبهتُ إلى أن إسم أخي يُتداول همساً في مجالس بعينها، خصوصاً حين تضطرب الأحوال العامة ويشتدُّ فتك السلطة بمن لا ترضى عنهم. آنذاك، كنتُ فتى في عزّ المراهقة، في سنتي الأخيرة في الثانوية. وإزاء تواتر الهمس، حفزني الفضول إلى تقصّي ما يختفي وراءه، فوقعتُ في سيرة أخي الكبير على ما صار من حقّي أن أعتزّ به.

كان إسم أخي محاطاً بغموض آسر، وكان المتهامسون يتداولونه باهتمام ومحبّة واحترام. فأدركتُ أن للأخ شأناً إن يكن محموداً فإنه خطير يحرص عارفوه على كتمانه. وحين سألتُ أمي، تكتّمت الحريصة على سرّ إبنها، وطلبت مني أن ألجم لساني وأنشغل بدراستي وحدها، ونهتني عن الانقياد وراء فضولي. فاستخلصتُ أنا أن سلامة أخي توجب التكتّم. ووجدتني متواطئاً بإرادتي وحدها مع الحريصين على عدم كشف السرّ. وصرتُ أتعمّد، كلما جئت على ذكر أخي، أن أضمِّن حديثي عنه ما ينفي وجود أي سرّ، ما يُضلِّل أيّ باحثين عن سرٍّ لا أعرفه أنا نفسي.

وفي منتصف العام المدرسي، صدر البلاغ الذي لا ينساه أيّ منكم، البلاغ الذي أنبأ الناس بأن ثورة الفلسطينيين أطلقت رصاصتها الأولى ضد مغتصبي وطنهم. فربطتُ من تلقاء نفسي بين أخي وبين الانطلاقة، لكني لم آذن لنفسي بالبوح بما استخلصتُه بشأن صلة أخي به.

وفي الصيف الذي تلا صدور البلاغ، حين انهمك أخي في ترتيب أمر دراستي الجامعية، ناقشتُ معه شؤوناً كثيرة إلا هذا الشأن. كنتُ الولد الذي يحفّ بأخيه ذي السرّ الخطير فيحرص على التكتم ليصون سلامته. ولكم أن تعرفوا أني كنت مفتوناً بنفسي، فأنا إبن شهيد وأخو مناضل، وأنا حامل السرّ الخطير الذي يُفلح في لجم الرغبة في البوح به.

في الصيف التالي، بعد أن أنهيتُ سنتي الجامعية الأولى في دمشق، التأم شمل الأسرة، كالعادة، في مخيمنا في عمان. وقتها، تبدد الغموض وانكشف السرّ دفعة واحدة للجميع. فقد اعتقل فادي، جاء إلى منزلنا رجالٌ صارمو الوجوه والحركات واقتادوا أخي إلى المعتقل. وبعد أيام، زارنا رجل متكتّم وطلب الإختلاء بي وبأمي. وافتتح الرجل حديث الخلوة بالعبارة الموحية: "أنا من الثورة مرسل إليكم لأعرف حاجاتكم". ومنذ ذلك الوقت، انضاف إلى شبكة مشاعري شعور من نوع جديد، إنه الشعور الذي خبره كل منكم وتمتّع به: شعور الزهو بالصلة بعالم الثورة وناسها.

بهذا الشعور، طاب لي أن أعوّض أمي ما افتقدته بتغييب فادي في المعتقل، فعرضتُ أن أقطع دراستي لأبقى معها. قلتُ لأمي إن بقاءها في هذا الظرف في المنزل وحيدة موجعٌ لي. وبإمكاني أنا الانتساب إلى كلية أخرى لا يلزمني الانتساب إليها البقاء بعيداً عن المنزل. عرضتُ هذا، في ما بدا لي، مدفوعاً بالرغبة في اتِّباع أمثولة أخي، أردتُ أن أضّحي بشيء لتهنأ أمي بوجودي معها. غير أن التي لا تزعزع الطوارئ تماسكها رفضت عرضي: "أبوك، وبعده أخوك الكبير، ومعهما أنا، أردنا أن يخرج من أسرتنا طبيب". أما تكاليف دراسة الطب والإقامة الدائمة في دمشق، التكاليف التي تذرعت بافتقارنا إليها فيما أخي معتقل، فإن أمي كررت بشأنها ما سبق أن قاله ذلك الأخ: "تدبّرنا أمورنا في أسوأ الظروف وبالإمكان تدبّرها الآن، فلا تقلق"!

إنكم تتذكّرون أن فادي بقي في المعتقل سنة بطولها. وبعد هذه السنة، وقعت حربُ ١٩٦٧، وتعرضت جيوش الدول العربية التي واجهت جيش إسرائيل المتفوق لهزيمة ماحقة. وكما قد تصير الضارة نافعةً، أرغمت الهزيمة حكومات الدول المهزومة على الإفراج عن المعتقلين السياسيين. وقد تتذكّرون كيف انتقل فادي من المعتقل إلى موقعه في قيادة الثورة، فيما انتقلت الثورة من العمل السرّي إلى نشاطها الذي جُلّه علني، واكتظت مواقعها في بلاد العرب بسيول المتزاحمين للالتحاق بها. أما استشهاد فادي، استشهاده وهو يقود المقاتلين المدافعين عن الثورة، الاستشهاد المتميّز كما تصفونه، فأنا واثق من أن حكايته لا تغيب عن بال أيٍّ منكم.

كنت قد انهيت بنجاح سنتي الثانية في كلية الطبّ حين أفرج عن فادي. أفرحني أني لم أفشل بالرغم من اضطراري إلى توزيع وقتي بين دمشق وبين عمّان وجهدي بين الدراسة وبين الاهتمام بأمي. أمّا بعد النجاح، بعد اتساع نشاط الثورة وانهماكي في بعضه، فإن دراستي بدأت تتعثر. لم يُفسدني كوني الأخ الصغير الذي يركن إلى شهرة أخيه الكبير، كما قد يظنّ بعضكم. ولم يُفسدني تدليل أمي، كما قد يقول بعضكم. كل ما في الأمر أنه الجوّ العام الذي كثرت فيه المشاغل واجتذبتنا كلّنا إلى الميدان. إني أقرّ بما خصَّتني أمي به، خصوصاً حنوَّها، ورعايتها الحادبة، وحتى تساهلها إزاء نزواتي. أقرّ بأن شخصيتي لم يتوفّر لها متانة شخصية فادي ومثابرته ومقدرته على تحمل المسؤولية في كل ظرف. لكن، أليسوا كثيرين أولئك الذين رعتهم أمهات حنونات، فهل فسد هؤلاء جميعهم؟ ثم أليسوا كثيرين أولئك الذين لهم أقرباء مشهورون، فهل تعثّرت دراسة هؤلاء كلّهم؟ أرجو أن لا تكونوا قد نسيتم أن ألوف الطلاب وَهنَ انشغالهم بالدراسة منذ صعد نجم الثورة واجتذبتهم إليها، وأن كثيرين من هؤلاء ترك الدراسة وتفرّغ للعمل الثوري. ستقولون إن طلاباً كثيرين وازنوا بين واجب الدراسة وبين واجب العمل الثوري وأفلحوا في أدائهما معاً. ليكن الأمر كما تقولون، بل إني أقرّ بأن ما تقولونه صحيح. غير أني لم أُجارِ هؤلاء بالذات، بل كنتُ في الفريق الأخر. ولكم أن تعرفوا أن أمري مع دراستي الجامعية انتهى بأن انقطعتُ عنها ثم لم أرجع إليها.

تأثير فادي في حياتي، تأثيره الحاسم، هو ما أحدثه فيّ استشهاده، ليس الاستشهاد في حدّ ذاته، بل الطريقة التي استشهد أخي بها. كيف أشرح طبيعة هذا التأثير فأجعله مفهوماً، أنا الذي لم أفهمه بتمامه إلا أولاً بأول وبعد مضيّ زمن مديد. كيف أُفلح في وصف مشاعري أنا الذي تُقصّر لغتي عن وصف المشاعر حتى وهي مستقرة. لن أُحدِّثكم عن أساي، فالأسى لا يصير مهلكاً حين يقترن بالفخار. لن أحدِّثكم عن تعزِّيّ بحفاوتكم بتضحية فادي، أنتم الذين ألفتم في ذلك الوقت إعلاء شأن التضحية. إن ما امتلك مشاعري هو إقدام فادي على التضحية بحياته حين كان بمقدوره أن ينجو. تعرفون أن فادي فعل ما فعل حتى يُقدِّم أمثولة تمنع غيره عن تسويغ الاستسلام بدعوى

فقدان الحيلة. تعلمون أن محاصِري فادي كان في متناولهم أن يناوشوا حتى تنفد ذخيرةُ المحاصَرين فيتمكنوا بشيء من الجهد أن يمسكوا بهم أحياء. لكن الذين حاصروا مقاتلي الثورة تقصّدوا الإساءة للثورة ذاتها، فعرضوا على القائد أن يستسلم هو ومقاتلوه فيضمنوا حياته هو إن رضخ لشروطهم المهينة، وأبوا أن يقدموا الضمانة ذاتها للمقاتلين. وبين خيارين، اختار فادي القتال إلى أن تنفد الذخيرة، وتقدم هو مقاتليه في المحاولة الجريئة لفك الحصار، وباستشهاده، قدّم الأمثولة التي توخاها؛ فَتَح قتال اليائسين ثغرةً في الحصار نجا عبرها كثيرون منهم.

إذا كنتم، أنتم زملاء فادي في الكفاح قد أُخذتم بأمثولته، فكيف لا أتأثر بها أنا إبن أمه وأبيه! مجّدتم تضحية فادي وأشهرتموه رمزاً ملهماً للمكافحين من أجل الحرية. وأنا الذي كنتُ إبن شهيد لا تتميّز تضحيته عن تضحيات سواه، صرتُ أخا الشهيد الرمز، فتبدّل مجرى حياتي.

قبل استشهاد فادي، كنتُ أخصّص للنشاط العام وقتاً وللدراسة وقتاً واستبقي وقتاً للمتع. وأغلب ظني أن أخي رغب في أن أنهمك بكليتي في نشاط الثورة، مثله هو، إلا أنه لم يفصح عن مثل هذه الرغبة في أيّ وقت، لا تصريحاً ولا تلميحاً، فهل كان ينتظر أن أنهي دراستي، أو أنه أحجم عن كشف رغبته لا لشيء إلا لأن هذا هو طبعه؟ في كل حال، اتخذتُ أنا المبادرة فور رحيل أخي. وحين سألني زملاء فادي في القيادة عن احتياجاتي: أجابهم عزمي الذي انعقد على هذا الأمر: "أريد فرصة كاملة، أعوّضُ ما فات، وأكمل رسالة الشهيد، ضحّى أخي بحياته، فلا أقل من أن أضحّي أنا بدراستي"! تفرغتُ للثورة، إذاً، وأنا موفور النشاط عفيّ الهمة. رفضتُ العمل الإداري الذي عُرض عليّ، أو قولوا إني استصغرتُ أن أعمل في إدارة، وندبتُ نفسي للعمل المسلح. وقي الدورة التي تُعِدُّ الضباط، حرصتُ على أن أكون في المبرّزين، وظفرتُ بالمرتبة الأولى. وبعد الدورة مباشرة، أُوليتْ إليّ مسؤولية قاعدة عسكرية، فأَوليتُ المسؤولية حقها كاملاً.

خوّضتُ معكم في المخاطر كلِّها، تهديني أمثولة فادي، وتحثّني الرغبةُ في أن أُثبت جدارتي، وتجتذبني الآمال التي لم أنتبه وقتها إلى ما انطوت عليه من أوهام. وحين أُخرجتم من الأردن، ذهبتُ معكم إلى سورية وتابعت المشوار في البلد الذي كنت ما أزال مسجلاً طالباً في جامعته. ولعلكم لم تنسوا، مشقّة إعادة تجميع القوى وإنشاء قواعد جديدة في سورية ولبنان تنضاف إلى ما كان فيهما من قبل، والمشي على مسنّنات التناقض بين ظرفين: سورية التي رحَّبتْ سلطاتها بوجودنا لكنها ملكت القدرة على ضبط إيقاع حركتنا فيها؛ ولبنان الذي ازورّت سلطاته بوجودنا لكنها لم تملك القدرة على ضبط أيّ إيقاع. ومن دمشق التي فاضت أعدادنا فيها عن الحاجة، انتقلتُ مع من انتقلوا منا إلى لبنان، وأُوليتُ من جديد مسؤولية قاعدة عسكرية، في جنوب لبنان هذه المرة. ومن موقعي هذا، شهدتُ توسُّع وجودنا المسلح وغير المسلح في البلد الذي ليس هو بلدنا، المبتلى برزايا شتى

صار توسُّع وجودنا فيه واحدة منها.

ما أكثر ما يحضرني كلما استحضرتُ ما شهده لبنان من فصول حكايتنا! انتشار مواقعنا فيه كما ينتشر الفطر في غابة، العسكريّ منها، والإداريّ، والسياسيّ، والإعلاميّ، خصوصاً هذا الإعلامي، ما له لزوم من المواقع وما ليس له أيّ لزوم. انقسام أهل البلد بين مؤيد لنا وبين معارض يجهر كل منهما بمواقفه، ومؤيد أو معارض لا يجهر أيّ منهما بشيء. ما صنعناه مما أثار الإعجاب وما اقترفناه مما ولَّدَ السخط. المغويات التي تعفَّف بعضنا عن الولوغ فيها ووقع فيها بعضنا الآخر فاستدرجتنا إلى الفساد. وها أنا ذا، بعد مضيّ سنوات كثيرة، لا أتذكّر الحصيلة دون أن تتناوبني الغصّات والحرقات!

في القاعدة، كانت أنباء ما يجري تبلغني، إلا أن انصرافي إلى المشاغل الكثيرة حرمني من تشديد الانتباه إليها. ويوم لم تكن كفّة المفاسد قد رجحت، وُجد من قدّروا أدائي، فأُوليتْ إليّ مسؤولية قطاع بكامله في الجنوب، حيث المواجهات المتواترة مع إسرائيل الماثلة إزاءه. كنّا نُغير ونتلقى إغارات، نوقع خسائر وتقع في صفوفنا خسائر. وبعد كل اشتباك تنتقم إسرائيل من تجمعات المدنيِّين، فتقصفُ مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين، أو تقصف القرى والمدن اللبنانية وتستنهض السخط ضدّ وجودنا. وبمضيّ الوقت، وجدنا أنفسنا، جميعنا، مستغرقين في شؤون البلد الداخلية، ومنّا من استغرقتهم شؤون لبنان أكثر مما استغرقهم الصراع مع العدو الذي اغتصب وطننا كلّه.

وحين اندلعت الحرب الأهلية، وكان الاختلاف على وجودنا في البلد بين أسباب اندلاعها، حين راحت هذه الحرب الملعونة تحرق البلد وتغمره بزنخ رائحتها الطائفية، وجدنا أيدينا في النار، وانهمكنا في جهدين متناقضين: إطفاء حرائق وإشعال حرائق أخرى. ولم نسلم من زنخ الطائفية حتى ونحن نستنكرها. ولأن سبل الفساد الواسعة زادت بتأثير هذه الحرب اتساعاً، فما أكثر ما أوغل فاسدونا في الفساد، وما أكثر الذين تبعوهم أو نافسوهم! إنكم تعرفون: يفسد أحدهم فييسِّرُ الفساد لآخرين، وتستفحل الظاهرة.

انشغال ناسنا بغير إسرائيل لم يوهن انشغال إسرائيل بنا وبمن أيّدونا من ناس البلد، بل فاقمه. لم تكتف إسرائيل بتوفير السلاح والمساندة متعددة الشكل للطرف اللبناني الذي يحاربنا، بل شدّدت هجماتها على مواقعنا ومدنيّينا، الغارات البرّية، القصف الجوّي والقصف المدفعي، وأعمال الاغتيال والتدمير الخاصة، وكل ما تعرفونه مما لن يفارق ذاكرة أيّ واحد منا.

في هذا الجو الذي اختلط فيه كل شيء بأيّ شيء وتداخل الشيء ونقيضه، وجدُتني، مثل غيري، موزعاً بين المشاغل الموكولة إليّ وبين ما يجري في البلد. ومع زيادة اطّلاعي على ما كنت غافلاً عنه تكشّفت أمام ناظري القبائح المقترنة بشتى أنواع الفساد: فساد السياسة، الفساد الإداري، فساد

القيم ومعه فساد الذمم. وسرعان ما وجدتني في فريق المتذمرين، هؤلاء الذين يخشون طغيان السلبي على الإيجابي وينتقدون المسؤولين عن تردّي الأحوال.

مع الصخب الذي وسم وجودنا في لبنان وتواترِ المشاكل المتشابكة، اتخذتْ حياتنا في البلد مسالك روتينية؛ الماجد من النشاط صار روتيناً، واقتراف القبائح والافتتان بالمباذل والإيغال في المفاسد صار روتيناً. انبسط المكان واستوى الزمن ولا نتوءات. لا صعود، ولا تقدّم، بل تكرار للقول ونقيضه، للفعل ونقيضه أيضاً. والتذمّر، التذمّر ذاته، لم يلبث أن استوى هو الآخر وصار مثل الاستكانة، وهو إن لم يهِن فإنه لم يصر أكثر فعّالية. ألف الفاسدون أن يستهينوا بالانتقاد، وألف مستثمروا الفساد أن يصغوا إلى الشكاوى دون أن يكفّوا عن استثماره. وألف المتذمّرون الإمعان في الانتقاد دون أن يفعلوا أكثر من هذا، يمتصّ طرفٌ السخط بالإصغاء، ويتخفّف طرف منه بالحكي، ولا يتراجع أحدهما أو يتقدم آخر. يشهد القادة ما يجري ويسمعون ما يقال، ثم لا يتبدّل شيء.

كنتُ، تعرفون، قريباً من ذوي الشأن، من الذين يملكون سلطة توجيه الآخرين نحو فعل الخير أو إتيان الشرور. ولمّا كانت لي الدالة التي يوفّرها موقعي ويعزّزها التقدير الذي لإسم أخي، فإني ثابرت على انتقاد القادة في وجوههم كما في غيابهم دون تهيّب، آخذ على المتعفّفين من القادة قصورهم في مقاومة الفساد، مثلما آخذ على الفاسدين ولوغهم فيه. لكن هذا الذي ثابرتُ عليه أنا وأمثالي ظلّ، تعرفون، بغير طائل. أثقل عليّ الإحساسُ باللاجدوى، فصرتُ أقاومه بالوسيلة التي لم أهتد إلى سواها: الإمعان في المشاغل وفي الانتقاد. ولطالما حاول المستهدفون بسلاطة لساني أن يعثروا في سلوكي على ما يبتزّوني به فلم يفلحوا، فحاولوا أن يسكتوني بما أسكتوا به كثيرين، بالإغراق في الامتيازات، فاتضح لهم أن طموحي لا يصبّ في هذا الاتجاه. والذين أعياهم جهد محاولاتهم الفاشلة اشتغلوا على مرؤوسيّ وألّبوهم عليّ: "قائد قطاعكم متزمّت يُرهقكم بالأعباء، ويحجب عنكم فرص التمتّع بما يتمتّع به غيركم. فلمّا بقي بين مرؤوسي كثيرون متشبثون بالسلوك المستقيم، لم يبق أمام مستهدفيّ سوى إبعادي عن ساحتي. وللإبعاد، كما تعرفون، وسائل كثيرة أخطرها أن يبدو الإبعاد كأنه تكريم. من هنا، حصلتُ على ترفيع لرتبتي العسكرية، ونُدبتُ للسفر إلى الخارج لاتّباع دورة تؤهل حاملي رتبتي الجديدة لقيادة ألوية، ألوية في ثورة لم يتعدّ حجم أكبر تشكيلاتها حجم كتيبة.

غيبتني الدورة عن ساحتي سنة كاملة. وحين رجعتُ حاملاً شهادة تخرجي بامتياز، قال الذين أبعدوني إن مؤهّلي صار أكبر من المطارح المتاحة. ووفّر هؤلاء لي تكريماً جديداً من النوع الذي تعرفون طبيعته. فأُوليتْ إليّ مسؤولية إدارة كبيرة في بيروت، لقب جليل، ومكتب فاخر، ومعاونات ومعاونون لم أخترهم أنا، ثم لا ميزانية إلا للرواتب والنفقات الجارية، ولا صلاحيات، ولا مشاغل، ولا عمل.

قصة قصيرة

جسد غريب في الحوش

محمد علي طه

كان الظّلام ما زال يلفّع الحظيرة والمنزل والعنزة والغنمة والدّجاجات والدّيك ويكاد يمحو ملامح الأشياء. الجسم ممدّد على التّراب. تعوذلت وبسملت الحاجّة زينب. ماذا يمكن أن يكون؟

همّ الحاج بأن يمدّ يده إلى الجسد ولكنّه توقف وقال: وهل تحسبين أنّ الجهاز بحجم الطّنجرة أو الكأس. الجهاز اليوم يوضع في فصّ الخاتم أو في زرّ البنطلون او في ياقة القميص.

نهضت الحاجّة زينب من فراشها حينما سمعت صوت المؤذّن ينطلق من مكبّر الصّوت "الصّلاة خير من النّوم" يردّدها مرّتين. وقالت بصوت مسموع: أصبحنا وأصبح الملك لله. توضّأت وصلّت ركعتي السّنّة فركعتي الفرض وردّدت دعاءها الذي لازمها منذ سنوات "اللهم لا تدع أسيرًا الا فككت أسره!" ثم طوت سجّادة الصّلاة ووضعتها في الخزانة ونادت: حاج صبحي. وحّد الله، الصّلاة الصّلاة يا حاج صبحي.

وفتحت الباب وخرجت الى حوش المنزل.

كان نسيم الصّباح ناعمًا لطيفًا فيه لمسة برودة. وكان عطر أزهار شجرة الليمون يتضوّع في فضاء الحوش.

شمّت الحيوانات والطّيور رائحة ربّة البيت، وسمعت وقع خطواتها فتحرّكت ونشطت. ثغت الغنمة البيضاء والعنزة البنيّة. ورفرفت الدّجاجات بأجنحتها وصاح الدّيك ذو العرف الأحمر الذي يزيّن رأسه ويمنحه مهابة على إناثه.

كانت الحيوانات والطّيور ترحّب بالحاجّة زينب التي ستقدّم لها الطّعام والشّراب. سوف تحمل القشّ بيديها وتضعه في مذود الغنمة والعنزة. وسوف تحمل الحبوب براحتيها وتبذرها أمام قنّ الدّجاجات وتقف لحظات تراقب الدّيك المعجب بنفسه يوزّع الحبوب ويلقي الأوامر على الدّجاجات المطيعات له والمولّهات حبًّا به. وفيما كانت الحاجّة زينب تحمل رزمة القشّ براحتيها وساعديها وصدرها وتسير نحو المذود لاحظت أمرًا غريبًا في الحظيرة. رأت جسمًا ممدّدًا فيها، هناك قرب قنّ الدّجاجات.

كان الظّلام ما زال يلفّع الحظيرة والمنزل والعنزة والغنمة والدّجاجات والدّيك ويكاد يمحو ملامح الأشياء. الجسم ممدّد على التّراب. تعوذلت وبسملت الحاجّة زينب. ماذا يمكن أن يكون؟ كانت الثّعالب وبنات آوى تغزو القنّ في السّنوات السّابقة فلمّا استوطن الغرباء على الهضاب والسّفوح وبنوا بيوتهم الغريبة وسمّموا الحقول وصاروا يطلقون الرّصاص كلما سمعوا حركة أو صوتًا اختفت الثّعالب وبنات آوى كأنّها قالت لا مربط لجوادين على مذود واحد. والجسم لا يشبه الثّعلب ولا ابن آوى. الجسم طويل. طوله يزيد عن المتر ونصف المتر ويكاد يصل إلى المترين. وأين للثّعالب وبنات آوى مثل هذا الطّول؟ والجسم ليس جسم ذئب أو جسم ضبع. لو كان ثعلبًا أو ابن آوى أو ضبعًا أو ذئبًا ما اقتربت العنزة أو الغنمة منه ولما قفزت الدّجاجات حوله.

مرّت الحاجّة زينب في تجارب شديدة في حياتها على الرّغم من أنّ عمرها لا يتجاوز السّادسة والسّتين عامًا إلا أنّها تبدو عجوزًا طاعنة في السّنّ. شعر رأسها أبيض مثل الطّحين وأخاديد عديدة في وجهها الحنطيّ وشامات بنيّة كبيرة وصغيرة تغطّي ظاهر كفّيها وساعديها، وزغب شائب فوق شفتها العليا كأنّ لها شاربين. لا تهتمّ بجمالها ولا بزينتها. أين هي اليوم من أيّام الشّباب حينما كانت نوّارة الحارة وزينتها، تفور جمالًا وأنوثة وصبا مما أوقع صبحي في حبّها وقاده إلى خطبتها.

شاهدت زينب وهي في شهر العسل الدّبّابات والعسكر يجتاحون المدينة ويطلقون الرّصاص العشوائيّ. كانوا خائفين على الرّغم من قوّتهم وانتصارهم. وشاهدت بعد سنوات الشّبّان يرجمون الجنود بالحجارة مثلما شاهدت قنابل الغاز في السّاحات والأزقّة وسمعت لعلعة الرّصاص. وما زالت تذكر أنّ بعض الشّبان أو الفتيان اختبأوا في حوشها عدّة مرات هربًا من الجنود، وقد منعت في إحدى المرّات جنديين من دخول الحوش حينما تصدّت لهما بجسدها. استحوا على دمكم. انتو بلا اهل. بلا بيوت. وشاهدت عمران الصّالح، الفتى الأسمر الطّويل الذي سقط في الشّارع يتفعْفل قرب بيتها بعد أن أصابته رصاصة وكيف هجم الجنود حتى وصلوا الى جسده الملقى على قارعة الطّريق فأفرغ جنديّ خمس رصاصات في جسده ليتأكّد من وفاته. وحضرت قبل سبع سنوات محاكمة ابنها البكر عمر الذي حكم عليه القاضي العسكريّ بالسّجن المؤبّد ثلاث مرّات مع أنّه لم يعترف بإلقاء

زجاجتين حارقتين على سيّارة يستقلها ثلاثة مستوطنين مما أدّى الى انحرافها عن مسارها وانقلابها وتدحرجها إلى أرض منخفضة وممّا أدّى إلى مقتل احدهم فورًا وجرح الآخرين جراحًا خطرة.

ابتعد السّرور من بيتها ومن قلبها منذ سُجِنَ عمر. وكبرت في هذه السّنوات أكثر من عشرين عامًا. غزاها الهمّ واستوطن في حياتها مثل المستوطنين على أرض القرية المجاورة.

اقتربت الحاجّة زينب من الجسد الغريب برباطة جأش وهي تقول: أنا أمّك يا عمر! ولكنّها بسملت أكثر من مرّة. وضعت القشّ في مذود الغنمة والعنزة فيما كانت تنظر الى الجسم الغريب.

كان نور الفجر قد بدأ يكشف عن وجه الحوش وكانت الحاجّة زينب قد تعرّفت على الجسم. الجسد جسد إنسان. إنسان كامل. قدمان وساقان وبطن وصدر وذراعان وراحتان وعنق ورأس. يا سبحان الله. مستلق على أرض الحوش كأنه يرتاح على سرير وثير. مستلقٍ على مقربة من روث الغنمة والعنزة ولعلّ بعض البعر تحت جسده. لا يأبه بزبل الدّجاج ذي الرّائحة الكريهة.

اقتربت من الجسد. الوجه يميل إلى الشّقرة. يغطيه شعر أشقر، ليس أشقر تمامًا، لم يحلق منذ أيام. شعر الرأس حليق ما عدا خطًّا من الشّعر يمتد من الجبين إلى القفا.. إلى العنق. هذه قصّة شعر غير عاديّة. يرتدي ملابس كاكيّة. هي ليست ملابس الجنود ولا ملابس الوحدة الخاصّة. ملابس تذكّر بفرق الكشّاف التي تقيم استعراضاتها في أيّام الأعياد. وينتعل حذاء رياضيًّا من شركة نايك.

وتقدّمت الحاجّة من الجسد أكثر. وكان الصّبح قد أبلج. والجسد صار أوضح.

من أين دخل إلى الحوش فالبوّابة مقفلة وحديدها قويّ وما زالت كما هي مقفلة بإحكام. والسّور عالٍ، وفوق المائة والسّبعين سنتيمترًا على الاسمنت المسلّح هناك زجاج حادّ يجرح الايدي والأقدام وكل من تسوّل له نفسه أن يدخل إلى الحوش. لنفرض انه وضع سلّمًا في الخارج وتسلّق عليه فإنه لا يستطيع أن يقف على الجدار لأنّ الزّجاج حادّ... وكيف يهبط إلى الحوش!

لم يدخل إلى الحوش بطريقة عاديّة. لعلّه طار في الفضاء. وربّما هذا جسد لكائن فضائيّ وصل إلى الحوش وقرّر أن يستريح هنا. ما الذي اعجبه بالمكان؟ هناك في المدينة بيوت ذات حدائق وجنائن وأزهار ونجيل أخضر هي أفضل من حوش في مخيّم لاجئين، أفضل من حوش الحاج أبو عمر. لله في خلقه شؤون. هل هو حيّ؟

وتقدّمت خطوات وحدّقت في الوجه. عيناه مفتوحتان تنظران إلى السّماء وأحيانًا إلى الحاجّة زينب. هو حيّ. يرى. ولا بدّ أنّه يسمع ويتكلّم. وقالت بصوت مرعوب كأنّها تسترضيه: شو هالنومة يَمّا؟" ولم يرمش ولم يردّ على سؤالها. ولم يتحرّك. "هاي نومة شباب! حتى الرّعيان ما عادوا يناموا هيك!".

ولم ينبس ببنت شفة. الرّجل ليس ميّتًا. حيّ. عيناه مفتوحتان وتحدّقان بالسّماء أحيانًا وبالحاجّة أم عمر أحيانًا أخرى. ونظرت الحاجّة إلى راحتيه. أصابعه دقيقة وطويلة والأظفار مقلّمة والأصابع تخلو من المعادن. لا خاتم ولا محبس. لا ذهب ولا فضّة "يا حبيب امّك. هربت من العساكر؟ من اولاد الحرام؟ يكرهون الرّجال. يكرهون الشّباب والفتيان. يكرهوننا. ونحن نكرههم. اجا الوقت يرحلوا من ارضنا. من هوائنا. لا احد يريدهم. الاحتلال جحيم. وهم اولاد الجحيم. انصرفوا. انقلعوا يا اولاد القحبة. سوف يعود عمر إلى دارنا حرًّا طليقًا. يعود ويرقص ويدبك في الأعراس. عمر يتقن الدبكة الشّماليّة ويغنّي: يا ظريف الطّول. عمر شجاع قبضاي مثل والده. هل أنت صديقه يمّه؟ من خليّته؟ هل تحمل رسالة منه؟ احكِ يا يمّة. احكِ. قل شيئًا. انطق!

فتح الحاج صبحي الباب ودخل إلى الحوش وهو يقول: يا فتّاح يا عليم. يا مقسّم الارزاق يا كريم. فرفعت الحاجّة زينب يدها مشيرة إليه أن يأتي إليها.

- قولي، شو السّيرة؟ العنزة مسهولة؟ ناقص صوص في القن؟

سألها الحاج صبحي ومشى نحوها.

رفعت أم عمر راحتها ووضعت سبّابتها على شفتيها لتقول له: اصمتْ. ولولا أنّه يعرف أنّ رفيقة عمره تحترمه وتقدّره وتقول له دائمًا "العين ما بترتفع على الحاجب" لغضب من الحركة فكيف تجرؤ زوجة في المخيّم أن تأمر زوجها بالصمت؟ لا بدّ أنّ هناك أمرًا غريبًا. خطيرًا.

التزم الحاج صبحي الصّمت وسار نحوها.

- رجل مستلق على التّراب. قالت الحاجة زينب بصوتٍ لا يكاد يُسمع.

حدّق أبو عمر بالجسد ومرّت لحظات ولم ينبس ببنت شفة ثم قال: هذا شابّ في الثّلاثينات.

- اظنّ في العشرينات.

- عوده قويّ ومن المؤكّد أنّه تجاوز الثّلاثين.

- عيناه تتحركان وينظر إلينا. يراقبنا.

- انت واهمة يا زينب.. أنتِ خائفة. لا شيء فيه يتحرّك.

- انا قلقانة.

- شعر رأسه طويل. لا يعرف الحلّاق.

- يا ربّ. هناك اشياء تتبدّل بسرعة. قبل لحظات كان رأسه حليقًا وقد ترك الحلاق خطًّا من الشّعر

من جبينه إلى قفاه، مثل المصارع الوحش الذي رأيناه في التّلفزيون.

- صرت تهذين. بعد قليل سوف تتحدّثين عن الجنّ، عن الشّياطين الذين وجدتهم يلعبون مع العنزة ويقفزون حولها.

- منذ تزوّجنا وانت تعارضني وتخالفني وتسخّف كلامي.

- يا حاجّة بالله عليك اعقلي. كيف تغيّر شعر رأسه بهذه السّرعة؟

سكتت الحاجّة زينب وقرّرت ألا تخوض نقاشًا مع زوجها لأنّه لن يصدّق كلامها، وكلمة الرجل هي الكلمة العليا في هذا المجتمع حتى لو كان الرجل أبلهَ. ولكنّها لا تستطيع أن تصمت طويلًا. الرجل ممدّد في الحوش. من هو؟ من أين جاء يا صبحي وماذا يريد؟

- أظنّ أنّه من رجال المقاومة. طارده الجنود فتسلّق على الجدار وقفز إلى الحوش ومن شدّة القفزة أغمي عليه ولا يتحرّك.

- لا يا حاجّ. رجال المقاومة لا يفعلون ذلك. كانوا يدخلون الى الحوش والى بيتنا ويختبئون من العسكر. وكنت أقدّم لهم الطّعام والشّراب. جمال الطّويل بقي عندنا تسعة أيّام لأنّ أولاد الحرام كانوا مرابطين في الشّارع. اشتريت له يا حاج ملابس داخليّة وبنطلونًا وأعطيته قميصًا من قمصان عمر.

- لا والله. من قمصاني يا حاجّة.

- لعن الله هذا العقل الذي بدأ ينسى. صحيح انا عارضت أن نعطيه قميصًا من ملابس عمر.

- الباب كان مغلقًا. فكيف دخل؟

- هل طرق على الباب دقتين ثمّ ثلاث دقّات.. افتحي يا خالتي؟

ويبدو ان الحاجّ صبحي اقتنع بوجهة نظر زوجته فالرّجل ليس من رجال المقاومة ولو كان منهم لكان يحمل شيئًا ما.

ومرّت فترة صمت. دار الحاجّ حول الجسد وتأمّله. كان يتفحّصه بعينيه. الرّجل حيّ يا زينب. صدره يعلو ويهبط.

- ربّما هو أسير هارب من المعتقل.

- لا يمكن. الأسير الذي يهرب يختبئ في مكان آمن وبعيد، في كهف في الجبل. لا يمكن أن يختبئ في المخيّم أو في المدينة. لأنّ العملاء سوف يتعرّفون إليه ويشون به.

- اللهم امحق العملاء ولا تبقِ منهم على وجه الارض ديّارًا.

- اسمعي يا زينب. نحن أمام أمر خطير. نحن عائلة مراقبة. عمر في السّجن. مؤبّد. عيون الاحتلال علينا. يجب ألا يعلم أحد بوجود هذا المخلوق هنا.

- هذا جسد.

- لا يهمّ.

- لعلّه مستوطن قبض الشّباب عليه ورموه هنا.

- لا يمكن. أولًا لا يجرؤ مستوطن على دخول المخيّم. وثانيًا لو قبض الشّبّان عليه لأخفوه ليبادلوا به، وثالثًا لا يرتدي قبّعة دينيّة على رأسه ولا سوالف طويلة تتدلّى على جانبي رأسه.

- هناك مستوطنون بدون سوالف وبدون قبّعات.

- لو وضعت الأسد في ظهر الواحد منهم لن يدخل المخيّم. للمخيّم هيبة يا حاجّة. والآن.. قبل أن تشرق الشّمس ويتحرّك النّاس خارجين من بيوتهم وقبل أن يأتي أبو محسن ليشرب القهوة معنا علينا أن نخفي الجسد.

وبان الخوف في عيني الحاجّة. هل يعقل أن تعيش أيامًا مع جسد لا تعرفه؟ رجل غريب في البيت. ربّما ليس من ملّتنا يا حاج؟ ما رأيك لو تقترب من أذنه وتحاول أن تكلّمه؟

- والله رأيك صحيح.

واقترب من الجسد وجلس القرفصاء وبسمل وقال بصوت هادئ: من أنت؟ ما اسمك؟ من اين جئت؟ قلْ. احكِ. انطق. لا تخف. انت في أمان. قل لي من انت؟

ولم يتحرّك الجسد. لم تتحرّك أصابعه او شفتاه.

- يا حاج.

- قولي.

- أنت اشتغلت عند اليهود عدّة سنوات وتعرف لغتهم وترطن بها. اسأله بالعبراني لعلّه خواجا.

- يهودي يدخل المخيّم!؟.

- كل شيئ جائز.

واحنى الحاجّ أبو عمر رأسه على الجسد وقال: ما شلومخا؟ مين أتا يا زملي؟ مِيئيفو أتا باتا لهونا؟

ابتسمت الحاجّة أم عمر وهي تسمع زوجها يرطن بالعبري فهي تعتقد انه "لبلب عبراني" فقد عمل قبل الانتفاضة سبع سنوات في مزرعة الخواجا عزرا قرب ملبس.

ولم يتجاوب الجسد مع أسئلة الحاجّ العبريّة.

- هذا ليس يهوديًّا.

قرّر الحاج صبحي.

- لا يعرف العبراني.

- ولا يعرف العربي. لو كان عمر هنا لكلّمه بالانجليزي. يمكن انه أميركاني. مستوطن أميركاني. الأميركان يهود.

- زينب.

- نعم.

- هذا محتال مستعرب. ادخلوه الى الحوش ومعه جهاز لينقل الاخبار للمخابرات.

- فتّشه يا أبو عمر!.

همّ الحاج بأن يمدّ يده إلى الجسد ولكنّه توقف وقال: وهل تحسبين أنّ الجهاز بحجم الطّنجرة أو الكأس. الجهاز اليوم يوضع في فصّ الخاتم أو في زرّ البنطلون او في ياقة القميص.

- هذه علقة. علقة سوداء. اذا عاملناه معاملة حسنة نشجّعه على التّجسّس علينا وعلى سكّان المخيّم وإذا قتلناه فسيخرّب الجيش بيتنا.

- لن نسمح له بالتّجسّس ولن نؤذيه.

- كيف؟

- ننقله الى المخزن ونقفل عليه. لا يرى أحدًا ولا يراه أحد.

- نحمله انا وانت؟

- واذا مات فسوف نتهم بقتله.

- علينا أن نتخلّص منه. اسمعي يا زينب. ننقله الآن إلى المخزن وفي الليلة القادمة نحمله ونرميه بعيدًا في الشّارع العامّ.

- فكرة جيّدة.

- نرتاح من هذه المصيبة.

- نرتاح؟

- طبعًا.

- سوف نبقى نقول لو فعلنا كذا. لو سلّمناه للشّرطة، لو خبّأناه حتى يصحو.. لو..

- اذا سلّمناه للشّرطة فلن نسلَم واذا بقي عندنا فلن نسلم.

- واذا اكتشفوا أنّه كان عندنا ورميناه في الشّارع فلن نسلم أيضًا.

- اسمعي. ما رأيك ان أدفنه في الحوش.

- ونضع روحه في رقبتك؟

نظر الحاج صبحي إلى السّماء لعلّها تسعفه ثم نظر إلى وجه زينب الذي يغشاه القلق والحَيرة، وحكَّ جبينه بسبّابته وإبهامه وقرأ آية الكرسيّ فيما كانت الحاجّة زينب تراقبه معجبة بما يقرأه وتتوقّع منه أن يجد حلًّا للأزمة فالرّجال يعرفون في وقت الشّدائد. وهي تعرفه منذ زواجهما رجلًا قويًّا عصاميًّا شهما لا يعرف الخوف ويتغلّب على المصاعب والشّدائد وقد تحمّل الضرب والاهانات والجوع في مراكز الاعتقال عدّة مرّات وبخاصّة عند اعتقال عمر.

- اسمعي يا زينب. هذا ليس مستعربًا وليس أسيرًا هاربًا وليس مقاومًا وليس مستوطنًا، وليس منّا. هذا جسد مخلوق غريب. انظري إلى أذنيه. تختلفان عن اذني الانسان وانظري الى عينيه. تختلفان عن عيوننا. وانظري إلى أصابع يديه. انظري الى انفه. انفه عريض. عريض وفمه صغير جدًّا. هذا مخلوق غريب. جاء من بعيد. مخلوق فضائيّ. قرأت قبل سنوات أنّ مخلوقات فضائيّة تزور الكرة الأرضية.. تأتي على صحون طائرة وتأخذ عينات منها وتحمل معلومات وتعود الى كواكبها.

- اين قرأت هذا؟

- في صحيفة القدس.

- كلام جرائد.

- لا يمكن أن تكذب هذه الصّحيفة احترامًا لاسمها.

- واين الصحن الطّائر؟

- ربما أصابه عطب مثلما يصيب الطّائرة في الجوّ ولعلّه قفز مثل المظليّ.

- يعني خرب الصّحن الطّائر.

- وسقط المخلوق في حوشنا، ومن شدّة السّقوط لا يتحرّك.

- ولا يردّ على أسئلتك.

- هل يعرف أهل الفضاء لغة البشر؟.

- أن يكون رجل فضاء اهون واسهل لنا. لا يعاقبنا القريب ولا الغريب. ولن نعلق مع الاحتلال. هذا الاحتلال سقط علينا في حزيران ٦٧ مثل رجل الفضاء. نزل ولا ينوي الرّحيل.

- اسمعي يا زينب. سوف احضر بطانيّة ونضعها بجانب الجسد ونحرّكه حتى يصبح فوقها، ونجرّ أنا وانت البطانيّة، نسحبها، وندخله الى البيت، ونضعه في الغرفة الصّغيرة، ونترك الشّبّاك مفتوحًا اذا صحا يطير ويهرب.

- يعني انت متأكّد من أنّه رجل فضاء.

- وماذا يمكن ان يكون؟

- شيطان. جنيّ. عفريت.

- لو كان شيطانا او عفريتًا او جنيًّا لهرب حينما قرأت آية الكرسي والمعوذتين.

- وانا قرأت الصّمدية.

وتذكّر الحاج صبحي أنّ النّاس في صغره تحدّثوا عن الجنّيّ، الذي كان يسكن في دُغل الصّبّار وكان يحبّ امرأه متزوّجة من المخيّم ويأتيها ليلا فيغشاها. وتذكّر الحكايا عن المارد الذي كان يقف في طريق النّاس بين المخيّم وبين العين في ساعات السّحر. قد تكون الحاجّة زينب صادقة. ونحن وان كنا نعيش في القرن الحادي والعشرين، قرن العلم والاختراعات الا ان العالم مملوء بالجنّ وبالشّياطين وبالعفاريت. شياطين الإنس والجنّ. هناك جنّ كفرة وهناك جنّ مسلمون موحّدون. هناك رجال مقاومة يرعبون الاحتلال فيراهم جنًّا وهناك جنود فقدوا عقولهم ودخلوا المستشفيات للعلاج من هول ما شاهدوه.

- يا حاجّة زينب. الشّيطان هو الاحتلال.

- لعنة الله على الشّيطان.

- ابقي هنا بجواره. راقبي قدميه وراحتيه وفمه وانفه وعينيه حتى اعود مع البطانيّة.

- ما رأيك ان ارشّ على وجهة ماء لعلّه يصحو.

- بعدما ننقله.. فاذا صحا اطعمناه واسقيناه وفاوضناه.. ليرحل. ليريحنا. سأعود بسرعة. لا تقلقي!

وتركها واقفة قرب قدمي المخلوق الغريب ودخل إلى البيت وبدأ يتفحّص الحرامات والبطانيّات.. هذه في منتصف العمر وقد تخوننا. هذه أقوى وأمتن.. واخيرًا سحب حرامًا صوفيًا يكاد يكون جديدًا وحمله بيديه وخرج من المنزل.

وزينب؟

أين الحاجّة زينب؟

لا يراها.

هل تركت المخلوق الغريب وهربت؟

لعلّها ذهبت تقضي حاجتها.

لعلها خافت فابتعدت.

واتّسعت خطواته. وشاهد جسد الحاجّة زينب ممدّدًا على الأرض وشعرها الشّائب مكشوف.. ونقطة حمراء قرب فمها.. ولا شيء.. لا شيء غيرها. لا انس و لا جنّ!!.

وكانت الغنمة تثغو والعنزة تنادي ماع ماع. والدّجاجات تقرق.. اين هو؟ هل بلعته الارض؟ أم طار في السّماء؟ اين راح؟ اين اختفى؟ زينب. يا حاجّة زينب. يا أم عمر. بسم الله. انا الحاجّ صبحي.. انا ابو عمر. انا زوجك..

والديك يصيح ويصيح.

فصل من سيرة مروية
فلاديمير نابوكوف

ترجمة مايا أبو الحيات

بالمهد الذي يهتز فوق الهاوية، والفطرة السليمة، نعرف أن وجودنا ليس أكثر من شقّ في الضوء، بين أبديتين من الظلام. ورغم أن الأبديتين توأمان متطابقان، إلا أن المرء ينظر إلى هاوية ما قبل الولادة، بهدوء أكبر، من تلك الأبدية التي يتوجه إليها (بسرعة خمس وأربعين ألف نبضة في الساعة).

رغم هذا، وكطفل مصاب برهاب الزمن، أصابه الذعر عندما رأى للمرة الأولى، فيلماً منزلي الصنع صوّر قبل أسابيع قليلة من ولادته. شاهد عالما لم يختلف عن الواقع كثيرا – المنزل ذاته، الأشخاص أنفسهم- لكنه أدرك تلك اللحظة أنه لم يكن هناك على الإطلاق، وأن أحدا لم ينع غيابه. التقط إيماءةً غامضة في عيني أمه التي تلوح من نافذة، أعلى الدرج، تلك الإيماءة غير المألوفة في عينيها أزعجته، بدت كأنها نوع من الوداع الغامض. لكن ما أخافه فعلا هو مشهد عربة الأطفال الجديدة الواقفة باعتداد في الرواق. الواقفة كأنها تابوت، حتى لو كانت فارغة، وكأن عظامه في عرض معاكس للأحداث قد تحللت، أعلم أن هواجس كهذه ليست غريبة عن حياة الأطفال، دعني أقولها بطريقة مختلفة، أول الأشياء وآخرها غالبا ما يتم تقييمها بنوع من المراهقة الفكرية، ربما ما عدا تلك التي تستند إلى تربية دينية متينة. تتوقع الطبيعة من الرجل الناضج أن يتقبل هذين الفراغين الأسودين، قبل وبعد، بالصلابة ذاتها، التي يتقبل فيها الأمور العجيبة التي تحدث بينهما. الخيال، الفرحة الهائلة بالخلود وعدم النضج، يجب أن تكون محدودة. فمن أجل أن نتمتع بالحياة، يجب أن لا نتمتع بها كثيرا.

لقد تمردت على هذا الأمر، أشعر بالحاجة للإعلان عن تمردي والاشتباك مع الآخرين. مرارا وتكرارا بذل عقلي جهدا هائلا لتمييز الضعف الذي تحمله الومضات الشخصية، في ظلمات جانبي حياتي.

هذه الظلمة التي صنعتها جدران الوقت، التي تفصلني وتفصل قبضات يدي المكلومة عن العالم المتحرر، من حدود الزمن. أشعر بالسعادة الآن، لمشاركة الآخرين هذا الاعتقاد بالطريقة الأكثر وحشية. لقد تمكنت من التجول في أفكاري – أفكار يائسة تضيق كلما ذهبت فيها إلى البعيد- في المناطق النائية، حيث أستطيع تلمس بعض المنافذ السرية هناك، لأكتشف فقط أن سجن الوقت دائري ودون مخرج.

باختصار، جربت كل الأشياء. تخليت عن هويتي من أجل تخطي كل ما هو تقليدي، والتمكن من التسلل نحو عوالم كانت موجودة قبل أن أولد. أعرف روائيين وجنرالات متقاعدين، يتذكرون وجودهم في حيوات سابقة، كعبيد في الطرق الرومانية، أو حكماء يجلسون أسفل شجر الصفصاف في لاسا. لقد حاولت استعادة كل أحلامي القديمة من أجل إيجاد مفاتيح ودلائل لحل هذا اللغز- وليكن معلوما لديكم، أنني أرفض عالم القرون الوسطى الرث والمبتذل لفرويد، وحاجته الملتوية للبحث عن الرموز الجنسية في كل شيء(كالبحث عن شذرات فرانسيس بيكون في أعمال شكسبير)، أو الأجنة الصغيرة الممتعضة التي تتجسس من مخابئها الطبيعية على الحياة الجنسية لوالديها.

في البداية، لم أكن مدركا للوقت، لم يكن له حدود لدي، لقد كان سجنا. عندما أبحث في طفولتي (وهي الطريقة الثانية الأفضل للبحث في أبدية المرء) أستطيع رؤية صحوة الإدراك التي أصابتني كسلسلة من الومضات الفضائية، كمساحات تتناقص تدريجيا، لتشكل كتلاً مشرقة من الإدراك، وتمنح ذاكرتي السيطرة على انزلاقها.

تعلمت الأرقام وتكلمت بطريقة أو بأخرى في وقت مبكر جدا، لكن معرفتي الداخلية بأن أنا أنا، وأن والديّ كانا والديّ، من الواضح أنها تشكلت لاحقا، ويبدو الأمر مرتبطا بشكل مباشر باكتشافي لفارق العمر بيني وبينهما. أعتقد أن المناسبة كانت عيد ميلاد أمي، في أواخر الصيف في القرية، أستطيع تحديد ذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار أشعة الشمس القوية التي تخترق عقلي مباشرة حين أفكر في هذا الاكتشاف، وتداخل البقع الضوئية مع المساحات الخضراء في ذاكرتي. كنت قد طرحت أسئلة وقمت بتقييم للإجابات التي حصلت عليها. الأمر متطابق تماما مع ما تفترضه نظرية recapitulation؛ التي تقول بأن بداية الإنفعال الإنعكاسي في دماغ أسلافنا القدماء لا بد وأنه تزامن مع بداية شعورهم بالوقت.

بالتالي عندما واجهت كشفا جديدا، هو معرفة عمري، أربع سنوات، بالمقارنة مع عمر والِديّ ثلاثة وثلاثون وسبعة وعشرون، حدث لي شيء. لقد منحني هذا الاكتشاف صدمة هائلة وشعورا منعشا. كما لو أنني تعمدت للمرة الثانية، ضمن طقوس أكثر سماوية من طقوس الروم الكاثوليك التي

جرت قبل خمسين شهرا من الآن، والتي كان نصفها عويلاً ونصفها إحساساً بالنصر (أمي من خلال الباب نصف المغلق ومن خلف العادات البالية التي يتقيد بها الوالدان بالعادة، تمكنت من تصحيح قوس القسيس الأخرق، للأب قسطنطين فيتفينيتسكي)

شعرت بنفسي أسقط فجأة داخل وسط مشع ومتحرك، والذي لم يكن أكثر من عنصر الوقت النقي. تشاركت هذا الوسط- تماما كما يتشارك المغتسلون الفرحون مياه البحر- مع مخلوقات لم تكن من نفس الهيئة، يرتبط أحدها بالآخر من خلال التدفق الطبيعي للوقت، بيئة تختلف تماما عن العالم الوجودي، هنا، ليس فقط الإنسان من يستطيع الإدراك بل القرود والفراشات أيضا.

في تلك اللحظة، أصبحت مدركا، أن المخلوق ذا السابعة والعشرين بالأبيض والزهري الناعم الممسك بيدي اليسرى، هي أمي، وأن المخلوق ذا الثالثة والثلاثين، بالأبيض والذهبي الغامق هو والدي. كنت بينهما بينما هما يتقدمان إلى الأمام بذات الخطوات، تهاديت ثم هرولت ثم تهاديت مرة أخرى، من بقعة شمس إلى بقعة شمس أخرى على طول منتصف الطريق، في ممر حديقة أوكلينجز المزين في متنزه حيّنا، فيرا، في شارع سان بطرسبيرغ، روسيا، الذي أستطيع التعرف إليه بسهولة بينما أتذكره الآن. في الواقع من وجهة نظري الحالية المحايدة والتي لم تعد مسكونة بالوقت، عندما أنظر إلى ذلك اليوم من شهر آب في العام ١٩٠٣، أرى نفسي الصغيرة تحتفل بولادة حياة الإدراك لديها. لو أن ماسك يدي اليسرى وماسكة يدي اليمنى كانا حاضرين من قبل في عالمي الجنيني المبهم، لاختفيا خلف قناع رقيق ومجهول، لكن الآن ملابس والدي، زي حارس الفرس البرّاق، وذلك الانتفاخ الذهبي للدرع الواقي فوق صدره وظهره، يظهر كل هذا لي كالشمس. لسنوات عديدة لاحقة ظللت مهتما جدا بمعرفة عمر والديّ، أحاول التأكد منه كل سنة، كمسافر متوتر يسأل عن الوقت من أجل التحقق من ساعته الجديدة.

والدي، وليكن معلوما، كان قد خدم فترته العسكرية قبل ولادتي بوقت طويل. لذا أعتقد أنه ارتدى زيه وقلائد كتيبته القديمة في الحفل على سبيل المزاح.

لتلك المزحة، أدين أنا لأول بصيص كامل للإدراك - والذي سيكون له إنعكاسات لاحقة على حياتي، بما أن المخلوق الأول على الأرض الذي أدرك الوقت هو المخلوق الأول الذي ابتسم.

٢

لقد كان اكتشاف الكهف الأول (وليس كما يمكن أن يعتقده أتباع فرويد) هي ما كمنت وراء الألعاب التي كنت ألعبها وأنا في سن الرابعة. قماشة كبيرة، وأريكة بيضاء مغطاة بأشكال ثلاثية سوداء، موجودة بإحدى قاعات الرسم في بيتنا في فيرا، ترتفع في رأسي كنتاج هائل من الاضطرابات

الجيولوجية قبل بداية التاريخ. يبدأ التاريخ (بوعد من العدالة اليونانية) ليس بعيدا عن واحدة من نهايات هذه الأريكة، حيث أصيص الشجيرة الكوبية، مع أزهار زرقاء شاحبة، وأخرى مخضرة، تخفي نصف قاعدة التمثال الرخامي لديانا في زاوية الغرفة.

على الجدار مقابل الأريكة، مرحلة أخرى من التاريخ محفورة في إطار من خشب الأبنوس- واحدة من صور المعارك النابليونية حيث العرض والمجاز هما الخصوم الحقيقية، هنا يمكن للمرء أن يرى كل المجموعات ضمن مستوى واحد للرؤيا، عازفون جرحى، حصان ميت، نُصب تذكارية، أحد الجنود يوشك أن يطعن الآخر، والأمبراطور المحصن وسط جنرالاته يتمركز في ساحة المعركة المتجمدة.

يمكن للأريكة أن تبتعد بعض السنتمترات عن الجدار بمساعدة بعض الكبار، الذين يستطيعون استخدام كلتا أيديهم ثم ركلة قوية من واحدة من أقدامهم، لعمل ممر ضيق، أصنع له سقفا مريحا بمساند الأريكة وأغلق مخرجيه باثنتين من وسائدها. عندها أمارس متعتي بالزحف خلال هذا النفق المظلم، أتلكأ قليلا لسماع الغناء - إهتزازات الوحدة، تلك النغمات الحميمة التي يسمعها طفل صغير في مكان مخفي ومُغبر. من ثم بموجة من الذعر اللذيذ، بمصاحبة ارتطام الأيدي والركاب المسرعة على الأرض سأصل نهاية النفق، أركل الوسادات بعيدا، لتستقبلني شبكة من أشعة الشمس المنعكسة على الأرضية_ أسفل كرسي الخيزران المشغول في فيينا_ وذبابتان تتناوبان على الوقوف هناك.

الحلم، والأحاسيس الأكثر رقة، كنت أحصل عليها من كهف آخر، أصحو في الصباح الباكر أصنع خيمة من ملابس نومي وأدع خيالي يلعب بظلال الكتان البيضاء التي تنعكس بآلاف الطرق الغامضة مع الضوء الخافت، تلك الظلال التي تبدو كأنها تخترق تحولاتي الناقصة من مسافة هائلة، حيث أتخيل ذلك الحيوان الغريب الشاحب وهو يتجول على جوانب البحيرات.

السرير مع الشبكة القطنية الفضفاضة التي تغطي جوانبه يعيدني إلى متعة أخرى، كنت ألعب ببيضة كريستالية صلبة مزخرفة تركها أحدهم في أحد أعياد الفصح، اعتدت مضغ أحد جوانب ملاءات السرير حتى تبتل بالكامل، من ثم لف البيضة هناك بإحكام، فتتوهج جوانبها الملونة وتستعيد ذلك الإحساس الدافئ والمتوهج، وكأنها اكتمال لمعجزة التوهج والألوان. لكن ذلك لم يكن أقصى ما حصلت عليه من إشباع للجمال بعد.

كم هو صغير هذا الكون، (إذا قارناه بما يستطيع جيب الكنغر حمله)، كم هو تافه وسقيم بالمقارنة بوعي الإنسان، بقدرته على استعادة ما شكّله كفرد، والتعبير عن الأمر بالكلمات!

قد أكون مولعاً بانطباعاتي الأولى، لكنني أملك أسبابي لأكون ممتنا لها فهي من مهد لي الطريق للعيش في جنة حقيقية من الأحاسيس البصرية والعملية.

في أحدى ليالي خريف العام ١٩٠٣، خلال رحلة في الخارج، أستعدت ركوعي على وسادتي المسطحة وأنا أتكئ على نافذة قاطرة مخصصة للنوم (على الأغلب في أحدى قاطرات البحر الأبيض المتوسط المنقرض الطويلة الفاخرة، تلك التي تتشكل من ستة قاطرات باللون البني المصفر والألواح كريمية اللون) رأيت انفجارا هائلا لا يمكن تفسيره. ظهر لي مع حزمة عظيمة من الضوء أتت من جهة التلة لتستقر لاحقا في كيس من المخمل الأسود الذي يوضع به الألماس: الألماس الذي منحته لاحقا لشخصياتي الروائية للتخفيف من عبء غناي.

لقد استطعت إزالة العمى الذي غطى طفولتي بزخارفه، كعباي كانا باردين، لكنني رغم ذلك واصلت الركوع والتحديق. ليس هناك أجمل وأغرب من تأمل تلك الإثارات الأولى. التي تنتمي إلى عالم طفولي مثالي ومتناغم، والتي تشكل قالباً بلاستيكياً طبيعياً في ذاكرة المرء، تستقر دون أي جهد؛ ولا تبدأ بالعمل إلا عند استعادة الذكريات المراهقة، عندما تصبح قادرا على الاختيار ويصعب إرضاؤك. وأرغب أيضا بعرض الأمر مع الإشارة إلى كبت الانطباعات، الذي تعرض له الأطفال الروس العباقرة من جيلي، وكأن القدر كان يحاول منحهم ماهو مقدر لهم، بمنحهم أكثر مما يستطيعون مشاركته، في ضوء الكارثة التي ستمحو لاحقا العالم الذي عرفوه. تختفي العبقرية عندما يصبح لزاما إخفاء كل شيء، تماما كما فعلت مع الاطفال العباقرة ذوي الوجوه الجميلة والشعور المعقوفة الذين يلوحون بالهراوات أو يعزفون البيانو بإتقان، والذين تحولوا بالنهاية إلى موسيقيين من الدرجة الثانية بعيون حزينة وأمراض غامضة وأشكال مبهمة تعطيهم هيئات مخنثة.

رغم ذلك، ظل الغموض الفردي يضفي عذوبته على الذكريات. لا يمكنني إيجاد تلك الآلة التي شكلتني، لا في البيئة ولا في الجينات، البكرة المجهولة التي ضغطت حياتي لتشكل هذه العلامات المائية المعقدة، التي صار تصميمها الدقيق مرئيا، عندما قُدر لنور الفن أن يضيء حياتي.

٣

لتحديد ذلك بدقة، بمفهوم الوقت، وبعض الاستعادات من طفولتي، لابد لي أن أذهب عبر المذنبات والكسوفات، كما يفعل المؤرخون عند تعقب أجزاء من ملحمة ما.

في مواقف أخرى لا يوجد لدي نقص في المعلومات. أرى نفسي مثلا، واقفا حول صخور سوداء رطبة في الجانب البحري، بينما تعتقد الآنسة نوركوت، مربيتي الحزينة والضعيفة، أنني ألحق بها، وهي تتجول على طول الشاطئ المقوس برفقة أخي الصغير سيرجي. أضع بيدي لعبة على شكل سوار

بينما أزحف فوق الصخور، كنت أكرر كلمة "طفولة" بالأنجليزية باستمتاع، بشكل غريزي وبسرور عميق كأنها تعويذة، الكلمة بدت غامضة وجديدة، وأصبحت أكثر غرابة عندما تداخلت في عقلي الصغير الذي يفيض بالقصص والمعلومات مع قصص روبن هود وذات الرداء الأحمر، والأردية البنية للجنيات وقدراتهم القوية على الحدس. الصخور مليئة بالثقوب تملؤها مياه البحر الفاترة ترافق تمتماتي السحرية بتعاويذ خاصة، وأنا ألوح فوق تلك البرك الياقوتية الصغيرة. المكان بالطبع هو أبازي، في الأدرياتيك. الشيء حول معصمي، يبدو كخاتم ثمين مصنوع من مناديل خضراء ووردية شبه شفافة، وهو ليس أكثر من ثمرة من شجرة عيد الميلاد، أعطتني إياها أونيا أبنة عمتي الجميلة في سان بطرسبيرغ قبل أشهر قليلة. إحتفظت بها كأنها كنز عاطفي، إلى أن نمت فيها خطوط داكنة، كخطوط شعري المقصوص الذي اختلط مع دموعي في الحلم، خلال زيارة مروعة إلى مزين الشعر الكريه بجانب فيوم.

في ذات اليوم، في مقهى بجانب الماء، رأى أبي أثناء تقديم الطعام لنا، ضابطان يابانيان يجلسان على طاولة بالقرب منا، غادرنا فورا- طبعا ليس قبل أن أتناول بسرعة عصير الليمون.

السنة كانت ١٩٠٤، كنت في الخامسة، روسيا تحارب اليابان مع شعور عارم بالبهجة. الرسومات الأنجليزية التي عرضتها علينا الآنسة نوكورت بشكل أسبوعي أعادت إنتاج رسومات الحرب التي أنتجها الفنانون اليابانيون، كانت تظهر القاطرات الروسية كألعاب -بأسلوب التصويرية اليابانية_ ستغرق حين يبذل جيشنا جهدا في تثبيت المراسي في جليد بحيرة بايكال الغادرة.

لكنني أملك ارتباطا أقدم بتلك الحرب. في إحدى ظهيرات بداية العام نفسه، في بيتنا في سان بطرسبيرغ، تم إرسالي إلى مكتب أبي لأقول "مرحبا" لأحد أصدقاء العائلة، الجنرال كوروباتكين. بزيه الخشن الذي يئن جسده تحت وطأته، كان يمد نفسه ليوزع مجموعة من أوراق اللعب، على الأريكة حيث كان يجلس، وضع عشرة منها بمحاذاة بعضها البعض ليصنع خطا مستقيما. عندها قال لي " هذا هو البحر عندما يكون الجو هادئا" ثم عكس كل زوج ليصبح الخط المستقيم خطا متعرجا – وهذا " البحر العاصف" . خلط الأوراق وكان على وشك أن يصنع خدعة أفضل كما كنت أتمنى، عندما قاطعنا مساعده ليقول له شيئا. بنحنحة روسية مستنفرة، نهض كوروباتكين من مقعده بصعوبة، فلتت الأوراق من يده وقفزت على الأريكة.

ذلك اليوم، صدرت الأوامر بتولي كوروباتكين القيادة العليا للجيش الروسي في الشرق الأقصى. لهذه الحادثة تتمة أخرى لدي، بعد خمسة عشر عاما، أثناء عبور أبي الجسر من منطقة سيطرة البلشفيين في سان بطرسبيرغ إلى جنوب روسيا، أوقفه رجل كبير في السن، بدا كفلاح ملتحٍ يرتدي معطفا من

جلد الخروف. طلب من والدي ولاعة. تلك اللحظة استطاع أحدهما تمييز الآخر، كنت أتمنى لو أن العجوز كوروباتكين في تنكره الريفي هذا استطاع الإفلات من السجن السوفييتي، لكن ذلك لم يحدث. الذي أشعرني بالرضا في ما يتعلق بلعبة الأوراق السحرية التي أراني إياها، أن الأوراق إيضا تم العبث بها وفُقدت كلها، تماما كما حدث مع جيشه الذي اختفى، كل شيء سقط، كما حصل مع لعبة القطار خاصتي في شتاء عام ١٩٠٤-١٩٠٥، في فيسبادن، حين حاولت دفعه للتقدم فوق البرك المتجمدة في حديقة فندق أورانيون.

أعتقد أن تتبع مثل هذه التصميمات الموضوعية في حياة المرء، هي الهدف الحقيقي من كتابة سيرته.

٤

نهاية الحملة الروسية الكارثية في الشرق الأقصى، كانت مترافقة مع موجة من الاضطرابات الداخلية الغاضبة. بتشجيع من تلك الاضطرابات، عادت أمي مع أطفالها الثلاثة الى سان بطرسبيرغ بعد عام تقريبا من الحياة في المنتجعات الأجنبية.

كان هذا في بداية العام ١٩٠٥. أيامها كانت أحوال الدولة تقتضي وجود والدي في العاصمة، حيث سيفوز الحزب الديمقراطي الدستوري، والذي كان أبي واحدا من مؤسسيه، بأغلبية المقاعد في أول برلمان في العام التالي.

خلال واحدة من إقاماته القصيرة معنا في القرية ذلك الصيف، قال أبي إنه يشعر بخزي في مشاعره الوطنية، لأنني وأخي لا يمكننا القراءة والكتابة سوى باللغة الإنجليزية وليس بالروسية (باستثناء كاكاو وماما). وهكذا تقرر أن على مدرس القرية أن يأتي بعد ظهر كل يوم ليعطينا دروسا ويأخذنا في نزهة.

تعيدني ذاكرتي، وصوت الصفارة الحاد التي كانت جزءاً من أول زي بحارة أملكه، إلى تلك المصافحة الأولى مع أستاذي الرائع في الماضي البعيد. كان لفاسيلي مارتينوفيتشزهينوسيكوف لحية بنية مشعثة، ورأس أصلع، وعيون زرقاء صينية الشكل، مع انتفاخ جميل في الجفن العلوي.

أحضر لنا في يومه الأول صندوقا مليئاً بمكعبات مثيرة للاهتمام بأحرف مرسومة على جوانبها، كان يمسك بتلك المكعبات كما لو أنها أشياء لا تقدر بثمن (إلى جانب أنها تتشكل لصنع أنفاق للعبة القطارات خاصتي).

كان أستاذي يبجل والدي، فقد قام أبي مؤخرا بتجديد مدرسة القرية، بطراز قديم معتمدا على

التفكير الحر. يلبس ربطة عنق سوداء معقودة على شكل قوس، دون مبالاة. ويستخدم صيغة الجمع المخاطب عند التعريف بي، أنا الولد الصغير. ليس بالطريقة القاسية التي يفعلها الموظفون، وأيضا ليس كما كانت أمي تفعل في لحظات الحنان الجياشة، التي تصيبها حين تكون حرارتي مرتفعة أو حين أفقد قطارا صغيرا (كما لو أن صيغة المفرد كانت أضعف من حمل حمولتها من الحب)، بل كان يخاطبني برزانة وتهذيب رجل يتحدث الى رجل آخر لا يعرفه بما فيه الكفاية لاستخدام الضمير "أنت" .

بثوريته النارية، سيلفت أستاذي إنتباهي إلى النزاهة في بلادنا، وسنتكلم عن الإنسانية والحرية وبشاعة الحرب والحزن (ولكن إثارتها، كما أعتقد) وعن ضرورة تفجير الطغاة. وأحيانا قد يقوم بإحضار كتاب السلم الشعبي دولوي أوروزهي! (ترجمة بيرتا فون ستنر "موت والفن نيدار!") ويعرضني، أنا الطفل ذو الستة أعوام، إلى الاقتباسات المملة، التي حاولت دحضها؛ في ذلك العمر الصغير والأهوج تحدثت عن إراقة الدماء، وأنا أدافع بغضب عن عالم الألعاب خاصتي المؤلف من المسدسات وفرسان آرثر.

أثناء حكم لينين، تعرضت كل الفروع غير الشيوعية للاضطهاد بلا رحمة، تم إرسال زيرنوسيكوف إلى مخيم الأشغال الشاقة، لكنه تمكن من الفرار إلى الخارج، وتوفي في نارفا في العام ١٩٣٩.

أنا مدين له نوعا ما، في قدرتي على الاستمرار في امتداد آخر موازٍ لطريقي الذي كان يتوازى مع الطريق العام لذلك العهد المضطرب.

عندما قام القيصر في تموز من العام ١٩٠٦، بحل غير دستوري للبرلمان، عقد عدد من أعضائه من ضمنهم والدي جلسة تمرد في فيبورغ، وأصدروا البيان الذي حث الشعب على مقاومة الحكومة.

لهذا سجنوا بعد أكثر من سنة ونصف. أمضى والدي في السجن الإنفرادي ثلاثة أشهر، كان وحيدا ومرتاحا مع كتبه، وحوض الاستحمام القابل للطي، ونسخته الخاصة من دليل ج.ب مولر للجمباز المنزلي. حتى نهاية عمرها، حافظت أمي على رسائله التي استطاع تهريبها والمكتوبة على ورق الحمام بأقلام الرصاص (وقد نشرت في العام ١٩٦٥، في العدد الرابع من مجلة اللغة الروسية فوزدوشني بوتي، الذي حررها الروماني جرينبيرج في نيويورك).

كنا في القرية حين استعاد أبي حريته، وكان مدرس القرية هو من ترأس التحضيرات للاحتفال بخروجه، ارتفعت الرايات (بعض منها بالأحمر الصريح) لتحية والدي في طريقه من السكة الحديدية نحو منزلنا، تحت قوس من إبر التنوب وتيجان الأزهار الزرقاء، زهرة والدي المفضلة.

ذهبنا نحن الأطفال إلى القرية أيضا، حين أذكر ذلك اليوم أستعيد بوضوح شديد، إنعكاس أشعة

الشمس على النهر، والجسر، والصفيح المبهر، الذي يبدو أن أحد الصيادين تركه على السور الخشبي، وهضبة شجرة الزيزفون وكنيستها الوردية الحمراء وضريح من الرخام حيث وضعوا أمي الميتة لاحقا. أذكر أيضا الطرق المغبرة المؤدية إلى القرية، وشريط عشب الباستيل الأخضر القصير، مع مساحات رملية جرداء، تمتد بين الطريق والشجيرات الأرجوانية، خلف صف من الأكواخ المتهالكة التي تملؤها الطحالب. ويظهر المبنى الحجري الجديد للمدرسة بالقرب من المبنى الخشبي القديم، بينما يقودنا كلب أسود صغير بأسنان بيضاء ينطلق بسرعة لكن بصمت مطلق من بين الاكواخ، كمن يوفر صوته لإحداث انفجار صوتي سيتمتع بإصداره عندما يذهب به صمته في النهاية إلى العدو بسرعة أكبر.

٥

القديم والجديد، اللمسة الليبرالية والبطريركية القديمة، الفقر القاتل والثروة القدرية، مفاهيم تداخلت في اشتباك مخيف، في العقد الأول من قرننا. مرات عديدة خلال الصيف ونحن نتناول غذاءنا، في غرفة الطعام المشرقة، التي تزينها إطارات من شجر الجوز، في الطابق الأول من بيتنا في فيرا أن ينحني مانور ألكسي، كبير الخدم، بتعابير ممتعضة، ليبلغ والدي بصوت منخفض (خاصة في حال كان لدينا ضيوفا) أن مجموعة من القرويين يريدون رؤية السيد بارين في الخارج. بخفة يرفع والدي منديله عن حضنه ويستأذن أمي بالخروج.

يصلنا صوت الترحيب المهذب بأبي من قبل الفلاحين من إحدى النوافذ في الطرف الغربي من غرفة الطعام بالقرب من المدخل الرئيسي، حيث يمكن للمرء أن يرى الجزء العلوي من شجيرات زهر العسل المقابلة للشرفة. يصل الصوت إلينا حيث نجلس كأنه استقبال مجموعة غير مرئية لأبي غير المرئي أيضا. لا نسمع ما يُقال، لأن النوافذ التي يقفون أسفلها تم إغلاقها للإبقاء على الجو دافئا في الداخل. يمكن التخمين أنهم جاؤا لطلب وساطته في بعض المشاكل المحلية، أو طلب إعانة خاصة، أو لأخذ الإذن لحصاد بعض المحصولات من أرضنا، أو تهذيب بعض الأشجار.

عندما يكون ما جاؤوا من أجله منحة لمرة واحدة، كما كان يحدث في العادة، نتوقع أن يعود هذا الصوت مرة أخرى، كعربون امتنان، حيث يتم وضع بارين الطيب في صورة المحنة الوطنية، التي ألمت بهم كأن يتم ضربك وإلقاء القبض عليك والتحفظ عليك أمنيا من قبل قوات الأمن.

في غرفة الطعام، يُطلب مني ومن أخي الاستمرار بتناول طعامنا. تلقي والدتي من بين سبابتها وإبهامها، نظرة خاطفة تحت الطاولة لمعرفة ما إذا كان كلبها الألماني العصبي هناك.نسمع جملة "يوم واحد وتسقط" بالفرنسية من ملو غولي، وهي مربية والدتي الطاعنة في السن المتشائمة دائما،

والتي لا تزال تسكن معنا (بشروطها الفظيعة لمربينا الخاصين).

من مكاني على الطاولة سأرى فجأة من خلال واحدة من النوافذ الغربية حالة رائعة من الإرتقاء. هناك، للحظة، أرى أبي في بدلته الصيفية البيضاء مترامية الأطراف تتموج مع الريح بشكل رائع، أطرافه تتخذ شكلا عاديا غريبا، وسامته، ورباطة جأشه، كلها ترتفع نحو السماء.

ثلاث مرات، سيطير في هذا الشكل في رميات غير مرئية المصدر، سيرتفع أكثر في المرة الثانية عن الأولى، بعد ذلك في طيرانه الأسمى، سيرتفع وكأنه ارتفاعه الأخير، مثل واحدة من تلك الشخصيات الفردوسية على السقف المقبب للكنيسة التي ترتفع بشكل مريح، وهي تحمل في طيات ثيابها ثروة ما، بينما في الأسفل، يذوب الشمع تدريجيا في أيدي البشريين، واحدا تلو الآخر، لصنع سرب من اللهيب الرفيع في ضباب البخور، مع هتافات الكاهن عن الراحة الأبدية، زنابق الجنازات تخفي وجه من هو هناك، في نعش مفتوح بين الأضواء السابحة.

الفصل الثاني

١

منذ اللحظة الأولى التي أذكرها عن نفسي (من أجل الفضول والمتعة، ونادرا للإعجاب أو الاشمئزاز)، كانت الهلوسات موجودة. هلوسات شفهية، وبعضها الآخر بصرية، وفي الحالتين لم أستفد منهما كثيرا.

اللهجة المصيرية التي قيدت سقراط أو تلك التي حرضت جونيتا دارك، تحولت معي إلى مستوى آخر يمكن للمرء سماعه بمجرد رفع وإغلاق سماعة هاتف خط مشغول. فقط قبل النوم، أصبح غالبا واعيا لنوع من المحادثات أحادية الجانب، تجري في المقطع المجاور لذهني، مستقلة تماما عن الاتجاه الحقيقي الذي تتوجه نحوه أفكاري. أصوات مجهولة محايدة، ومنفصلة، أمسك بها تردد كلاما ليس له أي أهمية لدي، جمل اعتباطية بالإنجليزية أو الروسية، ليست موجهة لي حتى، وتافهة لدرجة أنني لا أجرؤ على إعطاء أمثلة عليها، ثقل التسطيح الذي أريد نقله، يعكر صفوه رتل من الأحاسيس التي أشعر بها.

هذه الظاهرة السخيفة تبدو كالنظير السمعي لبعض الرؤى التي تحصل في الفترة ما بين الصحو والنوم، والتي أعرفها أيضا جيدا. أعني أنها ليست الصور الذهنية المشرقة، تلك الصورة التي يستحضرها جناح الإرادة في الذهن (مثل وجه والدين محبين فارقا الحياة منذ زمن بعيد مثلا) ؛

والتي هي إحدى أشجع الحركات التي يمكن لروح الإنسان فعلها.

ولا أعني إيضا ظاهرة الظلال العائمة على شبكية العين الذي يحدثها إختلال التوزيع في السائل الدمعي بين الشبكية وبؤبؤ العين، والتي تظهر كأشكال شفافة منجرفة عبر المجال البصري.

ربما ما أفكر به هو أقرب إلى الأوهام المنومة، بقع ملونة، بصمة من صورة ستأتي، كأن المصباح رقم واحد أضاء توا، جروح أجفاني الليلية. ومع ذلك، فإن صدمة من هذا النوع ليست في الحقيقة نقطة انطلاق ضرورية للتطور البطيء والمطّرد للرؤى التي تمر أمام عيني لحظة إغلاقها، إنها تأتي وتذهب، دون مشاركتي أنا المراقب النعس، لكنها تختلف بشكل أساسي عن صور الأحلام التي أمارسها على حواسي. غالبا ما تكون سيئة. حيث يتم العبث بي من قبل أشكال شريرة، مخلوقات غليظة وأقزام منمقة مع أنوف وآذان متوردة. على الرغم من ذلك فإن لصوري هذه مع الوقت وقع المهدئ، وبدلا من أن تخفت جودتها تدريجيا، تصبح أكثر وضوحا كأنها معروضة على الجانب الداخلي للجفن، أشكال رمادية تمشي بين خلايا النحل أو ببغاوات سوداء صغيرة تختفي تدريجيا بين ثلوج الجبال، أو بُعد أرجواني يتداعى خلف الهوائيات المتحركة.

إضافة لهذا كله، أشكل أيضا مثالا جيدا لظاهرة "السمع الملون". ربما "السمع" ليس المصطلح الدقيق للأمر، بما أن الإحساس اللوني، يبدو كنتاج للفظ الشكل المعطى للحرف، في اللحظة التي أتخيل بها خطوطه الخارجية.

المد الطويل لحرف a بالانجليزية (وهذه هي الأبجدية الموجودة في ذهني ما لم ينص على خلاف ذلك) لديه بالنسبة لي لون الخشب الرمادي، لكن حرف a بالفرنسية يستحضر خشب الأبنوس المصقول. هذه المجموعة السوداء تتضمن أيضا حرف g الغليظة المقابلة (للمطاط البركاني) وحرف R التي تقابل (خرقة سوداء يتم تمزيقها) حرف n للشوفان، المعكرونة المتعرجة لحرف L، والمرآة المدعمة بيد من العاج للحرف o، أنا في حيرة من الفرنسية والتي أراها كامتلاء منطقة التوتر السطحي للكحول في كوب صغير.

بالمرور نحو المجموعة الزرقاء، هناك X الفولاذية، و Z الرعدية، و k للتوت. وبما أنه يوجد تفاعل خفي بين الصوت والشكل، أرى q بنيا أكثر من k، في حين أن s ليست باللون الأزرق الفاتح ل C، و a خليط غريب من الأزرق السماوي واللؤلؤي.

الصبغات المتجاورة لا تندمج، والإدغامات ليس لها لون خاص بها، ما لم يتم تمثيلها بحرف واحد في بعض اللغات الأخرى (مثلا الرمادي المنتفخ، لثلاثة أحرف روسية متتالية تمثل حرف SH، حرف بقِدم نهر النيل، الأمر الذي يؤثر على تقديمه بالإنجليزية).

أسارع إلى إكمال قائمتي قبل مقاطعتي. في المجموعة الخضراء، هناك f للأوراق القديمة، p للتفاح غير الناضج ، وt للفستق. المعكرونة الخضراء المخلوطة نوعا ما بالبنفسجي، هو أفضل ما يمكنني فعله لحرف w.

المجموعة الصفراء تشتمل على مشتقات ال e و I، و d الكريمي، و y الذهبي الفاتح، وU التي لا أستطيع التعبير عن قيمتها الأبجدية إلا من خلال جملة "نحاسي مع لمعان زيتوني". في المجموعة البنية، هناك النبرة المطاطية من حرف G ، وj الأكثر شحوبا، وشريط الحذاء المهتريء لحرف h. وأخيرا، ومن ضمن المجموعة الحمراء، لحرف B لدي صوت يسمى من قبل الرسامين لون ترابي أقرب إلى البرتقالي، m فانيلا وردية مضاعفة، وأخيرا أملك تطابقا مثاليا للحرف V مع "وردي كوارتزي" وجدته في قاموس مائيرز وبولس للون.

قوس قزح، بشكله الأولي والموحل، هو في لغتي الخاصة يقابل الكلمة صعبة النطق: kzspygv. وهو أول كاتب، على حد علمي ناقش حالة السمع الملونة في احتفالات ١٨١٢، وهو طبيب ألباني.

لا بد وأن اعترافات المصابين بالمتواليات الحسية، تبدو مملة وغير معقولة، لأولئك المحميين من إنجرافات مماثلة، المحصنين بجدران أكثر صلابة من التي أملكها. على الرغم من هذا يبدو هذا بالنسبة لأمي، أمرا طبيعيا جدا. أثيرت المسألة ذات يوم عندما كنت في السابعة، كنت أستخدم مجموعة من مكعبات الأحرف الأبجدية القديمة لبناء برج، وأقول لها بشكل عرضي بأن كل ألوان المكعبات غير صحيحة، اكتشفنا لاحقا أن بعض المكعبات لها اللون الذي كنت أراه مناسبا، إلى جانب تأثرها بصريا بالنوتات الموسيقية.

الموسيقى لا تثير فيّ حالة لونية على الإطلاق. تؤثر بي الموسيقى، ويؤسفني أن أقول ذلك، كمتوالية تعسفية لأصوات تثير بي تهيجا أقل أو أكثر. في بعض الظروف العاطفية يمكن أن أصمد أمام الموجات الغنية لصوت الكمان، لكن حفلات البيانو وجميع آلات النفخ، تضعني في جرعات صغيرة وتسلخني في جرعات أكبر منها. على الرغم من عدد حفلات الأوبرا التي أحضرها كل شتاء (أعتقد أنني حضرت رسلان و بيكوفايا عشرات المرات على مدى أعوام)، إلا أن ضعف استجابتي للموسيقى كانت تتضاعف مع العذابات البصرية التي تسببها لي، عدم قدرتي على القراءة خلف كتف بيمينز أو المحاولة عبثا تخيل الفراشات فوق أزهار الشمس في حديقة جولييت.

فعلت أمي كل شيء لتشجيع حساسيتي العامة للتحفيز البصري. لا يمكنني تعداد اللوحات المائية التي رسمتها خصيصا لي كما كانت تقول، أو شعوري الهائل بالكشف، حين أرتني الشجرة الأرجوانية التي تنمو من خليط الأزرق والأحمر!

في بعض الأحيان، في منزلنا بسان بطرسبيرغ، كانت تخرج مجموعة من المجوهرات من مخبأ سري في جدار غرفة نومها (الغرفة التي ولدت بها إيضا)، لتصنع منها كتلة كبيرة لأستمتع بها وقت النوم. كنت صغيرا جدا حينها، وكانت تلك التيجان المشعة والحلي والأقراط تعيدني إلى الأسرار والسحر التي كانت تغلف المدينة خلال حكم الأمبراطور. أيامها كان الصمت يغلف ليالي المدينة الباردة، الأرقام العملاقة، والتيجان، والتصاميم العريقة الأخرى التي صُنعت بها المصابيح الكهربائية الملونة، والياقوت، والزمرد، كلها كانت تصطف كقيد متوهج فوق خط الثلج المغلف للأسلاك على واجهات البيوت على طول الشوارع السكنية.

٢

أمراض طفولتي المختلفة جعلتني أقرب لأمي. كطفل صغير، كنت أظهر استعدادا غير طبيعي لمادة الرياضيات، الأمر الذي فقدته تماما في فترة شبابي ذات الموهبة الواحدة. تفاقمت هذه الموهبة أثناء مشاداتي مع الحمى القرمزية أو التهاب اللوزتين، عندما كنت أشعر بأشكال وأعداد هائلة تنتفخ بلا هوادة في دماغي المتألم.

فسر لي معلم أحمق اللوغاريتمات في وقت مبكر جدا، وكنت قد قرأت (في مجلة بريطانية، أعتقد أنها مجلة الورقة الخاصة للصبي) عن حاسبة هندوسية تستطيع بثانيتين إيجاد الجذر السابع عشر لنقل للرقم، ٣٥٢٩٤٧١١٤٥٧٦٠٢٧٥١٣٢٣٠١٨٩٧٣٤٢٠٥٥٨٦٦١٧١٣٩٢ (لست متأكدا من أنني حصّلت هذا فعلا، على أي حال الجذر كان ٢١٢).

كانت تلك هي الوحوش التي ترعرعت على هذياني، وكانت الطريقة الوحيدة لمنعها من الازدحام في نفسي هي استخراج قلوبها وقتلها. لكنها كانت أقوى مني بمسافات. كنت أجلس وأحاول بمشقة تكوين جمل تشرح الأمر لوالدتي. لكنها بتأثير من هذياني، استطاعت أن تدرك الأحاسيس التي أتكلم عنها، والتي كانت قد خبرتها بنفسها يوما، وقد كان من شأن تفهمها هذا أن يعود بكوني المتمدد، نحو قاعدته النيوترونية.

لتحليل السرقة والانتحال الذاتي في النصوص الأدبية من المفيد مقارنة العنصر الأساسي من روايتي الهدية مع الحدث الحقيقي. في أحد الأيام، بعد أيام طويلة من المرض، كنت مستلقياً على السرير وأنا لا أزال في حالة ضعف شديد، وجدت نفسي فجأة مصابا بخفة فرح ونشوة من الأكاذيب. أعرف أن أمي قد ذهبت لتشتري لي هديتي اليومية والتي تخفف عني وطأة مرحلة النقاهة من المرض هذه، وتجعلها مفرحة جدا. لم أستطع أن أخمّن هديتها هذه المرة، ولكن من خلال رؤية غريبة واضحة كوضوح الشمس، رأيتها تتجه بعيدا في شارع مورسكايا نحو شارع نيفسكي.

ميزت الضوء الذي رسمته زلاجات حصانها. سمعت حمحمة أنفاسه، والإيقاع الذي يحدثه صوت خصيتي الحصان المتضاربتين، والكتل المتجمدة والثلوج التي ترتطم بمقدمة المزلجة.

أمام عيني، وقبل أن تظهر أمي، تلوح لي خلفية الحوذي، بمريوله الأزرق المشدود على خصره بقوة، الساعة الجلدية التي تخرج من حزامه القديم تشير أن الساعة الآن (٠٢:٢٠). تبدو أردافه من أسفل المريول كانحناءات يقطينة محنطة محشوة وضخمة. رأيت فراء الفقمة الخاص بأمي، ونظرة الفشل التي تعلو وجهها الرشيق مع تزايد السرعة الجليدية، نظرة سيدة من سان بطرسبيرغ تقود في الشتاء. زاويتان كبيرتان من معطف جلد الدب الذي يغطيها من الأعلى وحتى أسفل خصرها كانتا مربوطتين بحلقات أسفل المقعد، ويقف خلفها في الزاوية الضيقة أجير بقبعة ممسكا تلك المقابض لدعمها.

لا أزال أراقب المزلجة، رأيتها تتوقف عند متجر تريومان (كتابة، حلي برونزية، أوراق لعب)، تخرج أمي الآن من متجره يتبعها الأجير الذي يحمل مشترياتها، والتي بدت لي كقلم رصاص. دهشت بأنها لم تحمل هذا الشيء الصغير جدا بنفسها، هذا الأمر غير المتطابق للأبعاد، أعاد لي شيئا بسيطا من "التمدد العقلي" _القصير جدا_ الذي كنت آمل أنه قد ذهب مع الحمى.

حين ركبت مرة أخرى بالمزلجة، استطعت مشاهدة الأنفاس التي يطلقها الجميع وتشكل دخانا مع ارتطامها في الهواء البارد، حتى أنفاس الحصان. شاهدت، أيضا، حركة العبوس المألوفة التي تفعلها أمي لإبعاد شبكة الحجاب القريبة من وجهها، وبينما أكتب هذا، تعود لي لمسة الرقة التي تشعر بها شفتي عندما أقبل خدها المغطى بالحجاب- مع رجفة البهجة الآتية من الثلج -.

بعد دقائق قليلة، دخلت أمي غرفتي. تحمل بين يديها ربطة كبيرة. كانت في رؤيتي أصغر بكثير

- ربما، لأنني صححت حسيا ما حذرني منه المنطق، والذي لا تزال بقايا لعينة منه عالقة في عالم هذياني الخاص- ثبت الآن بأن الشيء الذي جلبته لي، هو قلم رصاص عملاق متعدد الأضلاع، له أربعة أقدام طويلة وغليظة. كان معلقا كنموذج في نافذة المحل، افترضت هي أنني قد أرغب بامتلاكه، كما أرغب بكل الأشياء التي لم تكن قابلة للشراء. أضطر صاحب المحل للاتصال بوكيله، وهو "دكتور" ليبنر (كما لو أن الصفقة تملك بالفعل بعض الأبعاد المرضية).

تساءلت في لحظة ما، عما إذا كان مؤشر القلم مصنوعا من الرصاص الحقيقي، لقد كان كذلك. بعد بضعة سنوات، أرضيت فضولي بحفر ثقب في أحد جوانبه، وكان الرصاص يذهب مباشرة على طول الشق، حالة مثالية من الفن لأجل الفن قدمها فابر والدكتور ليبنر، بما أن قلم الرصاص كان كبيرا جدا للاستخدام، وطبعا، لم يكن مصنوعا للكتابة به أصلا.

"أوه، نعم،" كانت أمي تقول كلما ذكرت لها هذا أو ذاك الإحساس غير الطبيعي. "نعم، أعرف كل ذلك،" وبسذاجة غريبة نوعا ما كانت تناقش أشياء كضعف البصر، وتنتقد الأعمال الخشبية في الطاولة ثلاثية الأرجل، والهواجس، ومشاعر الديجا فو، والنزعة الطبقية التي تحملها عن أجدادها، وأنها ذهبت إلى الكنيسة فقط في الصوم الكبير وعيد الفصح.

مزاجها المختلف تمثل بالمسافة الصحية التي أبعدتها عن طقوس الكنيسة الكاثوليكية اليونانية وكهنتها. وجدت أمي جاذبية عميقة في الجانب الأخلاقي والشاعري في الإنجيل، ولكنها لم تشعر بحاجة لتأييد أي عقيدة في العلن. انعدام الأمان المخيف في الحياة الأخرى، وافتقارها للخصوصية لم تتمكن من أفكارها. أخذ تدينها شكل التدين النقي والعميق الذي يؤمن بوجود عالم آخر وباستحالة فهمه بشروط الحياة الدنيوية التي نملكها.

كل ما يمكن للمرء الحصول عليه هو لمحة، وسط الضباب والوهم، شيء حقيقي يكمن هناك، تماما كما يتمتع بعض الأشخاص بموهبة غير عادية على الاستمرار في الإدارك أثناء نومهم العميق، في مكان ما خلف وقائع كابوس متشابكة وعاجزة، تكمن الحقيقة الواقعية لساعة الإستيقاظ.

أندرس سابيلا.. رجل ذو دروب أربعة

ترجمة وتقديم أحمد يعقوب

"أحد أهم الأصوات الغنائية الأكثر أهمية في تشيلي". هكذا يصفه الشاعر "ماتياس رفيدي"[١]، ويقول عنه: " أندرس مبدع بروح طفل، يداه تحولان كل شيء الى شعر وصداقة، قصائده العنيدة تقدم لنا انساناً صاحب جذور عميقة في التخيّل وله سيطرة مطلقة على الحرفة الشعرية وسحرها".

والشعر يراه أندرس:"ثياب يوم الأحد بالنسبة للكلمات" والكلمة لـ "أندرس" تعني "الحياة" ويؤكد أنه: "بفضل الكلمة أنا موجود، أنا رجلٌ في خدمة الحب والسلام "، لهذا أطلق شعار "سلام وشعر" ليصبح "يافطة تعلق في جميع أنحاء تشيلي، انتشرت عبر بطاقات المعايدة، بل تم وضعها على علب الكبريت التي كانت تصدرها تشيلي ضمن صادراتها الخارجية" .

يسكنه قلق دائم إزاء التخيّل والأسطورة التي يحب اجتراحها بنفسه، لكن سعادته لن تكتمل إلا: "لو أنني عشت في كشك قديم على ضفتي البحر، ويكون ثمة جسر يوصلني، كذلك مع قارب أتمكن من الكتابة فيه، كتابة كلّ ما أشتهيه يوما بعد يوم. أن أكتشف شعراً في زهرة، بل في نظرة طفل في نوارسي، في التراب... فأنا القرصان الأكثر سعادة عندما أتمكن من معانقة البحر...".

لكنه لا يكف عن تذكر ما أورثه إيّاه والده الفلسطيني: "كانت لوالدي نظرة بانورامية تجاه القدس، كل صباح كان يتأمل صورتها وكأنه يستمد منها الطاقة اللازمة كي ينطلق الى عمله، وبشكل يومي كان يقودني الى الصورة ويبدأ بالتأشير الى قباب المساجد، الكنائس، المدينة القديمة، ويذكرني دائما أنه في تلك الشوارع كان "يتعفرت" في طفولته، وكان يؤكد لي بصوت حازم وصارم: "ولدي فيك الكثير من هناك". وهكذا كان يحملني مسؤولية جرت في دمائي هي: "الاحتفاظ بالقدس في القلب".

---

١) شاعر تشيلي من أصول فلسطينية.

لكنه يوازن في انتمائه بين فلسطين وتشيلي، إذ قال "نيرودا " عنه: "أندرس سابيلا شمالي، كما أنا جنوبي".

تأخذه روحه الإنسانية الشمولية الى منابع الأدب العالمية الى "بودلير" و"روبن داريو" و"ماتشادو" إضافة الى التراث العربي الذي منحه ثراءً لغوياً وخيالاً فياضا وحنينا ناعما.

بوهيمي خاص

في شبابه المبكر ترأس مجلة (البردى / أوراق شعرية)، وفي عام ١٩٣٠ ترأس المجلة التي تصدر عن المدينة التي ولد فيها وتحمل اسمها (انتوفاغستا)، كما أسس في ١٩٣٣ مجلة "إلى" والتي وصلت أعدادها الى المائة عدد، مما أعطاها مكانتها كإحدى أهم المطبوعات في الثقافة التشيلية. وفي فترة دراسته الجامعية ترأس المجلة الناطقة باسم اتحاد الطلاب الجامعيين في تشيلي، وكان أحد أهم المشاركين في تأسيس نادي أصدقاء الثقافة العربية سويةً مع "بنديكتو شوقي".

عاش سابيلا البوهيمية بأوسع حالاتها وعن ذلك يتحدث صديقه الشاعر "ماريو فيرور"[٢]:

"في شوارع باندیرا التي كانت مركزاً ليلياً لنا، كنا سابيلا وأنا في مطعم (لا ـــ انتونيانا)، وهو مطعم تقدم فيه الفرق الفنية عروضاً راقصة، كان أندرس زبونَ شرف، يكتب الأغاني وبالتحديد الرومانسية ذات ايقاع (بوليرو) والتي كان يتم عزفها فيما بعد أمام (لا ـــ انتونيانا) على الملىء عندما تكون الشوارع مليئة بحركة فنانين تشكيليين يرتدون ملابس غير متناسقة الألوان، وتجار متجولين وبنات سيئات السمعة وأساتذة " ممرمرين " وبائعي حبال، وحكواتيين... الخ.

إضافة لذلك، كنا نشارك في كل التظاهرات والاجتماعات، إذ من مطعم (لا ـــ انتونيانا) انطلقنا بحملتنا من أجل السلام، وحصلنا على أكثر من خمسمائة توقيع لتأييد نداء استوكهولم الشهير للسلام.

لقد كان لـ (المبشرين / الواعظين) مجالس كثيرة في شوارع تشيلي عدا عن تجمعاتهم في الساحات العامة حيث يتحدث جميعهم في آن، لذلك اقترحنا عليهم ـ سابيلا وأنا ـ أن يتم التالي : يتحدث كل واحد منهم بشكل متناوب لمرة، ونتحدث ،نحن، الشاعران، مرة فقط.

وفي يوم الأحد اللاحق للاقتراح، وعند الثالثة ظهرا، كنا وسط ساحة ركاب الدراجات النارية (موتروس) وفي الجانب الآخر من نهر (مابوتشي) كان الواعظون في زاويتهم. صعد "أندرس" على حجر وقرأ قصيدة لـ "غابرييلا ميسترال" وأغانيها عن المناجم، واستمر الاقتراح بأحسن أحواله، إلا أن "أندرس سابيلا" في يوم ما، وعند زاوية تقاطع شارع (فرانكلين) مع شارع (سان دييغو) طرأت

مجلة الأمة، العدد الثامن ١٩٦٥

له حكاية سيئة بأن يقوم بتكريم النبيذ، مستخدماً مقاطع من أشعار بودلير، اعتقد الكانوتوس/ المبشرون) أنه يريد الاستهزاء بمعتقداتهم، ومن غير أن يقولوا شيئا انطلقوا صوبنا وكان ما كان.

ماسحو الأحذية كانوا في شارع "باندیرا "وكان منهم الملقب بـ"قرد الزهور" الذي كان زميل دراسة لـ "أندرس" في كلية الحقوق، لكن إدمان "قرد الزهور" على الكحول جعله لا يجد عملا إلا ماسح أحذية وحارس سيارات. وكلما شاهدنا ندخل المطعم كان يترك عمله ويأتي ليجلس الى طاولتنا، كان يضع على الطاولة "قفازات" تصل الى فوق الكوع، والتي استمر يعمل بها الى أن مات.

لقد استمر "أندرس" كطالب مؤبد في دراسة القانون، وكان يفسر ذلك بأنه ليس على عجلة ليصبح محاميا لأن والده كان قد قال له : "عندما تصبح محاميا سأموت من الفرحة"، لهذا لم يتخرج حتى لا يقتل والده !.

فيما يصرّ أصدقاؤه على أن علاماته في الامتحانات الجامعية كانت ممتازة جدا، لأن إجاباته "لم تكن أكثر من مقاطع شعرية لرامبو، و لوتريامون، يقدمها كمحامي دفاع عن الأسطورة بوصفها عنصرا للتمحيص القانوني".

أحذية المناجم

من أعماله الشعرية الأكثر أهمية "رجل ذو دروب أربعة" وهي قصائد موزونة ونثرية نشرها في عام ١٩٤٢ وأعاد طباعتها في ١٩٧٢.

يقبض الشاعر فيها بإخلاص وحنين على الفضاءات الضائعة : عالم الرواد الذين عجنوا حظوظا كبيرة، عالم مناجم النحاس، الأساطير القديمة لبائعي ملح البارود، أشباح صحراء (اتاكاما)... في قصيدته "مرثية لأحذية المناجم" يعطي الأحذية رمزا وجوديا، فالحياة تمشي بين أقمار وشموس الزمن مع استحالة إعادة امتلاك تواريخ أو أسماء.

"لا أعرف أين رأيتها

في أية ظلالٍ للبيت".

لكنها تمتلك شرطا إنسانيا، فهي عابرة تأتي معنا منذ الأبد، تعبر الطرقات، لها "غبار من مائة عام"، تبذل جهودا ومعاناة، "تتعرق" لكنها تخفي أثار أشياء عزيزة "شموس عتيقة"، وتحتذي قلق الكائن البشري، حاجاته القاهرة اليومية، البرد، العطش، جوع الطريق، سيرةُ البطيء والمتعب في الطرقات الرملية والصخرية، وكأن الأحذية تمثل تاريخ كل الأموات الذين يطوفون ليل وعزلة الإنسان الذي

يسكن الأحلام والشموس المجهولة علّه يصل الى النجوم في رحلة فنتازية، لكنه يهبط من الماضي البهي الى مذاقات الأباريق العذبة و "الأعسال الميتة"... وربما ثمة هذيان كان..

الظل في القصيدة ربما كان رمزا للحماية الداخلية، ربما أنتج قشعريرة حميمة عند الشاعر عندما يتذكر لون الأحذية وحالتها :

"وأنا أرتجف

أتذكر لونها، لون أعسال ميتة

حالتها التي لجرارٍ فخارية

كي تخبىء الظل".

أي الوجودية الفسيحة...لكن على العكس من أمنيات المظلوم تهرب الحياة، الأحلام تفرّ نحو اللاجهة واللا شيء". ربما نحو النسيان، نحو السعادات والآمال التي تبتعد تجاه أفاق آخرى:

"يوما ما

ببطء

هربت الأحذية وحيدة

وكأن الحنين سيحتذيها".

طفولة الشاعر تطوف في "حصان في يدي" و"أغانٍ للبحر كي يلعب معنا" وكذلك "طفل آخر هو البحر". عدا عن مفردات مثل "حمامة، غيمة، أجراس، سلطعونات، جنيات ماء، ريح...

"يا حسرتي يا حسرتي

على طاحونة الهواء

خبر خطير:

لقد أضاعت الريح".

هذا المقطع القصير يوقظ تناغمات عميقة في الروح الطفولية بصفاء وشفافية وحرفة، لأنها تحتوي على سذاجة / عبقرية وربما سحر :

"قوس مباشر

الغزالة

الهاربة

تنحرف

تقفز أياما

بلا ضفاف بعيدة وصفراء".

ربما لهذا أرسلت له الشاعرة الكبيرة " غابرييلا ميسترال " تشكره على طفولته الكبيرة.

"قرأت قصائدك واحتفيت بمقاطع عديدة... أشكرك لأنك كتبت أشعارا لا تنتهي بالميتامورفوزات فقط، بل بالحب الخافق في كتاب صغير ولطيف".

في مجموعته "عند أبواب الغسق" يظهر الطابع السياسي الإجتماعي، ويسكنه قلق اجتماعي كأن الانسان يفرّ من بين يديه فيغرف تفعيلاته من التعذيب، من الجور والبؤس والحرمان، وفي "مسيح كسرات الخبز" ثمة ألم كبير مأسور تخرجه مقاطع متقرحة من الموت:

"هنا، شَيّدوا من الإنسان ركاما

خلية نحل ستكون أنت

مَـقعدا للغناء

عش الحنان الآتي".

لكنه يمضي أبعد من الحرب، من الحقد، نحو أفق للسلام وللأمل، بخلفية ميتافيزيقية ووجودية نجده متشامخا يسير مع الغيوم والصحارى كأنه شقيق سهول صحراء (البامبا)، ويفكك أقنعة من السماء لأن الأيام قد فلقت المرايا والموت يلقي التحية عند كل فجر :

"القطار يجأر

هو القطار الذي لن أراه أبدا

ومن شبابيكه يحييني أمواتُ

هذا الفجر".

و"أندرس سابيلا" هو ناثر ممتاز في مجال الرواية في "شمال عظيم" والتي يقول عنها: "في شمال عظيم اردت إيجاد شكل جديد للرواية يتجاوز حدود الأجناس الأدبية وغيرها، القصيدة، المقالة، التاريخ، الرمزية على أن لا يكون لها وحدة تجعلها متسلسلة ".

لكنها ـ"شمال عظيم"ـ تمتلىء بالشعر الغنائي والملحمي وبالتراجيديا، إضافة الى وقائع تاريخية، إذ ثمة شخصيات تلد وتغيب لكنها تشكل حياة إنسانية، خيالاً متكاملاً. وتزخر بالأفكار الاجتماعية، نضال العمال، الاضرابات، المجازر، الإنحطاط السياسي، ولا يغيب عن الراوي أن يحدثنا عن الفلفل الأخضر، الشجرة النبيلة والطيبة كصديقة وفية للإنسان...

وكذلك يتحدث عن " أرواح " تستحق أن تصبح بذرة للازدهار في هذه البلاد... يتحدث عن ذلك الذي سقط في الامتحان، عن حرب الباسيفيك، عن تصحر الحياة الاجتماعية أمام النساء والرجال....

(بيسنت منجودVicente Mengod) يقول عن "شمال عظيم" : "إننا أمام شخص جمعي، غامض يقدم مناخا اجتماعيا يمكن تسميته بالواقعية المقاتلة..." فـ"شمال عظيم" هي تاريخ، وتوثيق، ورواية، وشعر في آن، وفي روايته "فوق الكتاب المقدس خبز قاس" يأخذ من الحياة أفعالا مرة المذاق، مربعات درامية، لا تكف عن الوجود رغم السنين والتنامي الاقتصادي السياسي والاجتماعي" فـ"السماء الملونة" تقدم الحضور الحزين لقسمٍ كبير من الشعب إزاء الثروة واليسر وسعادة القلة.

حاز " أندرس سابيلا " على درجة دكتوراة شرف من جامعة الشمال التشيلية، وتم ترشيحه الى الجائزة الوطنية للأداب في أكثر من مرة.

عمل أخيرا في كتابة المقالة الصحافية إذ يقدم نصوصا خاصة به يسكب فيها شعريته، ديناميكيته، ومزاجا حاداً.

"إنه رجل استثنائي، لكن مأساته الحقيقية هي أنه لا يبقي عبارة واحدة في الجيوب".

ولد في ١٣ ديسمبر عام ١٩١٢، في مدينة (انتوفاغستا) في تشيلي.... من أب فلسطيني وأم " هندية حمراء ".

درس القانون في جامعة تشيلي، وتخصص في قانون العمل وفلسفة القانون.

في السابعة عشر من عمره أصدر مجموعته الشعرية الأولى (وجهة مترددة – ١٩٣٠).

قُدم نصه (القذارة) الى المسرح في – ١٩٣٩.

صدر له :

سيرة الجرح (شعر) – ١٩٣٥. غومس روخاس، واقعية ورمزية (دراسة) – ١٩٣٧. شعبية غومس روخاس (دراسة) – ١٩٣٩. الدم وتماثيله (شعر) – ١٩٤٠. الحد الأدنى للشعرية العظيمة (دراسة) –. مجاورة الحمام (شعر)- ١٩٤١. النجمة السوفيتية (شعر)-١٩٤٢. الرحـــّالان المتنافران (شعر)-١٩٤٣. الشمال العظيم (رواية)-١٩٥٣. تشيلي إقليم خصب – ١٩٤٥. قصص للأطفال. حول الكتاب

المقدس خبز متحجر(قصص)- ١٩٤٦. مارتن غالا (شعر) – ١٩٥٢. الحصان في يدي (شعر)-١٩٥٣. بحر تشيلي (مسرحية)- ١٩٥٣. شعب الشمس العظيم (شعر)-١٩٥٤. نجمة الإنسان (قصص)- ١٩٥٤. سيماءات من الشمال التشيلي (شعر) – ١٩٥٥. قصائد من المدينة حيث الشمس تغني (شعر) – ١٩٦٣. أغاني للبحر كي يلعب معنا (شعر) – ١٩٦٦. طفل آخر هو البحر (شعر) – ١٩٧٢. خوان مارين والجيل الجديد (دراسة) – ١٩٧٣. أنت لا نهاية لك (شعر) – ١٩٧٢. صولجان المهرج (شعر) ١٩٨٤. على أبواب الغسق (شعر) ١٩٨٧.

طفولة (بابا)

دعته

الأجراس

ليلعب معها :

مرتدياً ثياب عصفور

يعبر سماء القدس

يقبل وجنات صديقاته الصغيرات

مرتبكاً بين حشد من الألحان

لكنه

تابع نحو الغيمة.

مرثية لأحذية المناجم

لا أعرف أين رأيتها ،

ولا في أية ظلالٍ

للبيت.

قدموا

ربما معي ،

سائرين منذ الزمان

تنبعث منهم رائحة غبار عمره مائة عام ،

رائحة التعرق ،

والشموس العتيقة.

خفت منها

ظننت :

أنه فجأة

سيتقدم عظم الأطراف

ليملأها بالبرودة :

وفيما بعد

اللحم

وجوع الطريق

ماذا كان تاريخها

تاريخ " الدبش " والرمل ؟

هل ركضوا

مع جَدّي ؟

هل ،

في الليل ،

تعذبهم الذكريات

الشريدة للبلدة

المعلقة بالنجوم ؟

وأنا أرتجف ،

أتذكر لونها لون أعسالٍ ميتة ،

حالتها الجرارية
لتخبىء الظل
يوما ما
ببطء ،
هربت الأحذية وحيدة
وكأن الحنين سيحتذيها.

رسم ذاتي لهذه السنوات

كيف سأبقى وحيداً في هذه الحرب ؟
ربما فقط، مع ظلال أناسٍ آخرين !!
أنا مقاتل مقفر
حارس قديم لهذه الأرض

كم قتيل الى جانبي لا يفزعني ؟
لايفزعني أن أتقاتل مع عشرة أو عشرين
تفزعني اللارحمة لهذه الجبهة ،
قروح الأخ التي لا تنغلق...

هرج المهرج
اذا كان شعبي يلهو مع شدائد
هذه الحياة الجريحة بالجوع ،
سأخرج أنا مع شعبي الى المعركة

وأقول :

أين هو الخبز، زهرة الفقراء ،

الحرية الواقفة في الأفق ؟

الى بيتٍ ما

كنت أنت عندما لم أكن أنا

ستكون أنت عندما أنا لن أكون...

أسأل نوافذك عن شمس الذين ماتوا

آخرون سيسألون عني

أكتب أسمي على أسوارك :

هل ستمحوه يدٌ ما، هل ستمحوه الأيام ؟

مقبرة مهجورة

فوق البحر، تقريبا، ثمة مقبرة

لذاكرة مقروضة و لــ " اللاذاكرة " :

ميناء، لصواري مشؤومة

حيث الكلس يجترح موجات آخرى

أمشي بين القبور رفقة الريح ،

خطوتان مني يتبسم الشاطىء !!

اذا كشطت لوعة العظام هذه

ستعثر على البحر، بين ظلٍ وظلْ

الكرسي

على هذه الكرسي حيث يحلم الزمن

حلم والدي بعش (/ قفير) نحلة

اليوم أحلم بالشمس بين الحواجب
جبهتي شاهدة قبر صغيرة

إلى كارلوس بِڤْوا باليث
(Carlos Pezoa Valiz)
أكتب إليك، كارلوس، خلف الموقد الشتوي
كلهم رحلوا، بقيت في خرابي.
العزلة تعانق الضباب
الآن يبدأ اللاشيء بحق.
أعيش معتماً هذا الموسم
فزتُ بهذه الميتة الرحالة فقط ،
مسكين شيطان المهجع والحانوت ،
من فزع ظله أمام النظرات.
حشد من حلاجي المرارة والقيد ،
الصدر مشوش، وليس الألم
قريبا ستمنحني الأرض اسمها
أريد، يا كارلوس، أن تمضي الحياة
في الطيف الهادىء للعوسج ،
الشمس بأكملها أن تجالس الإنسان.

مراجعات وتقارير

الأخوين لاما رائدا السينما العربية .. حكايات يلفها الغموض رافقتهما حتى النهاية

يوسف الشايب

ليس صحيحاً ما ذهب إليه غالبية النقاد والمؤرخين بخصوص الفلسطينيين الشقيقين إبراهيم وبدر لاما، بوصفهما مؤسسيْ السينما الفلسطينية، فهما، وكما أكد لي كل من الموسيقار الفلسطيني باتريك لاما، وجامع المقتنيات الأشهر في فلسطين جورج الأعمى، ينحدران من عائلة الأعمى (تحولت إلى لاما لصعوبة لفظ حرف العين في أميركا اللاتينية وعموم الدول الغربية)، من بيت لحم، لكنهما لم ينجحا فيما كانا ينويان فعله بتأسيس دور سينما في يافا أو حيفا، عشرينات القرن الماضي، فاستقر بهما المقام في الاسكندرية، ليكونا رائدي السينما في مصر والوطن العربي، بعد إنتاجهما أول فيلم روائي عربي طويل "قبلة في الصحراء" في أيار من العام ١٩٢٧، ولذلك فهما مؤسسا السينما المصرية والعربية، وليس الفلسطينية، فقد أسسا "نادي مينا فيلم" السينمائي، ومن ثم شركة "كوندور فيلم" في الاسكندرية، كناد وشركة مصرية، وكون أن الأفلام الروائية تتبع جنسية شركات الإنتاج، فأفلام الأخوين الفلسطينيين، اللذين هاجر والداهما في نهاية القرن التاسع عشر إلى تشيلي، تعتبر أفلاماً مصرية.

روايات متعددة

ورغم تعدد الروايات بخصوص عام وصولهما إلى الإسكندرية، إلا أن إجماع غالبية المؤرخين والنقاد، أنهما استقرا فيها العام ١٩٢٦، وليس العام ١٩١٦، كما ذكرت الموسوعة الفلسطينية، وموقع ذاكرة مصر المعاصرة الالكتروني.

الرواية الأولى، لمحمود روقة في مقاله "بدايات السينما الفلسطينية" (١)، تقول بأنه في العام ١٩٢٦، قرر الأخوان إبراهيم وبدر لاما الاتجاه إلى فلسطين من تشيلي وإنشاء صناعة سينمائية فيها، فأخذا معهما معدات سينمائية في باخرة إلى السواحل الفلسطينية، إلا أنهما لم يكملا رحلتهما إلى فلسطين، فبعد توقف الباخرة في الإسكندرية قررا البقاء فيها، لافتاً إلى أن بعض الباحثين أعاد سبب قرارهما هذا إلى الأوضاع السياسية غير المستقرة في فلسطين من ناحية والجو الثقافي في الإسكندرية من ناحية أخرى، وأنهما في الإسكندرية أسسا "نادي مينا فيلم" السينمائي، وبعد ذلك شركة "كوندور فيلم"، التي أنتجت أول فيلم عربي" قبلة في الصحراء"، الذي عرض في أيار من العام ١٩٢٧، في سينما كوزموغراف بالإسكندرية، وأن شركتهما أنتجت ٦٢ فيلماً طويلاً حتى العام ١٩٥١.

أما الرواية الثانية، والواردة في الموسوعة الفلسطينية، فاتفقت مع سابقتها في سنة وصولهما إلى الإسكندرية مشيرة إلى أنها كانت في العام ١٩٢٦، لكنها اختلفت معها في الدولة التي خرجوا منها، حيث تحدثت عن قدومهما من الأرجنتين وليس تشيلي كغالبية المراجع التاريخية والسينمائية، وكذلك اختلفت معها في تاريخ إنتاج الأفلام بفارق زمني يقارب الأربع سنوات، بل إنها وقعت في خطأ فادح حين أشارت إلى أن جذورهما تعود إلى مدينة يافا، بينما هما تلحميين، رغم اعتمادها على مراجع مهمة ككتاب "تاريخ السينما" لجورج سادول، وصدر بالفرنسية، وترجم بالعربية من قبل وزارة الثقافة المصرية، وبالتحديد سلسلة "قرأت" العام ١٩٦٢، وبحث لجلال الشرقاوي بعنوان "تاريخ السينما في الجمهورية العربية المتحدة"، قدمه في مؤتمر الطاولة للسينما والثقافة العربية في بيروت العام ١٩٦٢ أيضاً، ودراسة لعبد المنعم سعد بعنوان "السينما والشباب" صدرت في "كتاب الإذاعة والتلفزيون ٢١" بالقاهرة. (٢)

وجاء في الموسوعة الفلسطينية أيضاً: ويبدو أنهما (الأخوين لاما) قد توفرت لهما ثروة طيبة في المهجر فأقاما في دارة رحبة، وبادرا العام ١٩١٦ إلى تأسيس ناد سينمائي سمياه "مينا فيلم" قد يكون أول ناد من نوعه في الوطن العربي، وأتبعا النادي بتأسيس شركة إنتاج سينمائي سمياها "كوندور فيلم"، وعملا معا العام ١٩٢٣ في إنتاج فيلم "قبلة في الصحراء" الذي صوراه في صحراء فيكتوريا بضواحي الإسكندرية، وقد تولى إبراهيم لاما الإخراج والتصوير، وأسندت البطولة إلى بدر لاما، واشترك في الفيلم إبراهيم ذو الفقار وبعض الأجانب المقيمين في الإسكندرية.

أما موقع ذاكرة مصر الالكتروني فأيد الموسوعة الفلسطينية فما يتعلق بتاريخ وصولهما إلى الإسكندرية، أي العام ١٩١٦، ووقع في الخطأ نفسه حين أشار إلى أن إبراهيم لاما يعد من الرواد الأوائل في حقل السينما الفلسطينية هو وأخوه بدر لاما. (٣)

وأشار الموقع ذاته أنهما قررا الإقامة في الإسكندرية والعمل على إنتاج أفلام سينمائية مصرية فأسسا لهذا الغرض شركة إنتاج سينمائي باسم "شركة كوندور فيلم" العام ١٩٢٦، وكأنهما مكثا عشرة أعوام بلا عمل، وهو يؤكد ما ذهبنا إليه بأن وصولها إلى الإسكندرية كان في العام ١٩٢٦ وليس العام ١٩١٦.

ووفقاً لذات الموقع الالكتروني "بدأ الأخوان لاما في تلك الفترة بإنتاج فيلمهما "قبلة في الصحراء"، أول فيلم روائي عربي، في الرابع من أيار ١٩٢٧ (لاحظ الفارق في التواريخ بين المصادر المختلفة)، حيث تولى إبراهيم تأليف القصة وتصويرها إلى جانب إخراجها سينمائيًا واكتفى شقيقه بدر ببطولة الفيلم، مضيفاً أنه في عام ١٩٣٠انتقل الأخوان لاما إلى القاهرة بعد أن اتسعت مشاريعهما السينمائية، وبعد أن قدما فيلمهما الثاني "فاجعة فوق الهرم" ١٩٢٨ (في روايات أخرى العام ١٩٢٩)، وأن معظم الأفلام التي أخرجها إبراهيم لاما كان يقوم ببطولتها شقيقه بدر لاما حتى بعد زواج بدر من بدرية رأفت التي قاسمته بطوله هذه الأفلام. (٤)

أما موقع شجرة السينما، وتحت عنوان "السينما الفلسطينية"، فأشار إلى أن "البعض يعيد بدايات السينما الفلسطينية إلى الأخوين إبراهيم وبدر لاما (الأعمى) ذوي الأصل الفلسطيني"، وأن الأخوين لاما (الأعمى) هما ابنان لوالدين فلسطينيين هاجرا من بيت لحم إلى تشيلي في مطلع القرن العشرين، وأنهما في عام ١٩٢٦ قررا الاتجاه إلى فلسطين وإنشاء صناعة سينمائية هناك، فأخذا معهما معدات سينمائية وتوجها إلى فلسطين في الباخرة. مؤكداً أن شركتهما "كوندور فيلم" أنتجت أول فيلم عربي "قبلة في الصحراء" الذي عرض في أيار ١٩٢٧ في سينما كوزموغراف، وانها صورا فيلم الهارب في مدينة بيت لحم عام ١٩٣٦ الذي يتحدث عن فترة التجنيد الاجباري في الجيش العثماني بمشاركة العديد من شباب المدينة، وقد أنتجت شركتهما في مصر ٦٢ فيلماً طويلاً حتى العام ١٩٥١.

ويطل علينا رائد دوزدار، عبر فيلمه "الأخوين لاما رواد السينما العربية"، من إنتاج تلفزيون فلسطين العام ٢٠١٣، برواية جديدة، لافتاً إلى أن إبراهيم وبدر حطّا في الإسكندرية العام ١٩٢٤، قادمين من تشيلي، مؤكداً أنهما فلسطينيان من بيت لحم وأصل اسم عائلتهما (الأعمى)، وانضما بعد وصولهما إلى الإسكندرية إلى جماعة السينما المتحركة التي تحولت بعد ذلك إلى شركة "مينا فيلم"، والحديث هنا عن شركة وليس عن ناد كما في الروايات السابقة، وأن هذه "الشركة" ضمت جميع هواة الفن السينمائي في المدينة الساحلية المصرية، وأنه في العام ١٩٢٧، وبعد تأسيس شركة "كوندور فيلم"، أخرج إبراهيم لاما، أول أفلامه "قبلة في الصحراء"، وهو فيلم صامت، ويعد أول فيلم روائي عربي قام ببطولته شقيقه بدر لاما، وبدرية رأفت، وأنور وجدي، ومحمود المليجي، وتكلف إنتاجه خمسة آلاف جنيه مصري، آنذاك. (٥)

وفي رواية جديدة، فإن إبراهيم لاما وصل إلى الإسكندرية هو وأخوه بدر لاما، وهما من أصل فلسطيني حيث هاجرت عائلتهما إلى تشيلي في أميركا الجنوبية وكانا في طريقهما إلى فلسطين ومعهما معدات وأجهزة سينمائية كانت الأولى من نوعها في العالم العربي، متوجهين إلى مدينة حيفا، ولكنهما قررا الإقامة في الإسكندرية بسبب مرض إبراهيم في الطريق والعمل على إنتاج أفلام سينمائية مصرية. (٦)

عائلة الأعمى

وتعد عائلة الأعمى (لاما) من أكبر عائلات مدينة بيت لحم، وفي فيلم "الأخوين لاما رواد السينما العربية"، قال جورج الأعمى الجد: في تشيلي هناك الكثير الكثير من أبناء عائلة الأعمى.

في حين أشار المؤرخ د. عدنان مسلم إلى أن أحد المهاجرين كان عبد الله إبراهيم سعيد الأعمى، وكانت هجرته في العام ١٨٩٠، وتزوج في تشيلي تلحمية تدعى ليزا سارة، وأنجب منها عيسى وبدر (بطرس) وإبراهيم، وأن الهجرة كانت عبر البواخر (البابر) من ميناء يافا، ومنها إلى مرسيليا، ومن هناك يستقلون باخرة أكبر إلى الولايات المتحدة الأميركية فدول الأميركيتين. (٧)

وشدد مسلم على أن الكثير ممن هاجروا في الحقبة العثمانية إلى أميركا وتشيلي والبرازيل والمكسيك وغيرها، قرروا العودة بعد خضوع فلسطين لحكم سلطات الانتداب البريطاني، إلا أن السلطات البريطانية حالت دون ذلك، متذرعين بقانون الجنسية (٨)، ولعل هذا ما حال دون استقرار أو حتى وصول الأخوين لاما إلى فلسطين، وتفضيلهما الإقامة والشروع في صناعة السينما بالإسكندرية.

وكشف دوزدار في فيلمه أن عبد الله الأعمى هو من مهد لولديه إبراهيم وبدر الطريق نحو تأسيس "إمبراطورية السينما الأولى في الوطن العربي"، حيث افتتح في البداية متجراً لبيع الكاميرات في تشيلي، وكانت في حينها مخترعاً جديداً جذب طفليه إلى عالم السينما.

وولد إبراهيم لاما في تشيلي العام ١٩٠٤، وعمل كمصور هاو، أما شقيقه بدر فقد ولد في العام ١٩٠٧ فعمل كمخرج مساعد في فيلمين تشيليين قصيرين، لكن الحنين إلى فلسطين شدهما، فسافرا العام ١٩٢٤، عائدين إلى فلسطين، وتوقفا في الإسكندرية وبدءا صناعة السينما هناك، وسط روايات متعددة عن نيتهما المسبقة إقامة صناعة للسينما في يافا، أو حيفا، أو حتى بيت لحم. (٩)

وحسب سجلات رعية اللاتين في بيت لحم، توفي الأب عبد الله في العام ١٩١٧ فيما توفيت زوجته بالقاهرة دون تاريخ محدد، بينما تشير السجلات ذاتها إلى أن بدر (بطرس) من مواليد بيت لحم.

حكاية الأخوين لاما

وأشار بكر سباتين في دراسة موسعة له إلى أن أول من أسس شركة للإنتاج السينمائي في الشرق الأوسط هما الأخوان لاما (إبراهيم وبدر عبد الله إبراهيم الأعمى (لاما) وهما من أصل فلسطيني، من عائلة الأعمى المسيحية التي تقيم في بيت لحم، وهاجر بعض افرداها الى تشيلي بأميركا الجنوبية في العام ١٨٩٠ بحثاً عن العمل أو هرباً من سطوة الحكم العثماني، لكن الظروف المادية الجيدة ساعدتهما على العودة إلى الديار الفلسطينية العام ١٩١٦، فأقاما ردحاً من الزمان في بلدهما الأصلي بيت لحم (ما زال فيها كثير من دار الأعمى)، ثم تحولا إلى مدينة حيفا التي كانت تتمتع ببنية ثقافية ملائمة آنذاك فكانا أول من يحضر أجهزة ومعدات سينمائية إلى العالم العربي؛ سوى أن ظروف فلسطين برمتها لم تكن مهيئة وهي تحت الانتداب البريطاني.

وأضاف: كانت تتأزم فيها الظروف الطاردة لمثل هذا النوع الجديد من الإبداع البصري، ما دعا الأخوين لاما للتوجه إلى الإسكندرية؛ حيث كونا فيها ثنائياً ناجحاً، وعملا معاً في الكتابة والتمثيل والإخراج، والعمل على إنتاج أفلام سينمائية مصرية، فأسسا لهذا الغرض شركة "كوندور فيلم" التي كان نشاطها في الإسكندرية، وكان ذلك في نفس الوقت الذي تمكن فيه المخرج التركي وداد عرفي من إقناع الفنانة عزيزة أمير في القاهرة بإنتاج فيلم سينمائي مصري، يتولى هو كتابة قصته وإخراجه إضافة إلى قيامه بالبطولة أمامها، ألا وهو فيلم "نداء اللّه"، والذي عرض بعد إجراء بعض التعديلات عليه ومنها تغيير اسمه إلى "ليلى"، في السادس عشر من تشرين الثاني العام ١٩٢٧.

وتولى إبراهيم تأليف قصة فيلم "قبلة في الصحراء"، وتصويرها إلى جانب إخراجها سينمائياً، واكتفى شقيقه بدر ببطولة الفيلم.. صور الفيلم في أستوديو صغير أقيم في فيلا خاصة بمنطقة فيكتوريا بالإسكندرية.

وقد أدى بدر لاما دور شاب بدوي يعشق فتاة أميركية، لكنه يهرب إلى الصحراء خشية اتهامه بقتل عمه، وهناك في الصحراء يكوِّن عصابة لمهاجمة القوافل، إلى أن تثبت براءته ويعود إلى صديقته في النهاية.

وتأثر بدر لاما، حسب سباتين وغيره، في أدائه، بشخصية النجم الأميركي رودلف فلنتينو، في فيلمه "ابن الشيخ"، واستمر تأثير هذه الشخصية على أدائه في أعمال الأخوين لاما التالية.

وفي العام ١٩٣٠ انتقل الأخوان لاما إلى القاهرة، بعد أن اتسعت مشاريعهما السينمائية، وبعد أن قدما فيلمهما الثاني (فاجعة فوق الهرم) عام ١٩٢٨، بطولة بدر لاما وفاطمة رشدي، وفي القاهرة أسسا أستوديو لاما.

وللعلم، فإن معظم الأفلام التي أخرجها إبراهيم تولى بطولتها شقيقه بدر، حتى بعد زواج بدر من بدرية رأفت التي قاسمته بطولة هذه الأفلام، أما الأفلام التي أخرجها إبراهيم ولم يشارك فيها بدر فهي (وخز الضمير / ١٩٣١) بطولة آسيا وعبد السلام النابلسي، وفيلم (الضحايا / ١٩٣١) بطولة بهيجة حافظ.

وقام الأخوان لاما بتصوير فيلم "الهارب" في مدينة بيت لحم العام ١٩٣٦ الذي يتحدث عن فترة التجنيد الإجباري في الجيش العثماني بمشاركة العديد من شباب المدينة، وبعده خرج إبراهيم بفيلم (ليالي القاهرة / ١٩٣٩) بطولة حسين صدقي ونعمت المليجي، كما قام بدر لاما ببطولة فيلم (رابحة / ١٩٤٧) مع الممثلة كوكا من إخراج نيازي مصطفى.

وتنوعت أفلام المخرج إبراهيم لاما، فقدم الأفلام التاريخية مثل (صلاح الدين الأيوبي / ١٩٤١) و(كيليوبترا /١٩٤٣)، ولكن لضعف الإمكانيات الإنتاجية لم ترتق هذه الأفلام إلى مستوى الشخصيات التي قدمتها، كما أنه قدم أول فيلم عن حكاية "قيس وليلى" العام ١٩٣٩، هذا إضافة إلى العديد الأفلام الاجتماعية والكوميدية.

ويعتبر الفنان إبراهيم لاما أول من صَور في غابات السودان وكينيا وأحراشها من المصريين، فقد انطلق بكاميراته إلى هناك ليصور فيلميه "الحلقة المفقودة" في العام ١٩٤٨، و"القافلة تسير" في العام ١٩٥١، وكتب مقالاً عن مغامراته في الأدغال وبين الوحوش، نشرته مجلة "الكواكب".(١٠)

وقدم المخرج إبراهيم لاما للسينما المصرية ثلاثين فيلماً خلال أربعة وعشرين عاماً، وعمل مع كبار النجوم آنذاك، مثل: فاطمة رشدي، آسيا، ماري كويني، بهيجة حافظ، زكي رستم، أمينة رزق، بديعة مصابني، رجاء عبده، مديحة يسري، ليلى فوزي، فاتن حمامة، شادية، أنور وجدي، ومحمود المليجي، بالإضافة إلى شقيقه بدر وابنه سمير عبد الله. (١١)

سباق الريادة

ورغم إصرار العديد من المؤرخين والنقاد المصريين على أن فيلم "ليلى" لستيفان روستي، وبطولة عزيزة أمين وأحمد جلال هو أول فيلم روائي عربي، إلا أن وقائع الأمور تشير إلى غير ذلك، وهو ما أكده أكثر من مرة الناقد سمير فريد، الرئيس الحالي لمهرجان القاهرة السينمائي الدولي، ومنها في حديث خاص معه على هامش أحد المهرجانات في القاهرة العام الماضي، فللأخوين لاما الريادة في إنتاج وإخراج وعرض أول فيلم روائي عربي (قبلة في الصحراء)، وعرض في سينما "كوسموغراف" بالإسكندرية في الخامس من أيار العام ١٩٢٧، في حين عرض فيلم ليلى في دار سينما "ميتروبول" في

القاهرة في ١٦ تشرين الثاني من العام نفسه.

وبالعودة إلى المؤرخ الفرنسي جورج سادول، فإنه يقول بان أول فيلم روائي في تاريخ السينما العربية هو فيلم "قبلة في الصحراء" للأخوين لاما. (١٢)

ما بين "البدوي" و"الويستيرن"

وبسبب نجاح الأخوين لاما أصبحت الإسكندرية منافساً خطيراً للقاهرة إذ هيأ الأخوان دارتهما على صورة "استديو سينمائي" مجهز بآلالات ، وأقاما فيها مكتب شركتهما، وأنتجا فيلما آخر هو "فاجعة فوق الهرم" العام ١٩٢٩، وأخرجه إبراهيم لاما أيضاً، ومثله بدر لاما ووداد عرفي وفاطمة رشدي، ثم أتبعاه بفيلم ثالث "معجزة الحب" العام ١٩٣٠، وقد صوراه في الهواء الطلق.

وبعد تركز صناعة السينما في القاهرة ونجاحها انتقل الأخوان لاما إلى القاهرة، وهناك أوكلت الممثلة المنتجة آسيا داغر إلى إبراهيم لاما مهمة تحقيق فيلمها الثاني "وخز الضمير". (١٣)

وتابع الشقيقان إنتاج أفلام من النوع البدوي الذي بدآه بفليمهما الأول "قبلة في الصحراء"، فظهر لهما فيلم "معروف البدوي" وفيلم "الكنز المفقود"، ويعالج الفيلمان التقاليد البدوية من شرف وبسالة وأخذ بالثأر وحب عذري، وبعدها نقلا إلى السينما المصرية طرائق أفلام الغرب الأميركي (الويستيرن) بنغمة شرقية، لكنهما عادا في موسم ١٩٣٦ – ١٩٣٧ إلى إنتاج أفلام "درامية" مثل فيلم "الهارب" وفيلم "شبح الماضي"، ثم تابعا مسيرتهما خلال فترة الحرب العالمية الثانية فأنتجا عشرة أفلام طويلة. (١٤)

وعاد إبراهيم لاما في نهاية آب ١٩٤٩ عندما حدث تغيير في السياسة المصرية إزاء اليهود (أشيع أن الأخوين لاما من اليهود بينما هما مسيحيان فلسطينيان من بيت لحم)، فيما اتهم الكثيرون إبراهيم لاما بالحرص على وجود عناصر يهودية في أفلامه (١٥).

وتأثر الأخوان لاما بأفلام هوليوود، ووصل التأثر إلى حد الاقتباس الحرفي دون إبداع في فترتي العشرينات والثلاثينات، وتشبه بدر لاما في تمثيله بنجوم من أمثال فالنتينو ونوفارو سواء في الملابس أو الحركة.

المثير أن بدر لاما لم يكن يجيد اللغة العربية، وكانت سيناريوهات أفلامه تكتب بالفرنسية التي كان يتعامل بها في أفلامه الصامتة، وعندما نطقت السينما كان على بدر لاما أن يتوارى خلف الحركة وأفلام المغامرات ليقلل من تأثير العربية غير المتقنة التي كان قد بدأ يتعلمها، وكانت فضيحة

لشركة "كوندور"، وللمخرج إبراهيم لاما بعد أن أخرج الفيلم الناطق "قيس وليلى" العام ١٩٣٩، وأسند دور الشاعر العاشق قيس ابن الملوح لـ بدر لاما بنطق عربى "مكسّر". (١٦)

نهاية مفجعة

في العام ١٩٤٧ توفي بدر لاما عن عمر الأربعين متأثراً بذبحة صدرية، أما إبراهيم لاما فكانت نهايته العام ١٩٥٣ بطريقة مأساوية.. "قتل وانتحار".

ففي يوم الأربعاء ١٣ أيار من العام ١٩٥٣ ذهبت زوجته إيزابيل جورج كوغا إلى القنصل الأميركي في مصر، وحكت مأساتها مع المخرج الكبير، وأكدت في لقائها معه على أنها سبق لها الزواج من الطيار الأميركي روبرت فوتين، وعندما عادت إلى مصر لزيارة أهلها طلقت منه وتزوجت المخرج إبراهيم لاما الذي يحمل جواز سفر أميركي من جمهورية تشيلي، وأن الحياة مع المخرج أصبحت عسيرة بسبب عصبيته الدائمة وغيرته التي ليس لها حدود، كما حكت له كيف أن زوجها المخرج يغار عليها من خالها وأنه منعها من زيارة أهلها، ومنع أهلها من زيارتها إلا في وجوده، وأن المخرج سبق له التعدي بالضرب على محصل الكهرباء لمجرد أن المحصل طالبه بفاتورة استهلاك ، وفى النهاية طلبت الزوجة من القنصل أن يحميها من بطش المخرج لأنها تسعى للطلاق.

وفى يوم الخميس ١٤ أيار ١٩٥٣ صدرت الصحف بنبأ مقتل الزوجة إيزابيل برصاصتين، وانتحار قاتلها الزوج المخرج إبراهيم لاما بالرصاصة الثالثة، حيث عثر في "مفكرة الزوج"، وبخط يده على ما يشير إلى ذلك، حين كتب سطوراً تحت عنوان "امرأة ذهبت إلى النهاية، كتب فيها: "إنها امرأة عاشت في خيالي، وكان لها على نفسي سلطان.. كنت أعبدها.. ولكن عبادتي لها انقلبت إلى كفر.. وسأمضي إليها كافرا، فأذيقها كأس العذاب .. الذي طالما أذاقته لي .. الخميس ١٤ أيار (مايو) .. يوم حرب أو سلام ؟". (١٧)

وبخصوص النهاية المفجعة للتجربة الرائدة للأخوين لاما، جاء في فيلم "الأخوين لاما رواد السينما العربية"، أن آخر يوم في تصوير فيلم "البدوية الحسناء" العام ١٩٤٧، كان آخر يوم في مشوار بدر لاما السينمائي، حيث شعر بآلام في صدره خلال التصوير، لتحتضنه زوجته بدرية رأفت التي كانت تشاركه بطولة الفيلم، وطلبت طبيب العائلة، حيث نقل إلى المستشفى، ورحل فيها يوم الحادي عشر من نيسان من العام ١٩٤٧، بعد تسعة عشر عاماً من العطاء السينمائي، قدم خلالها اثنين وعشرين فيلماً من بطولته وإخراج شقيقه ورفيق دربه إبراهيم، حيث لم يحضر هذا الفيلم، وتم تأبينه في بيت لحم بمشاركة الآلاف في قاعة سينما له، وفتح له فيها مأتم. (١٨)

وبعد النكبة غادر إبراهيم لاما مصر لعام ونصف العام، إلا أن الفاجعة الأولى كانت حين اندلع حريق كبير في استوديوهات شركة الأخوين لاما، حيث كان ابنه سمير، الذي حمل الاسم الفني "سمير عبد الله" يشرف على آخر أفلام شركة أفلام لاما المصرية "القافلة تسير"، من بطولته والنجمة شادية، وأتلفت نيجاتيف فيلم "عاصفة في الربيع" في وقت عرض "القافلة تسير"، حيث أتى الحريق على غالبية أفلام سمير ومنها "كنز السعادة"، و"الحلقة المفقودة"، و"سكة السلامة"، إضافة إلى "عاصفة في الربيع"، وأفلام أخرى من إنتاج الشركات المتعددة للأخوين لاما، وهو ما أثر على الحالة النفسية لإبراهيم لاما، انتهت به إلى انتحاره بطلقة بالرأس، بعد طلقتين في قلب امرأته حين رفضت العودة إليه، مخلفين ورائهما ديوناً كبيرة على الشركة، حتى أغلقت وتم تشميعها بـ"الشمع الأحمر"، واضطرت على إثر ذلك الفنانة بدرية رأفت أرملة بدر لاما إلى بيع الشركة لتسديد ديونها. (١٩)

ولم يبق من العائلة بعدها إلا سمير لاما (سمير عبد الله)، الذي كان يحب زيارة بيت لحم وأقاربه فيها بين فترة وأخرى، قبل أن يغادر القاهرة إلى بيروت برفقة المخرج فاروق عجرمة، الذي صنع فيلم "القاهرون"، حيث شارك كممثل ومسؤول على الخيالة ومساعد للإخراج، وخاصة لإخراج المعارك في هذا الفيلم، وقدم العديد من الأفلام في بيروت، ومنها فيلم مع دريد لحام ونهاد قلعي، قبل أن يترك عالم الفن، ويفتتح شركة لرحلات السفاري في أدغال أفريقيا مقرها ألمانيا، والتي توفي فيها العام ٢٠٠٤، بعد أن وضع وصية بدفنه في مصر، وكان له ذلك لتنتهي حكاية اسرة لاما مع السينما. (٢٠)

ونختم بالقول بأن أسرة لاما التي تعود بداية حكاية عشقها للتصوير إلى الأب عبد الله، وهو اسم مسيحي وإسلامي ولا يطلقه اليهود على أبنائهم، بما يقطع الطريق على ما روج له الكاتب المصري أحمد رأفت بهجت "اليهود والسينما في مصر والعالم العربي"، الذي ادعى كذباً أن الأخوين لاما يهوديين بل وصهيونيين، لدرجة أنه نسبهما إلى العائلة اليهودية "لاموس"، وهو ما أثار حفيظة أقاربهما في بيت لحم وفلسطين، فهما مسيحيان فلسطينيان كانا وسيبقيا رائدا السينما العربية وليس المصرية فحسب، وهذا ما دفع الرئيس الشهيد ياسر عرفات، وباسم دولة فلسطين، في تسعينات القرن الماضي، باقتراح من الشاعر أحمد دحبور، إلى منح إبراهيم لاما وسام القدس للثقافة والفنون والآداب لإسهامه الإبداعي في مسيرة الثقافة الوطنية الفلسطينية، ممهورة بتوقيعه رئيساً للدولة، رئيساً للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وتوقيع الشاعر الكبير محمود درويش، بصفته آنذاك، عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، رئيس المجلس الأعلى للثقافة، وعبد الله الحوراني، بصفته آنذاك، عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير رئيس دائرة الثقافة.

المراجع والهوامش

(١) محمود روقة، بدايات السينما الفلسطينية. مجلة الطريق، العدد الثامن والعشرون- أيلول ٢٠٠٥.

(٢) الموقع الالكتروني للموسوعة الفلسطينية، بدر لاما.

(٣) موقع ذاكرة مصر الالكتروني، شخصيات عامة، إبراهيم لاما.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) رائد دوزدار، فيلم "الأخوين لاما رواد السينما العربية"، إنتاج تلفزيون فلسطين، ٢٠١٣.

(٦) موقع جولولي الالكتروني المصري، مقال بعنوان "إبراهيم وبدر لاما صنعا أول فيلم مصري"، انتحر الأول وتوقف قلب الثاني"، ٢٠ تشرين الأول ٢٠١٤.

(٧) رائد دوزدار، مصدر سبق ذكره.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) بكر السباتين، مقال بعنوان رواد السينما العربية .. مسيرة كفاح ما بين الأخوين لاما ومصطفى أبو علي، موقع صوت العروبة الالكتروني، ٦ شباط ٢٠١٥.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) جورج سادول.

(١٣) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره.

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) موقع ذاكرة مصر الالكتروني، مصدر سبق ذكره.

(١٦) موقع جولولي، مصدر سبق ذكره.

(١٧) المصدر نفسه.

(١٨) رائد دوزدار، مصدر سبق ذكره.

(١٩) المصدر نفسه.

(٢٠) المصدر نفسه.

لغز بني إسرائيل بين الكتاب المقدس وكتب التاريخ والآثار

نجاة نصر فواز

ربما تكون كلمة لغز في عنوان هذا المقال مثيرة بعض الشيء، ولكن الواقع هو أن المثير، أكثر هو عدم مطابقة هذه التسمية مع الوقائع التي كشف عنها علم الآثار، حيث تبين أنه لم يوجد يوما ما قبيلة أو قوم أو شعب أو دولة بهذه التسمية في الشرق العربي، وتحديدا على أرض فلسطين، ويعتبر الأثر الأوحد خارج إطار الكتاب المقدس والقرآن الكريم هو ذكر هذه القبيلة على مسلة مرنبتاح، ولوحة مرنبتاح المعروفة أيضاً بـ بلوحة انتصار مرنبتاح ،هي لوحة تذكارية لفرعون مصر مرنبتاح الذي حكم مصر بين ١٢١٣ - ١٢٠٣ قبل الميلاد، تذكر هذه اللوحة انتصار الفرعون أمنحتب الثالث في بلاد الشام ومن ضمنها قبائل إسرائيل، كما فسر البعض من العلماء، وقد اكتشفها المؤرخ "فلندرز بيتري " في طيبة -الأقصر حالياً-عام ١٨٩٦ بعد الميلاد.

واللوحة موجودة بالمتحف المصري، وهي لوحة من الجرانيت الأسود، تُعرف بـ «لوحة إسرائيل»، نظرا لما تصوره البعض من ورود اسم (إسرائيل) على اللوحة، والنص المنقوش على اللوحة هو للملك «مرنبتاح» ابن «رمسيس الثاني»، وجاء ضمن النص أسماء القبائل والإمارات التي قضى عليها الملك؛ وأخضعها لحكم مصر، ومنها الفقرة التالية: «وأقفر يزريل، ولم يعد له بذور». وقد ترجم البعض (يزريل) بـ (إسرائيل)، ويؤكدون ذلك بورود التسمية ضمن أسماء القبائل والإمارات الأخرى التي أخضعها الملك، مثل "خاتى"، و"كنعان"، و"عسقلون"، و"ينعم"، و"خارو"، وكلها تشير إلى منطقة سوريا وفلسطين. ويعتقد العالم المصري "زاهي حواس" أن هناك احتمالاً كبيراً أن "يزريل" التي ذكرت على لوحة «مرنبتاح» لا تعني «إسرائيل»، وحتى لو فرضنا أنها إشارة إلى بني إسرائيل ستكون هي المرة الأولى التي تُذكر فيها إسرائيل في المصادر المصرية القديمة، وذكرها لا يكون دليلا، على الإطلاق، على أن الملك «مرنبتاح» هو فرعون الخروج.

وباعتقاد المفكر والباحث الفلسطيني د. علاء أبوعامر مؤلف كتاب " فك الشيفرة التوراتية" أن كلمة "يزريل" الوارد ذكرها في مسلة مرنبتاح لا تعني قوما بل سهلا زراعيا في شمال فلسطين وهو سهل "يزرعيل" التسمية القديمة لسهل مرج ابن عامر والعبارة واضحة بأنها تعني ذلك السهل الزراعي «وأقفر يزريل، ولم يعد له بذور». حيث يتساءل المفكر الفلسطيني ما دخل عبارة جفاف البذور بشعب أو قبيلة. أو غير ذلك، واضح إذاً أن المقصود هو السهل الزراعي الفلسطيني.

ومرج ابن عامر أو سهل زرعين (بالعبرية: **עמק יזרעאל**) "عيمق يزراعيل" أو"يزرعئيل" حسب تسميته في التوراة (العهد القديم). هو مرج واسع بين منطقة الجليل وجبال نابلس في شمال فلسطين التاريخية وتحديدًا في لواء الشمال حسب التقسيم الإداري الإسرائيليّ، صورته على شكل مثلث أطرافه: حيفا، جنين وطبريا. يبلغ طوله ٤٠ كم وعرضه المتوسط ١٩ كم ومساحته الكليَّة ٣٥١ كم.

وهكذا يعود لغز بني إسرائيل ليطرح أسئلة شتى حول من كان هؤلاء؟ ولماذا لم يتم العثور على لقى تاريخية تخصهم؟ ولماذا فقط جاء ذكرهم في الكتب الدينية دون غيرها وهي التي تمجدهم وتمنحهم قيمة كبيرة كسلالة مقدسة أثرت تأثيرا كبيراً في تاريخ وقيم المشرق العربي؟!

وفي ظل هذه الحيرة التي استرعت انتباه الكثير من العلماء طرح المؤرخ اللبناني "د. كمال الصليبي" كتابه المثير "التوراة جاءت من جزيرة العرب" والذي ادعى فيه أنه وجد أرض التوراة في عسير جنوب غرب العربية السعودية، وبالرغم من الضجة الكبرى التي أثارها إلا أن الأمر أصبح مشكوكا فيه.

وباستثناء مقارنة بعض الأسماء الجغرافية بالأسماء التوراتية لم يكن هناك جديد وحتى الأسماء التي اعتبرها مطابقة للأسماء التوراتية لم تكن دقيقة على الإطلاق وقد قام الكاتب السوري المتخصص في الميثولوجيا "فراس سواح" بالرد على نظرية الصليبي في كتابه "الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم" ليس بالبراهين التوراتية والإركيولوجية فقط ، بل وناقش نظرية الصليبي حول تطابق أسماء مدن جزيرة العرب مع مدن التوراة ومدن الساحل الفلسطيني ومواقعها المفترضة فيقول: أن الصليبي يعثر على "غزة" في موقع "العزة" الحالي في وادي أضم، و" أشدود" في " السدود" في منطقة جبال ألمع ، و" اشقلون" في "شقلة" بجوار مدينة "القنفذة"، و "جت" في "الغاط" بمنطقة جيزان، و"عقرون" في "عرقين" بوادي عتود الفاصل بين جبال ألمع ومنطقة جيزان .ولكن نظرة سريعة على خارطة الصليبي رقم ٣ ، تظهر أمراً في غاية الغرابة، فالمدن الخمس التي عثر عليها في غرب العربية، تتوزع على مسافات شاسعة جداً عبر بلاد عسير من أقصاها إلى أقصاها، وتتباعد عن بعضها مئات الكيلومترات عبر مساحات مليئة بمدن الشعوب الأخرى التي تعرف عليها الصليبي هناك ، مثل أهل يهودا وأهل إسرائيل والكنعانيين والآراميين .فالعزة (غزة) الواقعة في منطقة الليث، والغاط (جت)

الواقعة في جيزان ، تبعدان عن بعضهما حوالي ٧٠٠ كم .والسدود (أشدود) تبعد عن شقلة (أشقلون) أكثر من ٢٠٠ كم .وعرقين (عقرون) تبعد عن شقلة ٥٠٠ كم .فكيف تسنى لشعب واحد ، أن يبني مدنه الخمس على هذه الأرض الواسعة، وفي مواقع متبعثرة عبر أراضي الأعداء ؟!

في الحقيقة فقد خرج من عباءة د. كمال الصليبي، وأكمل دربه الكثير من الكتاب العرب في تأكيد على أن "الجغرافيا التوراتية" أي "أرض التوراة" هي في عسير واليمن. من هؤلاء الكاتب العراقي "د. فاضل الربيعي" الذي أصدر مجموعة من الكتب حول هذا الموضوع منها: "فلسطين المتخيلة" و "القدس ليست أورشليم" و"المسيح العربي" وغيرها. وكذلك فعل الكاتب الفلسطيني "د. زياد منى في كتابه "جغرافيا التوراة، مصر وبنو إسرائيل في عسير".

وحاول "الكاتب المصري "سيد القمني" من خلال كتابيه الرائعين "النبي إبراهيم والتاريخ المجهول" و "النبي موسى وأخر أيام تل العمارنة" الربط بين بني إسرائيل وعلم الآثار ليجد مكانا لهم يحل هذا اللغز المحير بين ما هو ديني وإركيولوجي ولكنه لم يفلح تماما في ذلك.

وبالرغم من جمالية الفكرة التي تداولها هؤلاء الكتاب والمؤرخون والتي قرأتها بتمعن إلا أنها تبقى فرضيات لم يؤكدها علم الآثار بعد، وربما ردُ الكُتاب والمؤرخين على بعضهم البعض يعتبر كافياً لأن نصل إلى قناعة بأن كل هذه الفكرة (أو لنقل النظرية تجاوزاً)، ليست مقنعة تماما مع أنه لا يمكن تجاهلها واحتمال أن تجد لها أساسا من المصداقية في المستقبل.

وفي الحقيقة فإن أكثر الكتاب العرب بل والغربيين اقترابا من الحقيقة هو د. علاء أبوعامر في كتابه "فك الشيفرة التوراتية" وكتابه الثاني الذي صدر قبل أيام " في البدء كان إيل" كما أخبرني صديق ومؤرخ يهودي تقدمي كنت قد أطلعته على فحوى الكتاب وترجمت له بعضا من نصوصه إلى العبرية.

تتمحور نظرية الدكتور علاء أبوعامر في اكتشافه وجود نصين متداخلين في كتاب العهد القديم: نص إيلوهيمي أو إيلي نسبة إلى إيل، ونص يهوي نسبة إلى يهوه، ويستنتج من ذلك أن هناك عقيدتين دينيتين متداخلتين، وبعد أن يفككهما في كتابه " في البدء كان إيل" يُخرج اليهودية ويرجعها إلى الهندوسية والمجوسية وإلى قوم من الهندو آريين. يكتشف أن اسمهم كان الحوريين الذين استوطنوا هضاب وجبال الضفة الغربية منذ القرن ١٨ قبل الميلاد، وبقوا في فلسطين إلى زمن السيد المسيح وهؤلاء هم اليهود، وقد أطلقوا على أنفسهم اسما مجازيا توراتيا وهو مسري الله (أسر إيل بمعنى أفرح إيل) وهذا الاسم لم يكن قبليا أو جغرافيا على الإطلاق. ولكنه يكتشف أيضا أن بني إسرائيل الوارد ذكرهم في القرآن والتوراة والأناجيل هم قبيلة عربية ثمودية اندثرت كانت قد سكنت شمال الحجاز مكة والمدينة وشرق الأردن من خلال متابعة رحلة يعقوب في طريقه إلى مضارب خاله

لابان كي يخطب ابنته راحيل. فمضارب القبيلة كانت في بلاد بني المشرق ديار قيدار ومدين شمال الحجاز(السعودية اليوم). ويسوق الكاتب عشرات الأمثلة والأدلة والقرائن ليبرهن على عروبة قبيلة بني إسرائيل، وليؤكد أنها لم تكن يهودية بالمجمل مع أن بعضا من أفرادها تهودوا في مرحلة ما.(انظر د. علاء أبوعامر :فك الشيفرة التوراتية ص ٥٥-١٢٤)

ولكن أكثر ما بهرني وبهر كل من قرأ الكتاب هو إصرار الكاتب على أن لغة التوراة الموسوية وبالتالي لغة بني إسرائيل كانت العربية الفصحى لغة القرآن، وهو موضوع أثار تعليقات من غير الخبراء باللغة العبرية، فاعتبروا الكاتب قد جازف وبالغ في استنتاجه من حيث أنه استخدم طريقة غير علمية في استنتاجه...! وبعد سماعي لهذه الآراء التي باعتقادي صدرت عن أشخاص لم يقرأوا الكتاب أساسا بل سمعوا عنه ولم يقرأوه فعليا، فلو قرأوه لوجدوا أن كل ما قام به الكاتب كان ذا منهج علمي، حيث عاد في تفسيره لأسماء بني إسرائيل، قبل أن يخرج باستنتاجه إلى قاموس الكتاب المقدس وإلى أصدقاء من المختصين في اللغة العبرية بينهم أنا شخصيا، وناقشهم في كل اسم على حدة وفي النهاية اعتمد أسلوبا مدهشا للوصول إلى الحقيقة حيث بحث عن مصدر التسمية من كلمات قالتها زوجات يعقوب ليئة أو رحيل أو قام بإعادتها إلى الحدث الذي وقع وجاء بعده الاسم.

وفي هذا المقال سوف أقوم بالتركيز على هذا الجانب من الكتاب نظرا لأهميته، وهي محاولة لاستجلاء الحقيقة. وبالرغم من أنني متمكنة جدا من اللغة العبرية إلا أنني عدت في مقارنة استنتاجات د. أبوعامر في كتابه المميز إلى خبراء في اللغة العبرية من اليهود لجعل بحثي هذا يتسم بمصداقية أكبر.

ولنأخذ بعض الاسماء على سبيل المثال لا الحصر التي أعتبرها الكاتب عربية أصيلة في مصدرها:

-زوجات يعقوب:

١.راحيل: الناقة بالعربية تسمى " الراحلة " كونها وسيلة السفر في تلك الأيام.

٢.ليئة: وهي البقرة الوحشية، واللَّأَى: الإبْطاء والاحْتِباس، بوزن اللَّعا، وهو من المصادر التي يعمل فيها ما ليس مِن لفظها، كقولك لَقِيته التِقاطاً وقَتَلْته صَبْراً ورأَيته عِياناً؛ قال زهير: فَلأْياً عَرفت الدارَ بعد توهُّم وقال اللحياني: اللَّأْيُ اللُّبْثُ، وقد لأَيْت أَلأَى لأْياً، وقال غيره: لأَيْت في حاجتي، مشدَّد، أَبطأْت.

٣.زلفة: الزَّلَفُ والزُّلْفةُ والزُّلْفَى: القُربةُ والدَّرَجة والمَنزلةُ.

٣.بلها: البَلَهُ: الغَفْلة عن الشرّ وأَن لا يُحْسِنَهُ؛ بَلِهَ، بالكسر، بَلَهاً وتَبَلَّه وهو أَبْلَه وابتُلِهَ كبَلِه.

– مصدر أسماء الأسباط:

٤. روبن: يقول التكوين: " ٣١وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ لَيْئَةَ مَكْرُوهَةٌ فَفَتَحَ رَحِمَهَا، وَأَمَّا رَاحِيلُ فَكَانَتْ عَاقِرًا. ٣٢فَحَبِلَتْ لَيْئَةُ وَوَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «رَأُوبَيْنَ»، لأَنَّهَا قَالَتْ: «إِنَّ الرَّبَّ قَدْ نَظَرَ إِلَى مَذَلَّتِي. إِنَّهُ الآنَ يُحِبُّنِي رَجُلِي»." (تك: ٢٩)

لننظر ماذا قالت ليئة: سمته روبن لأن الله نظر لمذلتها، ومن يقرأ التوراة يعرف أن زواج ليئة من يعقوب جاء عبر عملية خداع مارسها لابان خال يعقوب عليه، ولذلك لم يكن يعقوب يحبها بل كانت محبته لأختها رحيل زوجته الثانية وحيث أن الأولى كانت عاقراً أرادت ليئة أن تسجل نقطة لصالحها في مقابل أختها راحيل فحملت الصبي وخرجت إلى يعقوب ونسائه مفتخرة بما رزقت قائلة وبفرح: " رو-بن " أي " انظروا أبن " رو هو فعل الأمر من " رأى " مضارعه يرى وفعل الأمر للمفرد را، وللجمع رو، وبن تعني أبن أي ولد أو ذكر. وقد ذهب الحدث اسما للصبي.

٥.شمعون: " ٣٣وَحَبِلَتْ أَيْضًا وَوَلَدَتِ ابْنًا، وَقَالَتْ: «إِنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ أَنِّي مَكْرُوهَةٌ فَأَعْطَانِي هذَا أَيْضًا». فَدَعَتِ اسْمَهُ «شِمْعُونَ». " (تك: ٢٩) ومن الواضح أن الاسم قد حرف لأنها قالت الرب قد سمع كلامي والرب مفرد وليس جمع أي آلهة فالأصح أن تقول سمعان لان إله إبراهيم كان إلهاً واحداً وهو أيل فكيف تقول شمعون أي سامعون. ونجد هذا الاسم قد توارثته الأجيال بعد عصر يعقوب عليه السلام وأبنائه، فها هو في عصر المسيح عليه السلام يحمله أكبر تلاميذه أي " سمعان الصفا "، وهذا دليل على أن بني إسرائيل ظلوا محافظين على نقاء الاسم قبل التحريف الذي تعرضت له التوراة على يد الكتبة والأحبار وبعده، فالأسماء تتناقلها الأجيال وتحافظ في العادة على نقائها كونها تصبح تراثاً قومياً أو عائلياً وما زال العرب وحتى اليوم يسمون أبنائهم بهذا الاسم خصوصاً في بلاد الشام.

٦.لاوي:" ٣٤وَحَبِلَتْ أَيْضًا وَوَلَدَتِ ابْنًا، وَقَالَتِ: «الآنَ هذِهِ الْمَرَّةَ يَقْتَرِنُ بِي رَجُلِي، لأَنِّي وَلَدْتُ لَهُ ثَلاَثَةَ بَنِينَ». لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُهُ «لاَوِيَ». " (تك : ٢٩). لندقق فيما قالته ليئة أنها تتحدث وفي قلبها حزن وحسرة فرغم ولادتها لذكرين فإن قلب يعقوب ظل على حبه لرحيل شقيقتها الصغرى وكانت تعتقد في كل مرة تلد فيها أبناً أن قلب يعقوب سيميل إليها كما تعتقد في زماننا هذا معظم النساء العربيات من أن كثرة الخلفة قادرة على جعل الزوج يميل إليها كونها ترضي نفسيته ، ولكن يعقوب بقي يتجاهلها فولد ذلك لديها الحسرة والألم ومن هنا جاءت تسمية الصبي " لوعي " أي شوق وحسرة من اللوعة يقول العرب : " قلبي مشتاق وبه لوعة " ولو طلبنا من أحد الآريين لفظ كلمة لوعي للفظها هكذا لاوي إذ أن هناك ثلاثة أحرف لا يتقن نطقها سوى العرب وهي الحاء والعين والضاد.

٧.يهودا:" ٣٥وَحَبِلَتْ أَيْضًا وَوَلَدَتِ ابْنًا وَقَالَتْ: «هذِهِ الْمَرَّةَ أَحْمَدُ الرَّبَّ». لِذلِكَ دَعَتِ اسْمَهُ «يَهُوذَا». ثُمَّ تَوَقَّفَتْ عَنِ الْوِلاَدَةِ.) (تك: ٢٩) وهذا تحريف للاسم الحقيقي، حيث لم يعرف يعقوب ولا أفراد أسرته ولا جده أو عمه أو أبوه. الله بهذا الاسم أي يهوه بل كانوا يعرفونه باسم أيل والذي ارتبطت به معظم أسمائهم، وأول مرة في التاريخ وبحسب التوراة ذكر اسم الله باسم يهوه كان بعد يعقوب والأسباط بأربع مائة سنة بحسب كاتب سفر الخروج الذي هو عزرا، إذ يذكر كاتب سفر الخروج (٦: ٢-٣) ما يلي: " ٢ثُمَّ كَلَّمَ اللهُ مُوسَى وَقَالَ لَهُ: «أَنَا الرَّبُّ. ٣وَأَنَا ظَهَرْتُ لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ بِأَنِّي الإِلهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَأَمَّا بِاسْمِي «يَهْوَهْ» فَلَمْ أُعْرَفْ عِنْدَهُمْ."

وهذا يعني أنه من المستحيل أن يسمى الولد باسم إله لم يكن معروفاً في ذاك الوقت، ويعني أيضا أن الولد سمي باسم أخر يدل على كلام قالته ليئة .... فماذا قالت ليئة؟

قالت: هذه المرة أحمد الرب وإذا راجعنا معظم الأسماء أعلاه سنعرف أن معظمها كان بناء على كلمات قالتها ليئة وعليه فإن الاسم هو هادي وهذا الاسم مازال شائعاً لدى العرب حتى هذه الأيام.

وربما مهدي أو هود تيمناً بنبي عاد الذي يذكر العرب أنه هو عابر ذاته الوارد في التوراة أي جد كل قبائل العرب قاطبة بحسب التكوين وبحسب الإخباريين العرب أيضاً.

واعتقادنا هذا مبني على أن الكتبة في العادة يلوون السنتهم بالاسم أي يغيرون نطقه لا كل حروفه.

٨.دان: " ١فَلَمَّا رَأَتْ رَاحِيلُ أَنَّهَا لَمْ تَلِدْ لِيَعْقُوبَ، غَارَتْ رَاحِيلُ مِنْ أُخْتِهَا، وَقَالَتْ لِيَعْقُوبَ: «هَبْ لِي بَنِينَ، وَإِلاَّ فَأَنَا أَمُوتُ!». ٢فَحَمِيَ غَضَبُ يَعْقُوبَ عَلَى رَاحِيلَ وَقَالَ: «أَلَعَلِّي مَكَانَ اللهِ الَّذِي مَنَعَ عَنْكِ ثَمْرَةَ الْبَطْنِ؟». ٣فَقَالَتْ: «هُوَذَا جَارِيَتِي بِلْهَةُ، ادْخُلْ عَلَيْهَا فَتَلِدَ عَلَى رُكْبَتَيَّ، وَأُرْزَقُ أَنَا أَيْضًا مِنْهَا بَنِينَ». ٤فَأَعْطَتْهُ بِلْهَةَ جَارِيَتَهَا زَوْجَةً، فَدَخَلَ عَلَيْهَا يَعْقُوبُ، ٥فَحَبِلَتْ بِلْهَةُ وَوَلَدَتْ لِيَعْقُوبَ ابْنًا، ٦فَقَالَتْ رَاحِيلُ: «قَدْ قَضَى لِيَ اللهُ وَسَمِعَ أَيْضًا لِصَوْتِي وَأَعْطَانِيَ ابْنًا». لِذلِكَ دَعَتِ اسْمَهُ «دَانًا»." (تك: ٢٩)

وهنا أيضا اسم يدل على الحدث فقد قالت قد قضى الله لي وسمع أيضا لصوتي فسمته دان" والسؤال من الذي دان أي قضى، الذي دان هو الله الديان أي القاضي يقال في الكتاب المقدس المسيحي لأن الله سيدين هذا العالم في آخر الزمان وهو ما يعني أن الله سيقضي بينهم وهو تذكير بيوم الحساب فيوم الدينونة أو يوم الدين هو يوم القضاء العام.

٩.نفتالي:" ٧وَحَبِلَتْ أَيْضًا بِلْهَةُ جَارِيَةُ رَاحِيلَ وَوَلَدَتِ ابْنًا ثَانِيًا لِيَعْقُوبَ، ٨فَقَالَتْ رَاحِيلُ: «مُصَارَعَاتِ اللهِ قَدْ صَارَعْتُ أُخْتِي وَغَلَبْتُ». فَدَعَتِ اسْمَهُ «نَفْتَالِي»." (تك: ٢٩)

انظروا إلى هذه الفرحة التي تملأ قلب راحيل بعد أن كانت تعاني من عدم الإنجاب ها هي جاريتها

بلهة تشفي غليلها وتلد ذكراً آخر وتصيح راحيل صارعت أختي وغلبتها. فماذا يقول العربي عندما تغلق أبواب الرزق في وجهه وفجأة تفرج انه يقول: وبالحرف الواحد " الله فتحها علي " وهذا ما قالته راحيل قالت (إن فتح لي) والآن لنطلب من آري أن يلفظ هذه الجملة بالعربية إنه بالتأكيد سيلفظها هكذا كما كتبها الكهنة (إن فتا لي) أو (نفتالي).

١٠.جاد:" ٩وَلَمَّا رَأَتْ لَيْئَةُ أَنَّهَا تَوَقَّفَتْ عَنِ الْوِلاَدَةِ، أَخَذَتْ زِلْفَةَ جَارِيَتَهَا وَأَعْطَتْهَا لِيَعْقُوبَ زَوْجَةً، ١٠فَوَلَدَتْ زِلْفَةُ جَارِيَةُ لَيْئَةَ لِيَعْقُوبَ ابْنًا. ١١فَقَالَتْ لَيْئَةُ: «بِسَعْدٍ». فَدَعَتِ اسْمَهُ «جَادًا». " (تك: ٢٩)

والسؤال من الذي (جاد)؟ إنه الله تعالى الذي جاد على ليئة بذكر جديد من جاريتها زلفة بعد أن كانت قد توقفت عن الولادة. وجاد هي صيغة الماضي من الفعل يجود والأمر جود والجود هو الكرم والسخاء والعطاء.

ورجل جَواد: سخيّ، وكذلك الأُنثى بغير هاء، والجمع أَجواد، كسَّروا فَعالاً على أَفعال حتى كأَنهم إِنما كسروا فَعَلاً.

١١.أشير: " ١٢وَوَلَدَتْ زِلْفَةُ جَارِيَةُ لَيْئَةَ ابْنًا ثَانِيًا لِيَعْقُوبَ، ١٣فَقَالَتْ لَيْئَةُ: «بِغِبْطَتِي، لأَنَّهُ تُغَبِّطُنِي بَنَاتٌ». فَدَعَتِ اسْمَهُ «أَشِيرَ»." (تك: ٢٩) والحقيقة أن هذا الاسم قد عجزتُ عن تفسيره وحاولتُ جاهدا البحث عن مصدر له ولكن دون جدوى فكلام ليئة لا يدل على شيء وبعدما يئست ألهمني الله أن افتح القرآن على سورة يوسف وقرأت السورة مرات ومرات فعثرت على اسمي علم فقط لأبناء يعقوب هما يوسف وبنيامين. أغلقت القران محتاراً لأنني لم أجد ضالتي ولكنني لم أتوقف عن البحث وعدت مرة أخرى إلى سورة يوسف حيث لفت نظري الآية التي تقول:

فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {يوسف/٩٦} قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ {يوسف/٩٧} قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {يوسف/٩٨}

فالبشير هنا هو اسم علم لأحد أبناء يعقوب وقد حمل قميص أخاه يوسف وعندما اشتم يعقوب رائحة يوسف ابنه الفقيد عاد له النظر. فالبشير هنا ليس ملاك بل واحد من أبناء سيدنا يعقوب؛ هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية في المقارنة ما بين الاسم التوراتي والقرآني أشير والبشير نجد أن الكتبة قاموا بحذف حرفين فقط هما اللام والباء. والبشير من البشرى والبشرى التي زفت لليئة كانت ولادة ذكر جديد فأسمته البشير من الحدث.

١٢. يساكر: " ١٦فَلَمَّا أَتَى يَعْقُوبُ مِنَ الْحَقْلِ فِي الْمَسَاءِ، خَرَجَتْ لَيْئَةُ لِمُلاَقَاتِهِ وَقَالَتْ: «إِلَيَّ تَجِيءُ لأَنِّي قَدِ اسْتَأْجَرْتُكَ بِلُفَّاحِ ابْنِي». فَاضْطَجَعَ مَعَهَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ. ١٧وَسَمِعَ اللهُ لِلَيْئَةَ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ لِيَعْقُوبَ

ابْنًا خَامِسًا. ١٨فَقَالَتْ لَيْئَةُ: «قَدْ أَعْطَانِي اللهُ أُجْرَتِي، لأَنِّي أَعْطَيْتُ جَارِيَتِي لِرَجُلِي». فَدَعَتِ اسْمَهُ «يَسَّاكَرَ». " (تك: ٢٩) وإذا رجعنا إلى حديث ليئة مع يعقوب تلك الليلة فإن تلك الليلة لم تكن من حق ليئة بل من حق راحيل أخت ليئة إحدى زوجاته الثلاث الأخريات، ولكن ليئة احتالت عليه عندما أخبرته أنها أعطت لفاح لإحداهن مقابل التنازل عن تلك الليلة لها فخوفا من حدوث فضيحة أو انكشاف الكذبة بالأحرى طلبت من الله السترة وقد استجاب الله لدعائها أو رجائها هذا وبقي الأمر سراً. وعندما ولدت الطفل ذكرت الله الذي سترها فقالت يا ساتر وذهب ذلك اسما للغلام، وقد حرفه الكهنة اليهود لعلة في نفوسهم أو أختلف مع الترجمات.

١٣. زبولون: " ١٩وَحَبِلَتْ أَيْضًا لَيْئَةُ وَوَلَدَتِ ابْنًا سَادِسًا لِيَعْقُوبَ، ٢٠فَقَالَتْ لَيْئَةُ: «قَدْ وَهَبَنِي اللهُ هِبَةً حَسَنَةً. الآنَ يُسَاكِنُنِي رَجُلِي، لأَنِّي وَلَدْتُ لَهُ سِتَّةَ بَنِينَ». فَدَعَتِ اسْمَهُ «زَبُولُونَ». " (تك: ٢٩) لننظر ماذا قالت ليئة قالت الآن يساكنني رجلي، يساكنني أي يسكن معي أي يبقى طوال الوقت إلى جانبي، فهل السبب هو اقتناعها هذا وهو أن ولادة الستة بنين ستعمل على ترك يعقوب لزوجاته الأخريات والسكنى معها أم أن للموضوع سبباً آخر جعلها مقتنعة بأن ذلك سيحصل فعلا. ولو جئنا للمنطق فولادة ابن سادس لليئة ما كانت بقادرة على جعل يعقوب يترك الأخريات ويسكن معها فما الفرق بين الخمسة والستة ؟؟ والسبب الوحيد باعتقادنا القادر على جعل يعقوب يترك الدنيا وما فيها هو علة في الطفل ذاته أي أن يكون مريضاً على سبيل المثال أو واهن الجسم ضعيف واحتمال موته كان كبيراً إذا لم يعتن به العناية الكافية، لذلك اضطر أبوه أن يجلس طوال الوقت إلى جانب ليئة. والدليل على ذلك هو الاسم زبولون أي دبلان من الذبول وهو الشحوب ووهن الجسم، يقال نبتة ذابلة أي ضعيفة.

ذَبَلَ النباتُ والغُصن والإنسان يَذْبُل ذَبْلاً وذبُولاً: دَقَّ بعد الرِّيّ، فهو ذابِل، أَي ذَوى، وكذلك ذَبُلَ، بالضم.

ولو طلبنا من آري أن ينطق هذه الكلمة لنطقها هكذا زبلون أو زبلان. إذن الاسم هو ذبلان

١٤.دينه: " ٢١ثُمَّ وَلَدَتِ ابْنَةً وَدَعَتِ اسْمَهَا «دِينَةَ»." (تك: ٢٩) وهذا الاسم واضح مصدره الدين أو الديانة ومعناه متدينة أو متعبدة ومذكرها ديّن، وربما هي مؤنث الاسم دان وهي عادة العرب أن يسموا اسم الأخت بمؤنث اسم أخيها.

١٥. يوسف: ٢٢وَذَكَرَ اللهُ رَاحِيلَ، وَسَمِعَ لَهَا اللهُ وَفَتَحَ رَحِمَهَا، ٢٣فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتِ ابْنًا فَقَالَتْ: «قَدْ نَزَعَ اللهُ عَارِي». ٢٤وَدَعَتِ اسْمَهُ «يُوسُفَ» قَائِلَةً: «يَزِيدُنِي الرَّبُّ ابْنًا آخَرَ»." (تك: ٢٩)

ماذا قالت راحيل ، قالت يزيدني الله ابناً آخر ، وهذا معناه أن حالة الولد الصحية كان ميؤوسا

منها أي أن موته كان قاب قوسين أو أدنى فحديثها هو دعوة لله أن يرزقها بطفل آخر ، والسبب في تقديرنا لهذه الحالة أن راحيل ولدت بمعجزة وكانت ولادتها عسيرة ، فهي فرحة أن الله قد مسح عارها كون الأخريات شمتن بها ولكنها وفي نفس الوقت ترجو الله أن يعوضها بآخر إن مات ، ومن هنا جاءت التسمية يوسف أي يؤسف وهي من عبارة و أسفاه ينطقها العربي عندما يفقد عزيزا عليه أو يخيب رجاؤه في شيء يقول شخص لآخر إن فلان مريض يقول هذا شيء يؤسف أو مؤسف وقد جاء الاسم بحسب الحدث .

١٦. بنيامين: " ١٦ثُمَّ رَحَلُوا مِنْ بَيْتِ إِيلَ. وَلَمَّا كَانَ مَسَافَةٌ مِنَ الأَرْضِ بَعْدُ حَتَّى يَأْتُوا إِلَى أَفْرَاتَةَ، وَلَدَتْ رَاحِيلُ وَتَعَسَّرَتْ وِلاَدَتُهَا. ١٧وَحَدَثَ حِينَ تَعَسَّرَتْ وِلاَدَتُهَا أَنَّ الْقَابِلَةَ قَالَتِ لَهَا: «لاَ تَخَافِي، لأَنَّ هذَا أَيْضًا ابْنٌ لَكِ». ١٨وَكَانَ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهَا، لأَنَّهَا مَاتَتْ، أَنَّهَا دَعَتِ اسْمَهُ «بَنْ أُونِي». وَأَمَّا أَبُوهُ فَدَعَاهُ «بَنْيَامِينَ». ١٩فَمَاتَتْ رَاحِيلُ وَدُفِنَتْ فِي طَرِيقِ أَفْرَاتَةَ، " (تك: ٣٥)

وهذا يعيدنا إلى قصة ميلاد يؤسف، لقد كانت راحيل تحتضر عندما ولدت ابنها الثاني وإذا كان الأول قد سبب لها الألم والمرض أثناء الولادة فإن الثاني كان السبب في موتها، ولهذا أطلقت عليه اسم بن أوني عندما عرفت انه ذكر من القابلة، والأَوْنُ: الإعياءُ والتَّعَبُ كالأَيْنِ. مما يعني أن الاسم هو إبن مرضي وربما ينقص الاسم حرف واحد حتى يصبح صحيحا، وهو حرف الألف وبعد أضافته سيصبح الاسم هكذا بن أواني أي بن موتي والأوان بالعربية هي المرحلة التي تسبق الرحيل وهي النهاية أيضا. ولكن يعقوب لم يعجبه الاسم فسيظل سببا في تدمير نفسية الغلام فقال بن يامين أي بن يمن واليمين واليمن هما الخير باللغة العربية والمعنى الكامل للاسم هو ابن الخير.

وبعد استعراض تحليل د. أبوعامر وتفسيره لمعنى الأسماء ومصادرها وقصتها، بحثت فيما سمي لغة عبرية فلم أجد لها (أي الأسماء) أي معنى فيها، وعدت إلى قاموس الكتاب المقدس لأفهم هل هناك من تفسير لأجد أن ما ورد في كتاب "الشيفرة التوراتية" كان صحيحا مئة في المئة. فلنأخذ على سبيل المثال اسم راحيل Rachel في القاموس: اسم عبري معناه "شاة" ولكن اسم الشاة باللغة العبرية إذا كان المقصود الماعز فهو "عوز" وإذا كانت نعجة فهي "كيبسه" فكيف خرج معهم أن معناها شاة. إذا الكلمة عربية ومعناها ناقة. أما اسم ليئة فهو مأخوذ كما هو من العربية بمعنى البقرة الوحشية. ولنأخذ اسم إسرائيل يقول القاموس أن معناه بالعبري عبد الله ولكن في الحقيقة أن عبد الله بالعبري هي عبد إيل أو بشكل أدق عوفادي إيل أوعفد إيل أو عفديهوه ovad بينما يقول د. علاء أن معناه هو أسر إيل أفرح الله وهنا الموضوع منطقي، أعتقد بعد عودتي لقاموس العبرية وقواميس الكتاب المقدس أن الكل يعرف أن هذه الأسماء عربية ولكن التغاضي عن ذلك كان يخدم أموراً دينية لاهوتية أكثر من البحث عن الحقيقة.

وفي الحقيقة فإن ما يسمى اليوم باللغة العبرية أو العبرية الحديثة هي لغة ملفقة صاغها اليعازر بن يهودا الذي ولد باسم إليعيزز إسحاق پرلمن في ٧ يناير ١٨٥٨ في مدينة لوجكي التي كانت تقع في محافظة فيلنيوس بلتوانيا (أما اليوم فتقع داخل حدود البيلاروس). كان أهله يهوداً أشكنازاً متشددين بالدين ومن طائفة حسيدية. عندما كان في الخامسة من عمره تيتم عن أبيه فأرسلته أمه ليتعلم في يشيفا (مدرسة يهودية دينية). عندما كان في العشرين من عمره سافر إلى باريس ليتعلم الطب، ولكنه ترك الدراسة بعد ٣ أعوام قبل إتمامها.

في أبريل ١٨٧٩ نشر مقالته الأولى حيث قال إن نهضة اليهود ستكون في فلسطين "إيرتس إسرائيل" وإن أساسها سيكون تبني اللغة العبرية في جميع مجالات الحياة اليهودية، لأن الشعب لا يتمكن من النهضة دون لغة مشتركة لأبنائه.

وقد أفرد د. أبوعامر بحثا واسعا حول هذا الموضوع، أي أصول ما سمي لغة عبرية ودحض أن تكون هناك لغة بهذا الاسم، فالعبرية القديمة هي "لسان كنعان" كما يقول النبيان ارميا واشعيا في سفريهما.

ويعلق د. سيد القمني على أن العبرية هي لغة كنعان فيقول " أما النسخة العربية، فتؤكد على غلافها {قد تُرجم من اللغات الأصلية، وهي العبرانية (أصلًا الكنعانية) واللغة الكلدانية (وما تحمله من تراث رافدي طويل) واللغة اليونانية (وما حملته من علوم جامعة الإسكندرية وتراثها المصري العريق)" (الأسطورة والتراث ص ١٩٠).

للأسف الشديد فقد أنطلت على بعض العرب ومنهم مؤرخون وكتاب بدعة اللغة العبرية، فظنوا أن هناك شعبا سمي عبريا. وفي الحقيقة كلمة عبري كما يوضح د. علاء أبوعامر في الفصل الأول من كتابه "فك الشيفرة التوراتية" تعني العرب والبدو منهم تحديدا من عابر السبيل أي الرحل، وإسرائيل تعني مفرحي الله أي أبناء إيل واليهود هم أبناء يهوه لا إيل الذي هو الله العربي. يبرهن الكاتب على ذلك من أسفار التوراة نفسها.

لقد صنعت الصهيونية تاريخا لها من تاريخنا، ومطبخاً لها من مطبخنا، ولباسا من البستنا، ولغة اشتقت من لغتنا العربية والعامية الفلسطينية تحديدا. وهكذا أسسوا شعباً يريد أن يجردنا من ارضنا ووطننا. فهل بعد كتابي د. أبوعامر "فك الشيفرة التوراتية "و "في البدء كان إيل" بقي لدى أحدٍ شك في أن قضيتنا عادلة، وأننا نحن شعب الله المختار؟ .

"حيث اختفى الطائر" .. ميثولوجيا اللاجئ وطواطمه

أشرف الزغل

لك أن تقرأ "حيث اختفى الطائر" كرواية، لكنك لن تعطي النص ما يستحقه إن فعلت ذلك. "حيث اختفى الطائر"، الذي هو آخر أعمال غسان زقطان الأدبية (حتى كتابة هذه السطور) له معمار خاص، يعتمد على غنائية عميقة فيها فعل درامي استبطاني مستمر. بإمكانك أن تسميه "الشعر في قنوات السرد" كما وصف الناقد المصري صلاح فضل نصوصا سردية عربية فيها نفس غنائي قوي، وبإمكانك أن لا تسميه أبدا؛ متبعا نصيحة الكاتبة الأميركية المرموقة فرجينيا وولف : "من الممكن ان نلاحظ بزوغ شكل روائي لم نقدمه باسم خاص حتى الآن. وسيكتب نثرا لكنه يتضمن قدرا كبيرا من خصائص الشعر ... أما ماذا سنطلق عليه فليس لذلك أهمية كبيرة".

نحن أمام نص سردي شعري حداثي، تكمن فعاليته الرمزية والجمالية في "تفكيك حكمة" المكان، تماما كما يفعل أحدنا عندما يقرأ قصيدة ما(وفقا لجاك لاكان). الحكمة ذاتها التي عالجها المؤلف في نصه اللافت "وصف الماضي"، غير أن المشهد هنا واسع وفسيح، فمن غرفة البنت والباب الموارب والكراسي المفككة في "وصف الماضي"، إلى الخرابات والأديرة والطيور المحلقة في دهاليز السرد في النص الذي أمامنا. السرد الذي يتسع للوطن ومعماره الجغرافي والميثولوجي.

في مساحة دافئة مطمئنة بين المتخيل والرمزي والواقعي يقع نص زقطان الجديد، الذي لا يقدم نفسه كرواية وطنية فيها طرافة سياسية شعبوية بل كتجربة سردية حداثية جديرة بالقراءة والإهتمام. هي تجربة، على طمأنينتها، شجاعة في التوغل في سؤال الوطن كمعلم وجودي إنساني وفي الآخر ليس كصانع مشهد فقط بل كمشاهد، فيه من الإرتباك والغربة ما فيه.

جغرافيا العاشق

في الفصول الأولى من "حيث اختفى الطائر" يتشكل مشهد فيه جغرافيا غامضة، تتعلق بفلسطين لكن لها مراتب أخرى يتم تثبيت الزمان فيها أو تمكينه ليصبح جغرافيا موازية لفلسطين. معالم المشهد تتكون من مزيج من الغيبي والحقيقي، فهو مشهد فيه الماضي يسرق الخطوات باتجاهه، فكأنه الرغبة ذاتها؛ الماضي يتقمص الرغبة ويجمح بشخوص الرواية الذين يتحركون كعائلة ضائعة على جزيرة نائية؛ عائلة من الأنبياء أو من أشخاص قادرين على التحدث مع الأرض بلغة خاصة. يحيى الذي يسير ويصير في الميثولوجيا يحاور زكريا ويونس يحاور ياسين . الجدل يدور على حكايات فيها الأرض سر هائل. نداءات خفية تنبع من "جسد شجرة البلوط في مدخل القرية" وغياب أجساد في محصلة الحدث الذي يحمل إحداثياته خارج المكان وداخله في آن واحد.

في السياق السردي الفلسطيني، هناك تقاطعات لهذا النص مع نصوص سردية سابقة مثل "سرايا بنت الغول" لأميل حبيبي. ثمة تقاطعات مع "وصف الماضي" لغسان زقطان أيضا. ما ينبغي الإشارة إليه بخصوص "حيث اختفى الطائر" أن السرد هنا أقرب إلى الشعر بمقدار أكبر من الذي في "وصف الماضي"، أما بالنسبة ل "سرايا بنت الغول"، فسردية زقطان أكثر كثافة وأقل تشتتا من الناحية النثرية، بحيث لا نرى أثرا في نص زقطان للخطابية والنثرية المتذاكية الجافة والممتدة أفقيا لا عموديا.

تأخذ الحكاية الفلسطينية في "حيث اختفى الطائر" مذهب "الباب الموارب"، حيث السرد ينحت في أنطولوجيا الخرافة ودلالاتها، حيث الغناء صنو الصلاة وحيث هوامش الجغرافيا هي ذاتها البئر حيث جسد يحيى يحك جسد سارة في الواقع والمجاز. يحيى الذي كان يسرح قبل قليل في خرائب البلد قتل مع الفجر. سارة التي التصق بها يوما في ممر ضيق لا تعرف. يدفنه زكريا في حفرة تحت "شجرة يوسف"، ويقول "للشبح الصامت تحت شجرة يوسف" وبذات اللغة الخاصة التي تربطه بالسحر الذي هناك في عمق الأرض : "إسمه يحيى". ينتهي فصل دفن يحيى بشكل غنائي حاد، فرأس يحيى لا يزال بيدي زكريا ورائحة سارة لا تزال على جسده.

ميثولوجيا اللاجئ وطواطمه

من البداية إلى النهاية تسعى سردية غسان زقطان في أمر الإسقاط الميثولوجي لسيرة اللاجئ الفلسطيني، إسقاط بالمعنى الرياضي الديكارتي المعقول من جهة وبالمعنى السينمائي الغرائبي من جهة أخرى. ففي فصل دير مار سابا، نلحظ التناسق الذكي بين نص معماري تجريدي هو دير مار

سابا بخطوطه النابتة في الجبل كشاهد على حقيقة ما وبين روح ذلك النص في الحكاية؛ حكاية الهوية الهاربة من التحقق والمتحققة في الهروب في آن واحد. هوية الراهب/اللاجيء يحمل في رأسه خطوط تشكله وإشكاليات تلك الخطوط في آن واحد. هل هي تراجيديا الثنائيات؟ الواقع والحلم، البئر والأفق، الدير كبيت الله الخائف والكنيسة كبيته الآمن في روما أو في فلسطين ما بعد الميثولوجيا.

فيما يلي، نرى وصف دير مار سابا الجميل والذكي، حيث "الشعر في قنوات السرد" والسحر في أوردة الحجر:

"في الداخل حيث الضوء أكثر شحوبا ومع غياب الشمس كان الدير يمتلئ بخمسة آلاف راهب من البنائين الذين بنوه حجرا حجرا وحفروه داخل الجبل رفقة الراهب "سابا" قبل أكثر من ١٥٠٠ عام، ويصعد قاسيون ورجال وصلوا تخوم القداسة من توابيتهم، حيث يلتقي الأحياء والموتى في ردهات الدير وممراته لتلاوة صلواتهم، كأنهم يقسمون الخبز فيما بينهم من الليل حتى الضحى.

كان يسمع أحاديثهم وخطاهم ويميز خطى الموتى الخفيفة وتمتماتهم الخالية من اللغة، ويحبس حركة جسده تاركا لهم الهواء كاملا"

ميثولوجيا اللاجئ في حكاية زقطان فيها عناصر الغناء من دوران وتكرار وفيها عناصر التوتر الدرامي الرمزي، بحيث تتحرك اللغة والصورة داخل الحكاية وخارجها. لذلك فإنها - على الرغم من صغرها وعدم اعتمادها على تطور الشخصيات والبؤرة الدرامية التقليدية - تنحت ما يمكن تسميته معالم أو طواطم سردية تمشي إلى جانب الشخصيات، أو تخرج من حواف ظلالهم. في ذلك إرباك ما، لكنه إرباك مدهش يبعث على الإيغال في قراءة الحكاية وروايتها أيضا بحيث يقع القارئ في مستوى المؤلف؛ يبحثان سويا عن الطائر الذي حلق في الجوار أو بقي عالقا في مكان مريب.

الآخر - أكثر من حكاية

في "حيث اختفى الطائر"، الآخر عنصر وجودي من عناصر المشهد؛ عنصر مزدوج فهو الصياد الكولونيالي الأبيض في الكمائن على مداخل القرى في فلسطين وهو أيضا الفريسة التي جاءت من بلاد تتكلم العربية و"علقت" في تراجيديا لم تكن في مخيلتها. اليهودي الأبيض الكولونيالي أتى عبر البحر كي يكمل رحلة حج لها ارشيفها العنصري، حيث أرض الأغيار أرض بلا شعب، وهناك اليهودي العربي، ذلك المرتبك الذي "قدم من المغرب، وعلق هنا". لا نرى كثيرا من اليهودي الأبيض، فقصته تشبهه، هي خائفة ومتهمة، تقرفص خلف الكمائن بانتظار ضحية ما تعطيها تعريفا تقليديا تفضله.

أما اليهودي العربي فروايته تبدو عالقة في مشهد عبثي. يقدم زقطان في وصف ذلك مقطعا أعتبره من أجمل مقاطع الحكاية :

"فكر "زكريا" وهو ينصت للعجوز الثمانيني من "الدار البيضاء" أن الرجل كان مستنفذا تماما، وأنه ليس غاضبا، كما أعتقد للوهلة الأولى عندما سأله عن قبر "يحيى".

كان يقف بعد الغضب، وبعد الرضا، بعد الفضول وبعد الخوف، بعد الندم، كان قد وصل إلى تلك المنطقة التي لا تحدث فيها الأشياء

الفضاء الذي تصله الأشياء بعد أن تحدث، هناك بالضبط جلس وحيدا ومتعثرا في استسلامه الخاص تحت مظلته

من مكان ما لا يتبينه أتى توقع المطر، من التكرار والضجر والانتظار، ليس من أي نبوءة.

كان جسده قد تولى أمره منذ زمن ولم يعد يتذكره"

الطائر المريب

للطائر في نصوص غسان زقطان الشعرية والسردية دلالة لاشعورية حاسمة، فهو ذلك الشيء الذي يعلق أو يطير في مكان ما بين اللغة والذاكرة، هو صوت مرة وصورة مرة أخرى، هو جرس كالذي في مجموعته الشعرية " كطير من القش يتبعني" .زقطان، برومانتيكيته الناعمة يكرز خلف الطير أو أمامه "جرس واحد كان يندها بإسمها وهو يصعد/ ربما كي يرى الهاء معقودة" فوق حرش الصنوبر".

في "حيث اختفى الطائر"، وعلى النقيض من دلالات الطير الأليفة في نصوصه السابقة، ثمة ريبة وخوف. الطائر هنا، على نقيض الطير غامض كأحجية أو كحقيقة منقرضة. في وسع القارئ أن يتخيل غرابا أو تنينا لا عندليبا أو شحرورا. رومانتيكية ملحمية سوداء ترشح من ذيل الطائر.

المتخيل - الرمزي - الواقعي

تُذكّر سردية زقطان نوعا ما بملحمة جلجامش وسعي جلجامش الحثيث إلى الخلود، برفيق جلجامش أنكيدو. هل يحيى وزكريا هما جلجامش وأنكيدو، وهل الطائر إله هائل المكر يتجسس عليهما ويضمر لهما المرض والفناء. أم أنهما الأب والابن في الأثر الديني الإسلامي ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا

نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾. وهل هناك طرافة سياسية ما في الموت الذي اقتلع رأس يحيى وهو في إثر زكريا. الموت الذي يكمن خلف الكمائن حيث بني إسرائيل الجدد. في الأثر، ذكر الطبري أن فساد بني إسرائيل الأول كان بقتل زكريا، وأن فسادهم الثاني كان بقتل يحيى. هل هو فساد بني إسرائيل الثالث، حيث يطاردون أبناء زكريا؟ . يبدو أن زكريا-القرية وريثة الميثولوجيا بخراباتها العميقة، حيث الطائر يحلق منها وإليها هي الوحيدة التي تعرف سر الدلالة.

ثمة حكاية ليهودي ضائع هنا، يعرف زكريا من خلالها "أن ثمة أحداثا لا تمتلك القوة للحصول على نهاية، وإن حياة هذا العجوز من هذه الأحداث ....

يعرف الآن على نحو جلي أن ثمة أشياء لا تمتلك القوة للحصول على نهاية.

لا تمتلك الحق أيضا.

لم يعد ممكنا الحصول على نهاية".

خاتمة

لا شك أن هناك نفس تراجيدي ملحمي في سردية غسان زقطان الجميلة، لكنه نفس غير متصاعد بل متعدد المراكز بحيث يملك كل مركز روحا خاصة في مثلث: المتخيل - الرمزي - الواقعي. نحن أمام نص سردي شعري مهم يتشكل على تطويع الرمز الميثولوجي في لعبة درامية داخلية، مبنية على تعدد الأصوات الحية والتي تحت التراب في ذات اللاجئ الفلسطيني، حيث تختفي كراسي الملاذ القديم وتتفكك، وحيث المتكلم والمخاطب والغائب يشكلون جسد السرد بوحدانيته، كما في "وصف الماضي" سردية غسان زقطان الأخرى، والتي لا بد من قراءتها أيضا لسبر سياق روائي فلسطيني فريد وخاص.

مؤسسة ياسر عرفات

تقرير فعاليات مؤسسة ياسر عرفات

قامت مؤسسة ياسر عرفات في الخمسة اشهر الأخيرة من عام ٢٠١٥ بالتركيز على الذكرى الحادية عشرة لاستشهاد القائد المؤسس ياسر عرفات. وتواصلت المؤسسة مع الاقاليم والجامعات والمدارس وكافة المواقع من أجل التعاون ودعم اي نشاط يتعلق بالذكرى من تقديم ملصقات إلى تقديم معارض او جداريات أو المشاركة بأنشطة خاصة. أما الفعاليات فكانت كالتالي:

تخصيص الحصة الأولى في كافة المدارس لياسر عرفات يوم ١١\١١

بادرت المؤسسة بالتواصل مع معالي د. صبري صيدم، وزير التربية والتعليم العالي، لجعل ذكرى القائد المؤسس ياسر عرفات محطة وطنية تتوحد فيها الجهات الرسمية والأهلية والفصائلية من أجل استلهام العبر من حياته. فقد اجتمع المدير العام للمؤسسة، د. أحمد صبح، مع د. صبري من أجل الحصول على قرار رسمي من قبل وزارة التربية والتعليم العالي لتخصيص الحصة الأولى في مدارس فلسطين الحكومية والخاصة للذكرى واهميتها. وقد تم تثبيت ذلك رسميا وقدمت المؤسسة ملخصا من خمس صفحات عن حياة القائد الراحل من اجل استخدامها كنص معتمد لكافة المدارس.

الملصقات وتوزيعها على كافة المواقع

تقرر هذا العام تقليص المصروفات المتعلقة بالذكرى الحادية عشرة واقتصارها على طباعة الملصقات والدعوات وعدد من اللوحات الإعلانية فقط في منطقة رام الله. وبناء على خبرة السنوات السابقة قررت المؤسسة ان تزيد عدد الملصقات لصورة القائد المؤسس بسبب الطلب الكبير من قبل الاقاليم والمؤسسات والنوادي والمدارس والجمعيات والكليات. وقد تم طباعة ١٠٠٠٠ ملصق تحت شعارين وحدة...وحدة وطنية و ع القدس رايحين تماشيا مع الوضع السياسي الحالي الذي يشير نحو القدس وكانت صورة القدس هي الخلفية لكافة المطبوعات والملصقات. وقد تم التوزيع على مختلف المناطق، كما ارسل الكترونيا للسفارات والأقاليم الخارجية.

كما قامت المؤسسة بطباعة ٣ جداريات لمنطقة ابو قش وجنين وصوريف، كما طبعت ٤٠٠٠ ملصق خاص لاقليم رام الله والبيرة عبارة عن صورة للقائد ياسر عرفات حملت ايضا شعار المؤسسة. وبناء

على طلب المؤسسات والمدارس والمواقع تم توزيع بعض من انتاجات المؤسسة لعرضها في فعاليات الذكرى الخاصة بهم. إضافة إلى تقديم عدد من معارض الصور (محطات، فلسطين الثورة ونوايا) لجامعة بيرزيت وجنين وجامعة القدس المفتوحة – دورا ومدرسة الوحدة.

وقامت المؤسسة بالمشاركة في تقديم محاضرة حول القائد المؤسس ياسر عرفات في مدارس الفرندز تلبية لدعوتهم، وشاركت ايضا بافتتاح معرض الصور في مدرسة الوحدة للبنين في ام الشرايط.

الحفل الثقافي السنوي (يوم الانجاز)

أحيت المؤسسة يوم الثلاثاء ٢٠١٥\١١\١٠ في قصر رام الله الثقافي الذكرى الحادية عشرة لاستشهاد القائد المؤسس ياسر عرفات. وبدأ الحفل بالنشيد الوطني الفلسطيني وآيات من الذكر الحكيم تبعها كلمة ترحيبية سياسية القاها د. ناصر القدوة، رئيس مجلس الإدارة ومن ثم كلمة دولة د. رامي الحمدالله، رئيس الوزراء. تخلل الحفل تسليم جائزة ياسر عرفات للإنجار لمؤسسة دار الطفل العربي تبعتها فقرة فنية لفرقة جامعة الاستقلال للدبكة والفنانة دلال ابو آمنة في أغنيتين من عرض "ونحلم وطن" كلمات الشاعر غسان زقطان والملحن عودة ترجمان واغنيتين وطنيتين ملتزمتين.

جائزة ياسر عرفات للإنجاز ٢٠١٥

فازت مؤسسة دار الطفل العربي بجائزة ياسر عرفات للإنجاز لعام ٢٠١٥، وسلم الجائزة، كل من أمين عام الرئاسة الطيب عبد الرحيم، ورئيس الوزراء د. رامي الحمد الله، ورئيس مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات د. ناصر القدوة، ورئيس لجنة الجائزة السيد علي مهنا، لرئيسة مجلس أمناء مؤسسة دار الطفل العربي السيدة ماهرة الدجاني.

تأسست دار الطفل العربي في ٢٥ نيسان ١٩٤٨، من قبل المرحومة هند الحسيني، لخدمة الأطفال الأيتام والمحتاجين الفلسطينيين من خلال توفير الرعاية والإقامة والغذاء والترفيه لهم، وسجلت المؤسسة في ٧ تموز عام ١٩٦٥ في سجلات العمل لوزارة الشؤون الاجتماعية الأردنية، كجمعية خيرية، ثم سجلت كجمعية خيرية لدى السلطة الوطنية الفلسطينية في شهر حزيران من عام ٢٠١٠.

مراسم وضع الاكاليل على ضريح القائد المؤسس ياسر عرفات

نظمت المؤسسة يوم ٢٠١٥\١١\١١ مراسم رسمية لوضع اكاليل على ضريح القائد المؤسس ياسر

عرفات احياء لذكراه الحادية عشرة. وبدأت الوفود بالرئاسة الفلسطينية تبعتها رئاسة الوزراء ومن ثم اللجنة التنفيذية واللجنة المركزية لحركة فتح والأمناء العامون للفصائل ومجلس إدارة وطاقم المؤسسة. وبعد انتهاء المراسم الرسمية حضرت حشود كبيرة من أبناء الشعب الفلسطيني لقراءة الفاتحة لروح الرئيس ياسر عرفات احتراما وتخليدا لذكراه.

إحياء ذكرى القائد المؤسس في القاهرة

أحيت مؤسسة ياسر عرفات في القاهرة الذكرى الحادية عشرة لاستشهاد القائد المؤسس تحت شعار "ع القدس رايحين" يوم السبت الموافق ٢٠١٥/١١/١٤ في مقر حزب التجمع، وسط البلد. وحضر المؤتمر كافة قيادات حزب التجمع ورئيسه سيد عبد العال، ونائبه عاطف مغاوري، والمتحدث الرسمي نبيل زكي، والدكتور خالد الأزعر نائبا عن السفير الفلسطيني في جمهورية مصر العربية، وسميح برزق أمين سر حركة فتح، وقيادات من الحركة. وتحدث بمناسبة الذكرى السيد محمد القدوة، محافظ غزة السابق.

الإعلام

- التنسيق مع عدد من الاذاعات المحلية التي خصصت موجة مفتوحة يوم ٢٠١٥/١١/١١
- التنسيق مع تلفزيون "فلسطين مباشر" للتغطية المباشرة على الهواء لحفل قصر الثقافة يوم ٢٠١٥/١١/١٠
- التنسيق مع تلفزيون فلسطين و "فلسطين مباشر" لتغطية وضع الاكاليل على الضريح يوم ٢٠١٥/١١/١١
- ابلاغ وسائل الاعلام المحلية و غير المحلية بتفاصيل الفعاليات و تزويدهم ببرنامج الفعاليات باللغتين العربية و الانجليزية.
- التنسيق مع قناة "عودة" لعمل مقابلات مع شخصيات من المؤسسة في اطار تغطيتها لفعاليات احياء الذكرى الحادية عشرة.
- التنسيق مع تلفزيون فلسطين لاستضافة شخصيات من المؤسسة في اطار تغطيته لفعاليات احياء الذكرى الحادية عشرة.

• التنسيق مع وسائل الاعلام الفلسطينية و غير الفلسطينية لاستضافة شخصيات من المؤسسة ضمن تغطياتها في الذكرى.

• التنسيق لعمل حلقة عن المؤسسة من برنامج مرايانا الثقافي الذي يبث على تلفزيون فلسطين .

• التنسيق لحلقة برنامج الاسرى على تلفزيون فلسطين الذى تم بثه من الضريح في الذكرى.

• التنسيق لحلقة برنامج فلسطيني الذي تبثه قناة عودة كان موضوعها عن مؤسسة ياسر عرفات

• التنسيق لحلقة برنامج صباح موطني الذي بثته قناة عودة من امام الضريح.

• التنسيق لاستضافة شخصيات من المؤسسة عبر فقرات و برامج الاذاعات الفلسطينية للحديث عن فعاليات الذكرى و جائزة ياسر عرفات للانجاز.

• ارسال بيانات صحافية لوسائل الاعلام تتحدث عن الفعاليات الذي نظمتها المؤسسة.

• اطلاق حملة اعلانية للذكرى على المواقع الالكترونية بالعمل مع شركة مكسبيري.

• تفعيل الاعلان الممول على صفحة المؤسسة في فيسبوك.

• توثيق فعاليات الذكرى بالصور .

• المتابعة مع ارشيف تلفزيون فلسطين للحصول على ما تم تصويره من طرفهم في الذكرى.

انتاج DVD "ونحلم وطن"

قامت المؤسسة بإنتاج عرض "ونحلم وطن" في أقراص مدمجة تحتوي على الخمس أغاني التي تم انتاجها عام ٢٠١٤ من قبل المؤسسة إضافة إلى نص الشاعر غسان زقطان وتسجيلها بصوته. ورافقت الأغاني مقاطع من فيديوهات موجودة في الأرشيف حول فلسطين وياسر عرفات.

رسائل نصية يوم الذكرى

قدمت الوطنية موبايل ٢٠٠ الف رسالة نصية مجانية وجوال ١٠٠ الف رسالة نصية تم ارسالها يوم ١١/١١ بالنص التالي: "في ذكرى استشهاد القائد المؤسس ياسر عرفات نترحم عليه وعلى كل شهدائنا..."

متحف "ياسر عرفات"

لا بد من الاشارة هنا أن مؤسسة ياسر عرفات مستمرة بالعمل المتواصل من أجل تأثيث وتجهيز "متحف ياسر عرفات" ليكون جاهزا لاستقبال الجمهور هذا العام.